#6

خالد السَّعيد



16.9.2018

حَرقُ الكُتب

تاريخ إتلاف الكُتب والمَكتبات



حرق الكتب

تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات

خالد السعيد



حرق الكتب

حرق الكتب
خالد السعيد
الطبعة الأولى 1439 / 2018
ردمك 978-01-947836-07-5



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

تمهيـــد

يعدُّ هذا الكتاب الذي بين يديك امتدادًا وإضافة إلى ما كتبه زميل القلم المتألق الأستاذ ناصر الحزيمي صاحب الكتاب الشهير (حرق الكتب في التراث العربي) قبل نحو خمسة عشر عامًا. أذكر أني حينما فرغت من قراءة كتاب الحزيمي قبل ما يقرب من ثمانية أعوام، قلت في نفسي، وقد استهواني الكتاب وأعجبتني فكرته: لماذا لا أضع كتابًا على تلك الشاكلة؟ وظلت هذه الفكرة معي أمدًا طويلاً، تطفو قليلاً، وتغفو كثيرًا، تقترب مني مرة، وتبتعد عني مرات. ولمّا كانت بداية هذا العام الميلادي، عام 2017، عزمت على تحويل هذه الفكرة المجرّدة إلى واقع ملموس.

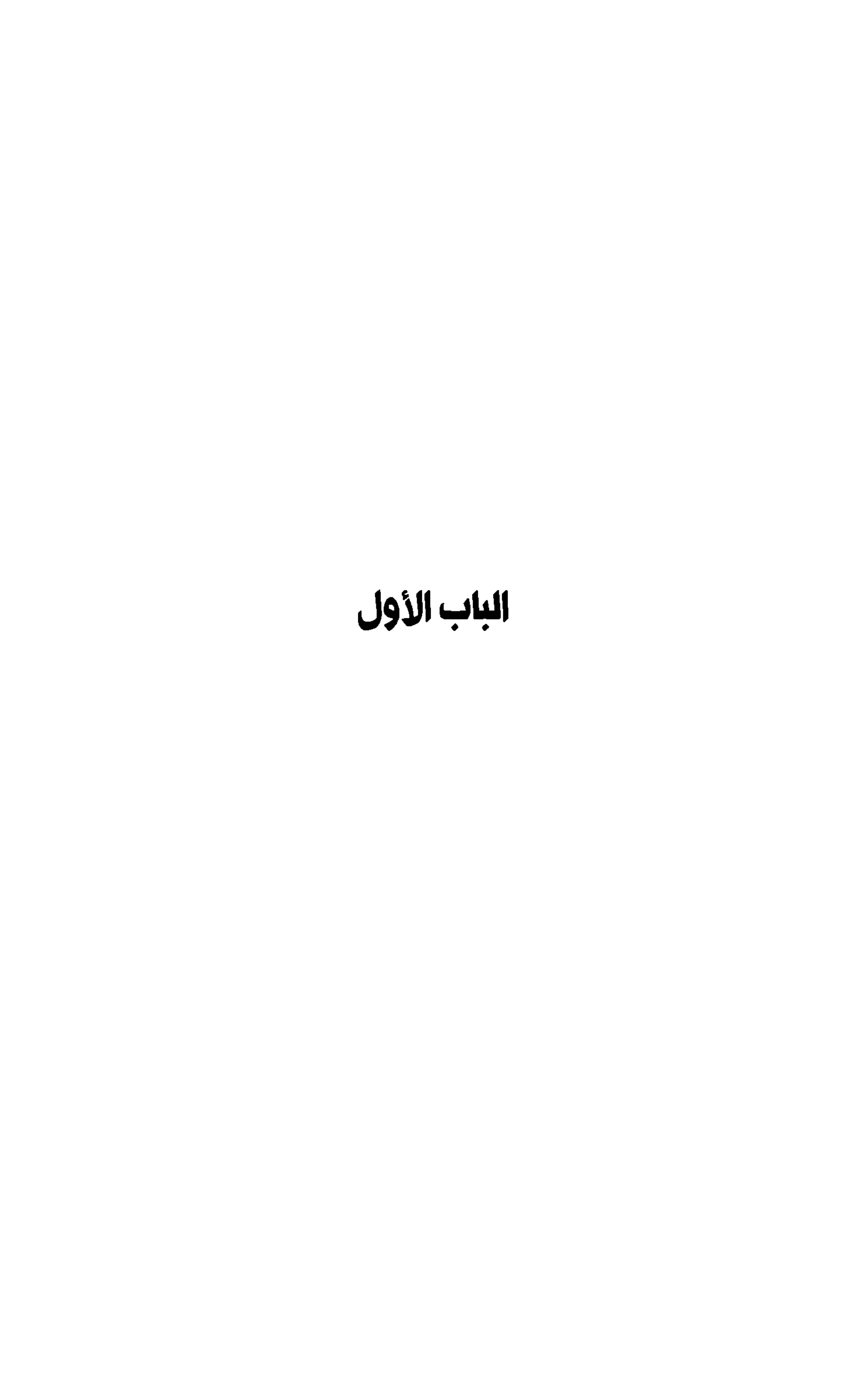
وكما يعلم كل من قرأ كتاب (حرق الكتب في التراث العربي)، فإنه يسلّط الضوء على كثير من حوادث إتلاف الكتب، على يد مؤلفيها أو على يد السلطة، خلال قرون الإسلام الأولى. وحتى لا يبقى كتابي هذا مجرد تكرار ممل واجترار مسفٍ لكتاب الأستاذ ناصر الحزيمي، فقد أخذت على نفسي تعقب حوادث إتلاف الكتب منذ إشراقة شمس الإسلام وحتى يومنا هذا. ثم عزمت، بما أني سأتحدث عن حرق الكتب على يد أصحابها أو أعدائها، أن أتحدث عن حرق المكتبات في ديار الإسلام في الماضي والحاضر، حتى تكتمل الفائدة ويعم النفع. وحتى لا يبقى الكلام محصورًا على المسلمين دون غيرهم من الأمم، فقد سحت في مشارق الأرض ومغاربها ألاحق محارق الكتب والمكتبات هنا وهناك، تلك التي جرت في الماضي البعيد أو في الحاضر القريب.

ومن المهم أن يدرك القارئ الكريم أني لا أنوي تتبع كل حوادث إتلاف الكتب والمكتبات وحصرها، سواء أعندنا نحن المسلمين أم عند غيرنا من الأقوام الأخرى، لثلاثة أسباب. أولها، أنه يتعذر على الباحث مهما تجرّد لهذه المهمة وتفرغ لها أن يمسك بناصية كل حادثة جرت عندنا وعندهم على مر السنين. وأما السبب الثاني، فهو أن الحرص على حصر كافة الحوادث يستغرق وقتًا طويلاً وجهدًا عظيمًا وتكلفة مبالغ فيها لا تبرر المنافع المرجوّ تحصيلها. وأما آخر الأسباب، فهو أنه لو قُيِّض لي جمع كل حوادث إتلاف الكتب والمكتبات لتضخم الكتاب وانتفخ بشدة؛ الأمر الذي سينفّر القارئ منه ويصرفه عن قراءته.

سنتناول في هذا الكتاب حكايات عدة لكتب أتلفها أصحابها بأيديهم لأسباب، أبرزها شعورهم بالإحباط من مجتمعاتهم التي تجاهلتهم وربما حاربتهم ولم تمنحهم ما يستحقونه من التقدير المعنوي والمادي. وهناك كتب يتعذر حصرها قامت السلطة السياسية أو الدينية، وفي أغلب الأحيان كلاهما معًا، بملاحقتها وإتلافها أينما وجدت، لما فيها من أفكار تناهض الحاكم وتؤلب العامة عليه، أو أفكار تخالف السائد من المعتقدات الدينية بين الناس. وبالمثل، سنتناول بعض ما لحق بالمكتبات من مصائب ونوائب، مثل ما حصل لمكتبة آشور بانيبال، ومكتبة القسطنطينية، ومكتبة الإسكندرية، ودار العلم، وبيت الحكمة، ومكتبة الموصل، وغيرها كثير. ولعلك ستلاحظ حينما نمرّ بتلك المكتبات المنكوبة أن الجاني عادة ما يكون غازيًا أتى من وراء الحدود لكي يحتل أرض خصمه. وبما أن المكتبات تشكل ذاكرة لأهالي تلك البلاد المغلوبة فلا عجب بعد هذا لو قام الغازي المحتل بإضرام النار فيها حتى يحرق ذاكرة عدوه ويذيب هويته.

الكتاب عامةً ينقسم إلى بابين، وكل باب ينقسم بدوره إلى فصلين.

يتناول الفصل الأول من الباب الأول صورًا من كتب جرى حرقها في بلاد الإسلام؛ بعضها على أيدي أصحابها وأغلبها على أيدي الخصوم من أهل السياسة أو أهل الدين. وأما الفصل الثاني فيتجول بك بين مكتبات الإسلام والتي اندرست واحترقت على مر أكثر من ألف عام. وينثر الفصل الأول من الباب الثاني بعض الضوء على حوادث إحراق الكتب عند غير المسلمين، بدءًا من عصور ما قبل الميلاد وانتهاءً بأيامنا هذه. وأما الفصل الثاني والأخير منه فيتنقل بين محطات الزمن ليمر بك على مشاهد احتراق المكتبات عند الأمم الأخرى في مشارق الأرض ومغاربها.



الباب الأول

الفصل الأول

حرق الكتب عند المسلمين

في هذا الفصل سوف نشرّق ونغرّب، ونسافر إلى الماضي، ونعود منه إلى الحاضر، في رحلة نطارد فيها خيوط الدخان المنبعثة من كتب حُرقت، ونغوص في مياه البحار والأنهار بحثًا عن كتب غُرقت، وننبش طبقات الرمال بحثًا فيها عن كتب دُفنت.

هناك كتب أتلفها أصحابها بأيديهم لأسباب تخصهم، ولعل أشد الأسباب مرارةً وأكثرها قسوةً أن يقدم أحدهم على فعل كهذا حزنًا على حاله ويأسًا من أهله وناسه، والأمثلة كثيرة في ماضينا وحاضرنا، ويأتي على رأس هؤلاء الفيلسوف والأديب الكبير أبو حيان التوحيدي. وهناك كتب أتلفها آخرون، وأقصد بالآخرين أهل الحكم أو أهل الدين أو حتى العوام أنفسهم، لشتى الأسباب، لعل أبرزها تخوفهم، أو ربما توهمهم، مما في بطون تلك الكتب من أفكار سياسية تحرّض على السلطان وتُألب الناس عليه، أو من أفكار دينية تفسد عقائد العباد وتبلبل أفكارهم.

وعلى خطى الأستاذ ناصر الحزيمي في كتابه القيّم (حرق الكتب في التراث العربي) سوف نستهلّ هذا الفصل بالكلام عن أسباب إتلاف الكتب النفسية والسياسية والدينية وغيرها، ثم نثني بالكلام عن وسائل إتلاف الكتب من حرق وتغريق ودفن وتمزيق. وأول الكتب التي أُحرقت في الإسلام هي المصاحف في عهد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه،

وذلك ليجمع أمة محمد على قراءةٍ واحدة خوفًا عليهم من مغبة الاختلاف والانقسام بسبب تعدد القراءات والتعصب غير المبرر لكل قراءة. ولدينا العشرات من الأدلة على قيام الصحابة والتابعين وتابعي التابعين بإتلاف أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، سواءً بالحرق أو بالغسل أو بالدفن، لأكثر من علة كالخوف مثلاً من الانشغال بالحديث عن القرآن، أو الخوف من اختلاط كلام رسول الله بكلام الله.

وإلى جانب إتلاف المصاحف والأحاديث، فإننا نجد في كتب التاريخ والتراجم، حالات كثيرة لكتب جرى إتلافها، إما بواسطة مؤلفيها وإما بواسطة آخرين لدواعٍ سنعرّج عليها لاحقًا. سنتحدث عن إتلاف الكتب في بلاد الأندلس، وعن حرق كتب أبي حامد الغزالي، وعن حرق الكتب بين أهل المذاهب. هل انطفأت محارق الكتب في عصرنا هذا؟ مع شديد الأسف، ما زالت فصول إتلاف الكتب تتواصل إلى ساعة كتابة هذه السطور. ومما يجلب الحزن للنفس أن الساحة العربية، في الآونة الأخيرة، شهدت أكثر من حادثة أُتلفت فيها الكتب، وأكثر تلك الحوادث كان على يد مؤلفيها!

بقي لي أن أنبه القارئ العزيز إلى أن ما سيجده من حكايات في هذا الفصل إنما هي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. فمما لا يخفى على أحد أن كتب التاريخ لم تحفظ لنا كل حادثة من حوادث إتلاف الكتب على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة، كما أن هناك حوادثًا جرت في الماضي والحاضر إلا أن جهدنا قصر عنها لضيق الوقت من جهة ولتبعثر المصادر من جهة أخرى.

أسباب إتلاف الكتب

حصر الأستاذ ناصر الحزيمي أسباب إتلاف الكتب في كتابه (حرق الكتب في التراث العربي) في ستة أسباب، سأنقلها إليكم بشيء من الإيجاز:

أسباب شرعية:

كثير من الكتب جرى إتلافها بالحرق وبغيره من الوسائل الأخرى لدواعٍ شرعية. وغالبًا ما كان يتصدى لإتلاف تلك الكتب التي كانت تخالف حقًا ثوابت الدين أو حقائق المذهب، أو التي كان يُدعى عليها بذلك، فقهاء الدين وحرّاس العقيدة، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى في بلاد المسلمين أو في غيرها من البلدان. وقد نجد السلطان نفسه، وربما بإيعاز من شيوخ الدين، يتولى إتلاف تلك الكتب، وربما امتد الأمر إلى إتلاف أصحابها، كما فعل الخليفة المهدي ومن بعده ولده الهادي بكتب الزندقة والزنادقة. ولعل من نافلة القول أن نميّز بين نوعين من تلك الكتب: فهناك كتب أُتلفت بسبب مخالفتها للدين وإفسادها لعقائد المسلمين، وهذا - برأيي - تعصب محمود لانتصاره للحق وقمعه للباطل، مثلما جرى على كتب الزنادقة والمبتدعة والغلاة، وثمة كتب أُتلفت بسبب مشاحنات مذهبية ومناكفات فقهية، وهذا - برأيي - تعصب مذموم جرَّ على المسلمين ما جرَّ من الفتن والتهارج، كما نجده عندما يقوم غلاة أحد المذاهب الأربعة بحرق كتب مخالفيهم.

أسباب علمية:

ربما قام أصحاب الكتب أنفسهم، أو ربما قام غيرهم، بإتلاف الكتب

بواسطة حرقها أو دفنها أو غسلها لأسباب علمية مثل: اكتشافهم وجود أخطاء فيها، أو خوفهم من الاتكال على تلك الكتب وإهمال الحفظ، أو خوفهم من صيران العلم إلى غير أهله. فهذا خالد الحذّاء يقول: "ما كتبت شيئًا قط إلا حديثًا طويلاً، فإذا حفظته محوته"، وهذا مثال على خوف بعضهم من الاتكال على الكتب وترك الحفظ. وربما أوصى أحدهم عندما يحضره الموت بإتلاف كتبه؛ خوفًا من أن تؤول كتبه إلى من ليس من أهل العلم، فلا يعرف أحكامها ويحمل جميع ما فيها على ظاهره، وربما زيد عليها أو نقص منها؛ فيكون لك منسوبًا إلى كاتبها في الأصل. ويُروى أن عبيدة بن عمرو السلماني لما أشفى على الموت دعا بكتبه فمحاها، وقال: "أخشى أن يليها أحد بعدي فيضعوها في غير مواضعها".

أسباب سياسية:

قد يضطر السلطان، أو من هو في حكمه، إلى إتلاف كتاب، أو حتى إتلاف مكتبة بالكامل، لما في الكتاب من ذم له وتحريض عليه أو مدح لخصمه وتأييد له. ففي سنة 82 هـ أمر سليمان بن عبد الملك حين قدم إلى مكة حاجًّا بتحريق أو تخريق كتاب جمعه له إبان بن عثمان بن عفان لما فيه من إطراء على أنصار المدينة. ولما عاد سليمان إلى الشام أخبر أباه عبد الملك بن مروان بما كان منه في الحجاز فصوّبَ رأيه. ولما تملّك السلطان صلاح الدين الأيوبي مصر أراد أن يمحو ما بقي فيها من آثار دولة الفواطم وعلاماتها، فعمد إلى ما في خزائنهم من كتب، وكانت كثيرة للغاية، فباع جميع ذلك، وقام البيع فيها عشر سنين كما يقال.

أسباب اجتماعية وقبلية:

من الجائز أن نرى أهل بلد، أو قبيلة، يتتبعون كتبًا تعرّض بهم وتحطّ منهم. ويمكن لنا النظر إلى ما فعله سليمان بن عبد الملك بالكتاب المذكور

أعلاه على أنه تعبير عن تنافس اجتماعي أو قبلي بين أهل مكة وأهل المدينة، فضلاً عمّا يحمله هذا التصرف من أسباب سياسية. وخير مثال على إتلاف الكتب لدواعٍ اجتماعية أو قبلية ما رواه لنا الوزير جمال الدين القفطي في كتابه (إنباهُ الرواة على أنباهِ النحاة) عن الحسن بن أحمد الهمذاني والمعروف بابن الحائك. فهذا الأخير وضع كتابًا في معارف اليمن وعجائبه وعجائب أهله، وسمّاه (الإكليل)، وهو من عشرة أجزاء. وبسبب ما حواه الكتاب من مثالب كل قبيلة من قبائل اليمن فقد امتدت له الأيادي بالتحريق والتخريق حتى ضاعت بعض أجزائه وتعذرت على المرء قراءته كاملاً.

أسباب نفسية:

قد يفضي الفقر والاحباط بأحدهم، فضلاً عن شعوره بالوحدة والإهمال، إلى أن يشعل النار في كتبه التي كرّس لها حياته وأفنى فيها عمره. ولعل قيام أبي حيان التوحيدي بحرق بعض كتبه وهو في الذبالة الأخيرة من عمره أشهر مثال على ذلك. ولا يخلو زمننا الحاضر من مؤلفين - سنأتي على ذكر بعضهم بمشيئة الله - اضطروا تحت وطأة إحباطاتهم النفسية إلى إضرام النار في كتبهم، بعد أن تكسرت أحلامهم وانطفئت آمالهم.

أسباب تعصبية:

شهد التاريخ، عند المسلمين وعند غيرهم كذلك من أهل الأديان الأخرى، وقائع جمّة أُحرقت وغُرقت فيها كتب المخالفين تعصبًا عليهم وانتصارًا لطائفة أو لمذهب ما. وكما ذكرنا آنفًا فإنه عندما تحرق طائفة من المسلمين مصنفات شُحنت بأضاليل وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، ومُلئت بسب الصحابة والتطاول عليهم، فهذا من قبيل التعصب المحمود الممدوح، أما لو قام أتباع أحد المذاهب الفقهية الأربعة بحرق كتب مخالفيهم تعصبًا على مخالفيهم وانتصارًا لشيوخهم، فهذا من قبيل التعصب المذموم

المبغوض. وسنخصص بحول الله وقوته إحدى فقرات الفصل الأول من الباب الأول لإلقاء بعض من الضوء على هذا النوع من التعصب المذهبي.

طرق إتلاف الكتب

عدّدَ الأستاذ ناصر الحزيمي في كتابه (حرق الكتب في التراث العربي)[1] أربع وسائل شاع استخدامها بين أصحاب الكتب أنفسهم أو خصومهم من أهل السياسة أو الدين لإتلاف الكتب، ولنبدأ الآن بأولها وأشهرها:

الحرق:

يعدّ إتلاف الكتب والمكتبات بواسطة النار الوسيلة الأكثر شيوعًا على مر الأيام وكرّ السنين. فالتحريق بالنار كان أكثر الأساليب المتبعة بواسطة السلاطين والفقهاء، كما نجده - مثلاً - في حرق تصانيف ابن حزم الأندلسي، أو أبي حامد الغزالي، أو كتب الزنادقة. وثمة من الكُتّاب من أحرقوا كتبهم بأيديهم لأسباب قد تكون نفسية أو علمية، كما حصل مع أبي حيان التوحيدي، أو مع أبي سليمان الداراني، وغيرهما. وفي أحيانٍ أخرى قد تتولى العامة حرق الكتب كما جرى مع أهل السنّة حين وجدوا عند الشيعة كتبًا فيها سبٌّ للشيخين أبي بكر وعمر ولبقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

الدفن:

وكما قال الأستاذ الحزيمي في كتابه المذكور، فإن هذه الطريقة لم يلجأ إليه سوى المؤلفين أنفسهم ولدواعٍ نفسية أو علمية. وسنرى في القادم من الصفحات أن جملة من العلماء والزّهاد قد قاموا بدفن كتبهم بأيديهم، كما

1) منشورات دار الجمل، ط 1، 2002، ص 17 - 25

فعل بشر بن عطاء أو سلم بن ميمون الخواص.

الغسل والتغريق:

المقصود بالغسل هو أن يأخذ أحدهم كتابًا فيغمسه في إناء مملوء بالماء حتى يذوب ويمحى ما كُتب فيه من حروف وكلمات، وأما التغريق فالمقصود به رمي الكتب في مجاري البحار أو الأنهار، وهذا الأسلوب كثيرًا ما لجأ إليه المؤلفون، وقليلاً ما استعمله الحكّام والفقهاء. فابن مسعود رضي الله عنه نظر في كتاب جِيءَ به فدعا بطست فيه ماء فماثه فيه - أي خلطه بالماء - ثم محاه. ورمى أبو الحسن بن أبي الحواري بكتبه في البحر، وقال: "نِعمَ الدليل كنت، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال". وأما أمثلة استعمال السلطة للماء عوضًا عن النار فمنها رمي كتاب (الفصوص) لصاعد البغدادي في النهر بأمر من الحاجب المنصور بن أبي عامر، أو قيام المغول برمي الكتب في نهر دجلة بعد تدميرهم لبغداد.

التمزيق والتخريق:

هذه الطريقة هي الأقل استخدامًا بين الطرق الأربعة، وغالبًا ما كان يقوم بها أهل السياسة أو أهل الدين. فهذا الخليفة العباسي المهدي حين جِيءَ إليه بكتب تحتوي على زندقة أمر من عنده بتمزيقها بالسكاكين، وهذا أحد ملوك بني سامان حين لم يعجبه كتاب صنّفه له الطبيب والفيلسوف الكبير أبو بكر الرازي أمر رجاله بأن يضربوا به رأس الرازي حتى تقطّع الكتاب.

حرق المصاحف

ورد في (تاريخ ابن خلدون) ما يلي: "وفى سنة ثلاثين هذه صرف حذيفة (يقصد الصحابي حذيفة بن اليمان) من غزو الرى إلى غزو الباب مددًا لعبد الرحمن بن ربيعة وأقام له سعيد بن العاص بأذربيجان... فأخبره بما رأى من اختلاف أهل البلدان في القرآن وأن أهل حمص يقولون قراءتنا خير من قراءة غيرنا وأخذناها عن المقداد، وأهل دمشق يقولون كذلك وأهل البصرة عن أبى موسى وأهل الكوفة عن ابن مسعود، وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختلاف في القرآن ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين، وأنكر عليه أصحاب ابن مسعود فأغلظ عليهم وخطأهم فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وافترق المجلس.

وسار حذيفة إلى عثمان فأخبره وقال: أنا النذير العريان فأدرك الأمة. فجمع عثمان الصحابة فرأوا ما رآه حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة أن ابعثي إلينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف هي التي كتبت أيام أبى بكر، فإن القتل لما استحر في القرّاء يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: أرى أن تأمر بجمع القرآن لئلا يذهب الكثير منه لفناء القرّاء، فأبى وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعله. ثم استبصر ورجع إلى رأى عمر وأمر زيد بن ثابت بجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال، وكتب في الصحف فكانت عند أبى بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة. وأرسل عثمان فأخذها وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن

الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ففعلوا. ونسخوا المصاحف فبعث إلى كل أفق بمصحف يعتمد عليه، وحرق ما سوى ذلك فقبل ذلك الصحابة في سائر الأمصار، ونكره عبد الله بن مسعود في الكوفة حتى نهاهم عن ذلك وحملهم عليه"[1].

وأما اليعقوبي فقد قال في تاريخه: "وجمع عثمان القرآن وألّفه، وصيّر الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحارّ والخلّ؛ وقيل أحرقها، فلم يبقَ مصحف إلا فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود. وكان ابن مسعود بالكوفة، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، وكتب إليه عثمان: أن أشخِصْه، إنه لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمة فسادًا. فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابّة سوء، فكلمه ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان، فجُرّ برجله حتى كسر له ضلعان، فتكلمت عائشة، وقالت قولاً كثيرًا، وبعث بها (أي المصاحف) إلى الأمصار، وبعث بمصحف إلى الكوفة، ومصحف إلى البصرة، ومصحف إلى المدينة، ومصحف إلى مكة، ومصحف إلى مصر، ومصحف إلى الشام، ومصحف إلى البحرين، ومصحف إلى اليمن، ومصحف إلى الجزيرة، وأمر الناس أن يقرأوا على نسخة واحدة. وكان سبب ذلك أنه بلغه أن الناس يقولون قرآن آل فلان، فأراد أن يكون نسخة واحدة، وقيل: إن ابن مسعود كان كتب بذلك إليه، فلما بلغه أنه يحرق المصاحف قال: لم أرد هذا"[2].

ولم ينتقد أحد من المسلمين عثمان على جمعه المسلمين على قراءةٍ واحدةٍ؛ لأن اختلاف القراءة يؤدي إلى اختلاف لا تحمد عقباه بين المسلمين، وإلى

---

1) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ج 2، ص 583

2) ط 1، بيروت، الأعلمي للمطبوعات، 2010، ج 2، ص 66

تمزيق صفوفهم وتفريق وحدتهم وتكفير بعضهم البعض. وغاية ما قيل فيه هو إحراقه بقية المصاحف حتى سمّوه: حرّاق المصاحف، حيث أصرَّ البعض على عدم تسليم مصاحفهم كابن مسعود. ونُقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا"؛ قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا. قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يُجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت!". وروي عن علي كذلك أنه قال: "لو وليّت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان".

وأما ما يختص بطعن الشيعة على عثمان وأنه أحرق المصاحف فقد وصفه بدر الدين الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) بأنه: "جهل منهم وعمى؛ فإن هذا من فضائله وعلمه؛ فإنه أصلح ولمّ الشعث، وكان ذلك واجبًا عليه، ولو تركه لعصى؛ لما فيه من التضييع، وحاشاه من ذلك. وقولهم: إنه سبق إلى ذلك، ممنوع؛ لما بيناه أنه كُتب في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الرقاع والأكتاف، وأنه في زمن الصديق جمعه في حرف واحد"، وأضاف الزركشي: "وأما قولهم - أي الشيعة -: إنه أحرق المصاحف، فإنه غير ثابت، ولو ثبت لوجب حمله على أنه أحرق مصاحف قد أودعت ما لا يحل قراءته"[1].

1) دار التراث، ج 1، ص 240

لا لكتابة الأحاديث

كثيرة هي الآثار والأخبار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضوان الله عليهم، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، في كراهية كتابة الأحاديث النبوية. ونظرًا لوفرة تلك الآثار والأخبار، فحسبنا أن ننتخب بعضًا منها، ومن أراد منكم الاستزادة فليرجع إلى كتاب (تقييد العلم) للإمام أبي بكر الخطيب البغدادي (ت 463هـ) ففيه ما يغني ويفي بالغرض.[1]

نهي الرسول عن الكتابة:

- ورد في صحيح مسلم أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تكتبوا عني شيئًا، فمن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده في النار"[2].

- وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: كتاب غير كتاب الله، أتدرون ما ضلّ الأمم قبلكم؟ ألا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى، قلنا: أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: حدّثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار[3]، قلنا: فنتحدث عن بني إسرائيل؟ قال: حدثوا ولا حرج، فإنكم لم

---

1) ط 1، القاهرة، دار الاستقامة، 2008

2) المصدر نفسه، ص 17.

3) المصدر نفسه، ص 23

تحدثوا عنهم بشيء إلا وقد كان فيهم أعجب منه"، قال أبو هريرة: فجمعناها في صعيد واحد فألقيناها في النار".

نهي الصحابة عن الكتابة:

- عن مسروق أنه قال: "حدّثَ ابن مسعود بحديث، فقال ابنه: ليس كما حدثت، قال: ما علمُكَ؟ قال: كتبتُه، قال: فهلُمَّ الصحيفة، فجاء بها فمحاها".[1]

- وعن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن، فاستشار أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: "إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم، كتبوا كتبًا، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا".

- وعن طاووس بن كيسان قال: إن كان الرجل يكتب إلى ابن عباس يسأله عن الأمر، فيقول للرجل الذي جاء: "أخبر صاحبك أن الأمر كذا وكذا فإنا لا نكتب في الصحف إلا الرسائل والقرآن".

نهي التابعين عن الكتابة:

- أخبرنا عبد الملك بن محمد أخبرنا عمر بن محمد الجمحي حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا خلف بن هشام حدثنا أبو عوانة عن سليمان بن أبي العتيك عن أبي معشر عن إبراهيم أنه كره أن تكتب الأحاديث في الكراريس.

- كتب إلي عبد الرحمن بن عثمان الدمشقي، وحدثنا عبد العزيز بن

---

1) المصدر نفسه، ص 31

أبي طاهر عنه: أخبرنا أبو الميمون البجلي: حدثنا أبو زرعه: حدثنا سعيد بن منصور: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه، قال حضرت عبيد الله بن عبد الله دخل على عمر بن عبد العزيز فأجلس قومًا يكتبون ما يقول، فلما أراد أن يقوم، قال له عمر: صنعنا شيئًا، قال: وما هو يا ابن عبد العزيز؟ قال: كتبنا ما قلت، قال: وأين هو؟ قال: فجيء به فخرق.

- أخبرنا ابن رزقويه: أخبرنا إسماعيل بن علي الخطبي، وأبو علي بن الصواف، وأحمد بن جعفر بن حمدان قالوا: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي: حدثنا سفيان قال: قيل لعمرو: إن سفيان يكتب، فاضطجع وبكى، وقال: "أُحَرِّجُ على من يكتبُ عني"، قال سفيان: وما كتبتُ عنه شيئًا؛ كنا نحفظ.

وإحقاقاً للحق وإتماماً للفائدة، فهناك في المقابل شواهد كثيرة للغاية لا ترى في كتابة الأحاديث من بأس. وعلى أي حال، فأنا لست بوارد ترجيح رأي على آخر، فهذا أمر يفوق درجة احتمالنا ويخرج عن مدار اهتمامنا، ولكني اضطررت إلى التعريج على مسألة الأحاديث النبوية لصلتها بموضوع كتابنا؛ وهو إتلاف الكتب.

أوراق في مهب الرياح

سنخصص هذا الجزء من الكتاب للكلام عن بعض أهل العلم والزهد والعبادة، أولئك الذين قاموا بإتلاف كتبهم بأنفسهم، أو أوصوا غيرهم بإتلافها: إما بحرقها، أو بدفنها، أو بغسلها، أو بتغريقها. وبسبب ما نجده بينهم من تشابه في الظروف والأسباب، فسوف نجمعهم في مكان واحد من الكتاب، ولنذكرهم الواحد تلو الآخر، بحسب تسلسل تواريخ وفاتهم:

أبو عمرو عبيدة بن عمرو السلماني

الفقيه المرادي، القاضي، الكوفي، أحد الأعلام. أسلم عبيدة عام فتح مكة بأرض اليمن، ولا صحبة له، وأخذ عن علي، وابن مسعود، وابن الزبير، وغيرهم، وبرع في الفقه، وكان ثبتًا في الحديث. روى عنه إبراهيم النخعي، والشعبي، ومحمد بن سيرين، وعبد الله بن سلمة المرادي، وآخرون. قال الشعبي: "كان عبيدة يوازي شريحًا في القضاء". وقال ابن سيرين: "ما رأيت رجلاً كان أشد توقّيًا من عبيدة". وقال ابن نمير: "كان شريح إذا أشكل عليه أمر كتب إلى عبيدة فيه، وانتهى إلى قوله". وقال سفيان الثوري عن النعمان بن قيس: "دعا عبيدة بكتبه عند موته فمحاها، وقال: أخشى أن تضعوها على غير موضعها". وقال أبو حصين: "أوصى عبيدة أن يصلي عليه الأسود بن يزيد، فقال الأسود: عجلوا به قبل أن يجيء الكذاب - يعني المختار الثقفي -". واختلفوا في السنة التي توفي فيها عبيدة، والأرجح أنها سنة 72 هـ.

أبو عمرو بن العلاء ابن عمار بن العريان التميمي

المازني البصري شيخ القراء والعربية وأمه من بني حنيفة. اختلف في اسمه على أقوال: أشهرها زبان، وقيل العريان. حدّثَ باليسير عن أنس بن مالك، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وأبي صالح السمان، وأبي رجاء العطاردي، ونافع العمري، وعطاء بن أبي رباح. وقرأ القرآن على سعيد بن جبير، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، وعكرمة، وابن كثير، وطائفة. واشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم. حدّثَ عنه: شعبة، وحماد بن زيد، وأبو أسامة، والأصمعي، وشبابة بن سوار، ويعلى بن عبيد، وأبو عبيدة اللغوي، وآخرون. قال أبو عبيدة: "كان أعلم الناس بالقراءات والعربية، والشعر وأيام العرب. وكانت دفاتره ملء بيت إلى السقف، ثم تنسّك فأحرقها". وكان من أشراف العرب، مدحه الفرزدق وغيره. وقال أبو عمرو الشيباني: "ما رأيت مثل أبي عمرو". قال نصر بن علي الجهضمي، عن أبيه، عن شعبة قال: "انظر ما يقرأ به أبو عمرو مما يختاره فاكتبه، فإنه سيصير للناس أستاذًا". قال إبراهيم الحربي وغيره: "كان أبو عمرو من أهل السنة". قال الأصمعي: "قال لي أبو عمرو: كن على حذر من الكريم إذا أهنته، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن العاقل إذا أحرجته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الفاجر إذا عاشرته. وليس من الأدب أن تجيب من لا يسألك، أو تسأل من لا يجيبك، أو تحدث من لا ينصت لك". قال أبو عبيد: "حدثني عدة أن أبا عمرو قرأ على مجاهد". وزاد بعضهم: وعلى سعيد بن جبير. وروي أن أبا عمرو وأباه هربا من الحجاج ومن عسفه. وذكر غير واحد أن وفاته كانت في سنة 154 هـ. قال الأصمعي: "عاش أبو عمرو ستًّا وثمانين سنة". وقال خليفة بن خياط وحده: مات أبو عمرو وأبو سفيان ابنا العلاء سنة 157 هـ.

أبو سليمان داود بن نصير الطائي

الكوفي، الفقيه الزاهد، أحد الأولياء. برع في العلم بأبي حنيفة، ثم

أقبل على شأنه، ولزم الصمت، وآثر الخمول، وفر بدينه. روى عن: عبد الملك بن عمير، وإسماعيل بن أبي خالد، وحميد الطويل، وسعد بن سعيد الأنصاري، وابن أبي ليلى، والأعمش، وغيرهم. وروى عنه: عبد الله بن إدريس، وابن عيينة، وابن علية، ومصعب بن المقدام، وإسحاق بن منصور السلولي، ووكيع، وأبو نعيم، وغيرهم. قال ابن المديني عن بن عيينة: "كان داود ممن علم وفقه، ثم أقبل على العبادة". قال عطاء بن مسلم: "عاش داود عشرين سنة بثلاث مائة درهم". وكان الثوري يعظمه وإذا ذكره قال: "أبصر الطائي أمره". وقال عطاء بن مسلم: "كنا ندخل على داود الطائي فلم يكن في بيته الا بارية وابنه يضع رأسه عليها، وإجانة فيها خبز، ومطهرة يتوضأ منها ومنها يشرب". وقال الآجري عن أبي داود: "دفن داود الطائي كتبه". وقيل: غرّق كتبه. وقال بن معين: "ثقة". وقال البخاري: "مات بعد الثوري، قاله لي علي". وقال أبو نعيم: "مات سنة 160 هـ"، وقال بن نمير: "مات سنة 165 هـ".

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري

شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد زمانه في علوم الدين والتقوى، وأمير المؤمنين في الحديث. ولد سفيان سنة 97 هـ بالكوفة ونشأ فيها، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده المحدث الصادق: سعيد بن مسروق الثوري (ت 126 هـ). وتلقى أبو عبد الله العلم من جمهور غفير من العلماء ربما وصل إلى ستمائة شيخ. وأما الرواة الذين سمعوا منه، فقد أوصلهم ابن الجوزي إلى أكثر من عشرين ألف، وهو ما اعتبره الإمام الذهبي مبالغة شديدة. قال الخريبي: "ما رأيت محدثًا أفضل من الثوري". وقال أبو أسامة: "من حدثك أنه رأى بعينه مثل سفيان، فلا تصدقه". وقال قتيبة: "لولا سفيان، لمات الورع". ولابن الجوزي كتاب في مناقب الثوري. ولأبي عبد الله سفيان

أقوال خالدة منها: "الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وأول ذلك زهدك في نفسك"، و"من سرّ بالدنيا، نزع خوف الآخرة من قلبه"، و"أقل من معرفة الناس، تقل غيبتك". راوده الخليفة أبو جعفر المنصور على أن يلي القضاء، فأبى، وخرج من الكوفة سنة 144 هـ فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه الخليفة المهدي، فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيًا. له من الكتب (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) كلاهما في الحديث. وله كتاب (الفرائض). وعن الأصمعي: "أن الثوري أوصى أن تدفن كتبه، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم". وعن أبي سعيد الأشج قال: "سمعت أبا عبد الرحمن الحارثي يقول: دفن سفيان كتبه فكنت أعينه عليها فدفن منها كذا وكذا قمطرة إلى صدري، فقلت: يا أبا عبد الله وفي الركاز الخمس، فقال: خذ ما شئت. فعزلت منها شيئًا، كان يحدثني منه". وجاء في رسالة أبي حيان إلى القاضي أبي سهيل علي بن محمد ما يفيد بأن سفيان الثوري قد مزّق كتبه ولم يدفنها بنفسه، أو يوصي بدفنها بعد موته: "وهذا سفيان الثوري: مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من ها هنا ولم أكتب حرفًا". توفي سفيان في الاختفاء سنة 161 هـ على الأرجح.

أبو الحسن علي بن مسهر

القرشي الكوفي الحافظ، قاضي الموصل. وهو أخو القاضي المغفل عبد الرحمن بن مسهر قاضي جبل، وله حكاية طريفة مع هارون الرشيد، وقيل ولده المأمون. روى علي بن مسهر عن: إسماعيل بن أبي خالد، وداوود بن أبي هند، وعاصم الأحول، وزكريا بن أبي زائدة، وأبي مالك الأشجعي، وخلق من هذه الطبقة. وروى عنه: بشر بن آدم، وسويد بن سعيد، وابنا أبي شيبة، وعلي بن حجر، وهناد بن السري، وآخرون. قال أحمد بن عبد الله العجلي: "كان ممن جمع الفقه، والحديث، ثقة". وذكره ابن حبان في كتابه (الثقات).

وقال أحمد بن حنبل: "هو أثبت من أبي معاوية في الحديث". وُلي أبو الحسن علي بن مسهر قضاء أرمينية، فلما قدمها اشتكى عينه، فجعل يختلف إليه متطبب، فقال قاضي كان بأرمينية للكحال: "أكحله بها يذهب عينه حتى أعطيك كذا وكذا"، ففعل، فذهبت عينه، فرجع علي بن مسهر إلى الكوفة أعمى. وقال ابن نمير: "دفن علي بن مسهر كتبه". توفي سنة 189 هـ.

أبو مخلد عطاء بن مسلم الخفاف

الكوفي، نزيل حلب. روى عن: الأعمش، وجعفر بن برقان، ومحمد بن سوقة، ومحمد بن عمرو بن علقمة، والثوري، وعبد الله بن شوذب، وواصل الأحدب، وغيرهم. وروى عنه: محمد بن المبارك الصوري، وابن المبارك، وموسى بن أيوب النصيبي، وعمرو بن أبي سلمة التنيسي، وأبو توبة، وهشام بن عمار، وأبو نعيم الحلبي، وغيرهم. قال معاوية بن صالح عن يحيى بن معين: "ليس به بأس وأحاديثه منكرات". وقال عثمان الدارمي عن بن معين: "ثقة". وقال أبو زرعة: "كان من أهل الكوفة، دفن كتبه، ثم روى من حفظه فوهم، وكان رجلاً صالحًا". وقال أبو حاتم: "كان شيخًا صالحًا، وكان دفن كتبه فلا يثبت حديثه، وليس بقوي". ذكره بن حبان في (الثقات) فقال: "مات في رمضان سنة 190 هـ".

أبو محمد يوسف بن أسباط بن واصل

الشيباني الكوفي. الزاهد من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم. نزل الثغور مرابطًا. حدّث عن: عامر بن شريح، وسفيان الثوري، وياسين الزيات. وروى عنه: أبو الأحوص، ومحمود بن موسى، والمسيب بن واضح، وعبد الله بن حبيب الأنطاكي. سئل يوسف: "ما غاية التواضع؟ قال: ألا تلقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك". وعنه: "خُلقت القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات، لا يمحو الشهوات إلا خوف مزعج، أو

شوق مقلق". قال عنه يحيى بن معين: "ثقة"، وقال العجلي: "صاحب سنة وخير دفن كتبه، وقال: لا يصلح فكبر عليها". ذكره الخطيب في المتفق وقال: "كان صالحًا عابدًا إلا أنه يغلط في الحديث كثيرًا". وقال البخاري: "كان قد دفن كتبه فصار لا يجيء بحديثه كما ينبغي". وذكره بن عدي في الكامل فقال: "يكنى أبا محمد وقال إنه من أهل الصدق إلا أنه لما عدم كتبه صار يحمل على حفظه فيغلط ويشتبه عليه ولا يتعمد الكذب". وقال بن حبان في (الثقات): "كان من عبّاد أهل الشام وقرائهم، سكن أنطاكية، وكان لا يأكل إلا الحلال فإن لم يجده استف التراب، وكان من خيار أهل زمانه، مستقيم الحديث، ربما أخطأ". مات سنة 195 هـ.

أبو أسامة حماد بن أسامة بن زيد القرشي

الكوفي الحافظ مولى بني هاشم. روى عن: هشام بن عروة، وبريد بن عبد الله بن أبي بردة، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن جريج، وسعد بن سعيد الأنصاري، وعمر ومحمد بن عمرو بن علقمة، وهشام بن حسان، والثوري، وشعبة، وخلق كثير. وعنه: الشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وإبراهيم الجوهري، والحسن بن علي الحلواني، وأبو خيثمة، وقتيبة، وغيرهم كثير. قال حنبل بن إسحاق عن أحمد: "أبو أسامة ثقة، كان أعلم الناس بأمور الناس، وأخبار أهل الكوفة". وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: "أبو أسامة أثبت من مائة مثل أبي عاصم، كان صحيح الكتاب، ضابطًا للحديث، كيسًا صدوقًا... وقال أيضًا عن أبيه: كان ثبتًا ما كان أثبته لا يكاد يخطئ". وقال عثمان الدارمي قلت لابن معين: "أبو أسامة أحب إليك أو عبدة؟ قال: ما منهما إلا ثقة". وقال عبد الله بن عمر بن أبان: "سمعت أبا أسامة يقول كتبت بإصبعي هاتين مائة ألف حديث". وقال بن عمار: "كان أبو أسامة في زمن الثوري يعد من النساك". وقال العجلي بسنده عن سفيان:

"ما بالكوفة شاب أعقل من أبي أسامة". قال العجلي: "مات في شوال سنة 201 هـ". وكذا قال البخاري، وزاد وهو بن ثمانين سنة فيما قيل. ذكره بن حبان في (الثقات). وقال الآجري عن أبي داود قال وكيع: "نهيت أبا أسامة أن يستعير الكتب، وكان دفن كتبه". وحكى الأزدي في الضعفاء عن سفيان بن وكيع قال: "كان أبو أسامة يتتبع كتب الرواة فيأخذها وينسخها".

أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الداراني

العنسي، الإمام الكبير، وزاهد عصره، ومضرب المثل في العبادة في بلاد الشام. أصله من واسط بالعراق، وقدم دمشق، واتخذ من قرية غرب دمشق يقال لها داريا منزلاً له، وإليها صار يُنسب. روى عن: سفيان الثوري، وأبي الأشهب العطاردي، وعبد الواحد بن زيد البصري، وعلقمة بن سويد، وغيرهم. وروى عنه: أحمد بن أبي الحواري، وهاشم بن خالد، وحميد بن هشام العنسي، وعبد العزيز بن عمير، وآخرون. وله أقوال وحكم بليغة وكثيرة، نذكر منها: "أفضل الأعمال خلاف هوى النفس"، و"أصل كل خير الخوف من الدنيا، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع"، و"من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة". وتقدم معنا أن أبا حيان التوحيدي في رسالته المذكور قد قال: "وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك". توفي أبو سليمان الداراني سنة 205 هـ.

سلم بن ميمون الخواص

الرازي، من كبار عبّاد أهل الشام، من أهل طبرية، وبها مات. حدّث عن: مالك، والقاسم بن معن، وسفيان بن عيينة. وروى عنه: أحمد بن ثعلبة، وعمرو بن أسلم الطرسوسي، وغيرهما. قال إسماعيل بن مسلمة القعنبي: "رأيت كأن القيامة قد قامت، وكأن مناديًا ينادي: ألا ليقم السابقون. فقام

سفيان الثوري، ثم نادى: ألا ليقم السابقون. فقام سلم الخواص، ثم قام إبراهيم بن أدهم". وقال أحمد بن ثعلبة: "سمعت سلم الخواص قال: قلت لنفسي: يا نفس، اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة". قال ابن عدي: "ينفرد بمتون بأسانيد مقلوبة وهو من كبار الصوفية". وقال ابن حبان: "كان من كبار عباد أهل الشام غلب عليه الصلاح حتى غفل عن حفظ الحديث وإتقانه فلا يحتج به". بقي سلم إلى ما بعد سنة 213 هـ. وقد قال أبو حاتم: " أدركته، وكان مرجئًا لا يكتب حديثه". وحدّثَ عبد الرحمن بن محمد بن عوف الحمصي قال: "كان سلم بن ميمون الخواص دفن كتبه وكان يحدث من حفظه فيغلط".

أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء

المروزي، ثم البغدادي، الزاهد الكبير، المعروف ببشر الحافي. وهو ابن عم علي بن خشرم المحدّث. سمع من: إبراهيم بن سعد، وحماد بن زيد، وأبا الأحوص، وشريكًا، ومالكًا، والفضيل بن عياض، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وخالد بن عبد الله الطحان، والمعافي بن عمران، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم. وعنه: أحمد الدورقي، ومحمد بن يوسف الجوهري، ومحمد بن المثنى السمسار، وسري السقطي، وخلق غيرهم. وكان عديم النظير زهدًا وورعًا وصلاحًا، كثير الحديث إلا أنه كان يكره الرواية، ويخاف من شهوة النفس في ذلك، حتى أنه دفن كتبه. قيل لبشر: "ألا تحدث؟ قال: أنا أشتهي أن أحدث، وإذا اشتهيت شيئًا تركته". وقال أبو بكر المروزي: "سمعت بشرًا يقول: الجوع يصفي الفؤاد، ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق". وقال أبو بكر بن عثمان: "سمعت بشر بن الحارث يقول: إني لأشتهي شواءً منذ أربعين سنة، ما صفى لي درهمه". وقيل: كان بشر يلحن، ولا يعرف العربية. وعن المأمون قال: "لم يبق أحدًا نستحي منه غير بشر بن الحارث".

وقال أحمد بن حنبل: "لو كان بشر تزوج لتم أمره". وقال إبراهيم الحربي: "ما أخرجت بغداد أتم عقلاً من بشر، ولا أحفظ للسانه. كان في كل شعرة منه عقل، وطيء الناس عنقه خمسين سنة ما عرف له غيبة لمسلم، وما رأيت بعيني أفضل من بشر". توفي بشر سنة 227 هـ قبل وفاة الخليفة المعتصم بستة أيام.

أبو كريب محمد بن العلاء بن كريب الهمداني

الإمام الحافظ أبو كريب، شيخ المحدثين، أصله من الكوفة، وُلد سنة 161 هـ. حدث عن : أبي بكر بن عياش، وهشيم بن بشير، ويحيى بن أبي زائدة، وابن المبارك، وعبد الرحيم بن سليمان، وعمر بن عبيد، وأبى خالد الأحمر، وأبي معاوية، وابن علية، وسفيان بن عيينة، وغيرهم. وعنه: أبو زرعة، وأبو حاتم، وابن أبي الدنيا، وعثمان بن خرزاذ، وموسى بن إسحاق، وعبد الله بن أحمد، وعبد الرحمن بن خراش، وغيرهم كثير. قال الحسن بن سفيان: قال محمد بن عبد الله بن نمير:" ما بالعراق أكثر حديثًا من أبي كريب، ولا أعرف بحديث بلدنا منه". وثّقه النسائي وغيره. وقال أبو حاتم: "صدوق". وقال أبو عمرو أحمد بن نصر الخفاف: "ما رأيت من المشايخ بعد إسحاق أحفظ من أبي كريب". قال مطين: "أوصى أبو كريب بكتبه أن تدفن فدفنت". توفي أبو كريب سنة 248 هـ.

أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن أبي الحواري

الإمام الحافظ القدوة وشيخ أهل الشام. أصله من الكوفة، ودخل الشام فصحب الشيخ أبا سليمان الداراني مدة، وأخذ عن مروان بن محمد وأبي مسهر وطائفة، ثم أقبل على العبادة والتأله. سمع من: سفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن إدريس، والوليد بن مسلم، وآخرين. وحدّثَ عنه: سلمة بن شبيب، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو داود، وابن ماجه،

وسعيد بن عبد العزيز الحلبي، وخلق كثير. قال عنه ابن أبي حاتم: "سمعت أبي يحسن الثناء عليه، ويطنب فيه". قال محمود بن خالد: "ما أظن بقي على وجه الأرض مثله". ونقل عن أبي الحسن قوله: "من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحب لها، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه". قال أبو عبد الرحمن السلمي في (تاريخ الصوفية): "سمعت محمد بن جعفر بن مطر، سمعت إبراهيم بن يوسف الهسنجاني يقول: رمى أحمد بن أبي الحواري بكتبه في البحر، وقال: نعم الدليل كنت والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال". وقال السلمي: "سمعت محمد بن عبد الله الطبري يقول: سمعت يوسف بن الحسين يقول: طلب أحمد بن أبي الحواري العلم ثلاثين سنة، ثم حمل كتبه كلها إلى البحر، فغرَّقها، وقال: يا علم، لم أفعل بك هذا استخفافًا، ولكن لما اهتديت بك استغنيت عنك". وتوفي ابن أبي الحواري سنة 246 هـ.

وأرى أن أقف عند هذا الحد من ذكر الأسماء، خشية أن يصيب القارئ الكريم شيء من الملل من كثرة الرجال وتشابه الأحوال، وإلا ففي المقدور أن نأتي بمثلهم. علّقَ الإمام الذهبي على أفعال هؤلاء القوم فقال: "فعل هذا بكتبه من الدفن والغسل والإحراق عدة من الحفّاظ خوفًا من أن يظفر بها محدث قليل الدين، فيغير فيها، ويزيد عليها، فينسب ذلك إلى الحافظ، أو أن أصوله كان فيها مقاطيع وواهيات ما حدث بها قط، وإنما انتخب من أصوله ما رواه، وما بقي، فرغب عنه، وما وجدوا لذلك سوى الإعدام...". مهما كان الأمر، وبغض الطرف عن دواعي أولئك الزّهاد الكبار والأعلام العظام ونبل مقاصدهم، فإني لا أخفي شعوري بالحسرة على ما فرطوا به من كنوز ضاعت ما بين نار وماء وتراب!

مذاهب ومحارق

ابتلي المسلمون منذ البواكير الأولى للإسلام بصور شتى من التعصبات الكثيرة، منها: التعصب الأسري، والتعصب القبلي، والتعصب العرقي، والتعصب الجهوي، والتعصب الحزبي، والتعصب الديني بين أبناء الأديان المختلفة، والتعصب المذهبي بين أهل الدين الواحد. وهذا النوع الأخير هو موضع عنايتنا ومحط اهتمامنا في هذا الجزء.

يعيد الدكتور خالد علال نشأة التعصب في كتابه النفيس (التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي) إلى احتدام الخلافات السياسية والفكرية التي نشبت بين المسلمين خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، مما أدى إلى ظهور فرق وطوائف وجماعات تمذهبت بأفكار وأصول كانت تحملها، ثم تعصبت لها وسعت جاهدة إلى نشرها والانتصار لها على أرض الواقع، فدخلت في نزاع مذهبي شديد فيما بينها، على مستوى المشاعر والأفكار، والأقوال والأفعال.

فعلى مستوى الفرق، فإنه لمّا انقسمت الأمة على نفسها بسبب الفتنة الكبرى ظهرت الفرق السياسية المتمثلة في السنّة، والشيعة، والخوارج، ثم تنظمت وتسّيست وتمذهبت، وتعصبت لأفكارها، وخاضت من أجلها الصعاب والشدائد والحروب. وأما على مستوى العقائد، فقد حدثت خلافات كثيرة منذ نهاية القرن الأول الهجري وما بعده، فظهرت المعتزلة، وقبلها الجهمية، وخالفتهما جماعة أهل السنة والجماعة، وكلها تميزت بأفكار تمذهبت بها وتعصّبت لها، وخاضت من أجلها المناظرات والمصادمات،

وصنفت كل طائفة كتبًا انتصارًا لمذهبها، فكان ذلك سببًا في ظهور التعصب المذهبي فيما بينها، وانتشاره بين أتباعها. وأما على مستوى الفروع – أي الفقه – فقد انتشر التمذهب الفقهي بين الناس في القرن الرابع الهجري وما بعده، وقد صاحب هذا التشرذم المذهبي تعصب مقيت تسبب في وقوع خلافات شديدة سالت على جوانبها دماء غزيرة.

ولقد أفضى التعصب بين أتباع الفرق الدينية والمذاهب الفقهية إلى نتائج وخيمة ومصائب عظيمة، منها: الغلو في العقائد والمذاهب، والتكفير المتبادل، واللعن والطعن، والضرب والقتل، ولعل أمرّها وأفظعها حدوث الفتن فيما بينهم، وما كان أكثرها! ومن نتائج التعصب وتمظهراته أن يقوم بعض المسلمين بحرق كتب خصومهم تعصبًا عليهم وانتصارًا لمذهبهم. وجزى الله الدكتور خالد علال خير الجزاء على جمعه لنا في كتابه المذكور قدرًا عظيمًا من حوادث حرق الكتب خلال التاريخ الإسلامي، سأسوقها لكم هنا بشيء من الاختصار، إلى جانب حوادث أخرى لم ترد في الكتاب المذكور سأنقلها لكم بمشيئة الله.

حرق الكتب بين السنّة والشيعة

- في سنة 420 هـ أظهر شيعة مدينة الري الكفر البواح، فكثر تطاولهم على المقدسات، وسّبوا الصحابة، واستحلوا المحرمات، فانبرى لهم والي خراسان الأمير أمين الملة أبو القاسم محمود، فشرّدهم وقتلهم، وأحرق كتبهم أمام الناس، من بينها كتب زعيم هؤلاء: رستم بن علي الدليمي، التي قُدّرت بخمسين حملاً من الكتب. وكما عقّبَ علال، فإن ما فعله هذا الأمير هو تعصب للحق وليس للباطل، لأن ما أظهره هؤلاء الضالون هو خطر على دين الإسلام وأمته، فوجب على المسلمين التصدي لهم وقطع شأفتهم.

- وفي سنة 449 هـ كُبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة،

وأُحرقت كتبه ومآثره ودفاتره التي كان يستعملها في ضلالته وبدعته، ويدعو إليها أهل ملته ونحلته، ولله الحمد.

• وأحرق أهل السّنة كتب فقيه الشيعة أبي جعفر محمد الطوسي (ت 460 هـ) في رحاب جامع القصر ببغداد وبحضور جمع من الناس، وذلك أنه كان غاليًا في تشيعه، ولا يكلّ ولا يملّ من الطعن في السلف، فاضطره ذلك إلى الاختفاء خوفًا على نفسه، ثم ترك بغداد والتحق بالكوفة موطن الشيعة. وقد كان تعصبهم عليه انتصارًا للحق وردًّا للباطل، بسبب غلوه وانحرافه.

• وفيها (أي سنة 574 هـ) أُخذ ابن قرايا الشيعي، ووجد في بيته سب الصحابة، فقطعت يده ولسانه ورجمته العامة، فهرب وسبح في الماء، فرموه بالآجر فغرق، فأخرجوه وأحرقوه. ثم ألحق ذلك بالتتبع على الشيعة، وأحرقت كتبهم، وانقمعوا حتى صاروا إلى ذلة اليهود، وتهيأ عليهم من ذلك ما لم يتهيأ ببغداد نحو مائتين وخمسين سنة.

• وفي سنة 902 هـ أمر السلطان عامر بن عبد الوهاب بتقييد رئيس الإسماعيلية سليمان بن حسن بمدينة تعز، وأودعه دار الأدب، وكان يتحدث بما لا يعنيه من المغيبات المستقبلات، وكان عالم الإسماعيلية، وأمر بإحضار كتبه وإتلافها، فأتلفت، والحمد لله.

حرق الكتب بين أهل السّنة

• كان بين أبي محمد بن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) وبين فقهاء المالكية بالأندلس خصومة شديدة، ولقد جعلتهم تلك الخصومة يمقتونه ويحرقون كتبه علانية، حتى قال ابن حزم في ذلك: "فإن يحرقوا القرطاس،

لا يحرقوا الذي تضّمنه القرطاس، بل هو في صدري...".

- وأمر ثاني سلاطين المرابطين في بلاد الأندلس والمغرب علي بن يوسف بن تاشفين بحرق كتب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ)، وهدد بقتل ومصادرة أموال كل من وُجدت عنده مصنفات الغزالي أو بعض منها. وكان القاضي عياض (544هـ)، والقاضي ابن حمدين (ت 546 هـ) من الذين طالبوا بحرق كتب الغزالي، ويبدو أنهم فعلوا ذلك لما وجدوه فيها من مقالات كلامية وأشعرية وفلسفية وصوفية، تخالف ما هم عليه من مذهب السلف وأهل الحديث في أصول الدين.

- وكان الموحدون (541 - 668 هـ) بالمغرب الإسلامي متعصبين على المذاهب الفقهية الأربعة، فأمروا الناس بترك تلك المذاهب، وخاصة المذهب المالكي، ودعوا الرعية إلى أخذ الأحكام الشرعية مباشرة من الكتاب والسنّة على طريقة الاجتهاد المطلق؛ فكتب بعض ملوكهم إلى طلبة العلم بالمغرب والأندلس بحرق كُتب الفروع سنة 550 هـ. ثم تكرر ذلك زمن السلطان الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (ت 595 هـ)، فأعرض عن المالكية، وهدد كل من يشتغل بكتب الفروع - أي الفقه - وأمر بإحراقها، فأُحرقت مؤلفات كثيرة من كتب المالكية، منها: مدونة سُحنون بن سعيد، والواضحة لابن حبيب، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره. يقول صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) عن دعوة أبي يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة: "وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها لقد

شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار...".

• وذكر أبو الفدا في كتابه (المختصر في أخبار البشر) ما يلي: "وفي سنة 744 هـ مزقنا كتاب (فصوص الحكم) بالمدرسة العصرونية بحلب عقيب الدرس، وغسلناه، وهو من تصانيف ابن عربي؛ تنبيهًا على تحريم قنيته ومطالعته، وقلت فيه:

هذه فصوص لم تكن بنفيسة في نفسها

أنا قد قرأت نقوشها فصوابها في عكسها

• وعُرف برمش بن يوسف التركماني الحنفي المصري (ت 823 ه) بتعصبه لأهل الحديث، وبتعصبه على الصوفية الاتحادية المتفلسفة، وخاصة كبيرهم ابن عربي (ت 638 هـ)، فكان يحرق ما يقدر عليه من كتبه، وفي إحدى المرات ربط كتاب (فصوص الحِكم) لابن عربي بذيل كلب وجرّه، ولم يُبالِ بمعارضة الصوفية الاتحادية له.

النار الحارقة لما كتبه الزنادقة

الزندقة: ما هي؟

عرّف ابن منظور في كتابه (لسان العرب) كلمة الزندقة على النحو التالي: "الزنديق: القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب، وهو بالفارسية: زند كراي، يقول: بدوام بقاء الدهر. والزندقة: الضيق، وقيل: الزنديق منه لأنه ضيق على نفسه. التهذيب: الزنديق معروف، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق. وقال أحمد بن يحيى: ليس زنديق ولا فرزين من كلام العرب، ثم قال: ولكن البياذقة هم الرجالة، قال: وليس في كلام العرب زنديق، وإنما تقول العرب رجل زندق وزندقي إذا كان شديد البخل، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا: ملحد ودهري، فإذا أرادوا معنى السّن قالوا: دهري، قال: وقال سيبويه الهاء في زنادقة وفرازنة عوض من الياء في زنديق وفرزين، وأصله الزناديق. الجوهري: الزنديق من الثنوية وهو معرب، والجمع الزنادقة، وقد تزندق، والاسم الزندقة" . وكان أتباع زرادشت من الفرس يطلقون كلمة "زنديك" عندهم، أو زنديق عند العرب، على أتباع ماني، ولما كان الزادشتية يعدون المانوية ملاحدة خارجين على الزرادشتية، فقد أطلقت عندهم على كل ملحد لا يؤمن بالدين الحق. كانت الزندقة في نشأتها تقال على من اتخذ من عقائد المانوية شعارًا له وتمسّك بعقيدة الثنوية وعبادة إلهين اثنين، ثم صارت تقال على من ينفي وجود الخالق سبحانه وتعالى أو على من يجعل له شريكًا، ثم صارت تقال لمن يتأثر بالفرس في عادتهم ويسرف في العبث والمجون ويتظاهر بالظرف.

عُرف عن الخليفة العباسي المهدي (ت 169 هـ) بأنه كان سيفًا مسلطًا على أهل الإلحاد والزندقة، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم. ومن أمثلة ما يروى عن المهدي وشدته على الزنادقة أنه لما رسخ في ذهنه زندقة ابن وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار استدعى به وسأله عن شيء من القرآن الكريم فلم يعرف، فأمر أباه أن يتقرب إلى الله بدمه، فقام الوزير فعثر ووقع وارتعد. فقيل للمهدي: "يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تعفي الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره؟"، فأمر المهدي بعض من كان حاضرًا بقتله، فضربت عنقه. ولقد بلغ بالمهدي من شدة بطشه بالزنادقة وحرصه على استئصال شأفتهم أن نصب لهم ديوانًا باسمهم وفوّض إليه الحق في التطلع عليهم والفتك بهم. ومن أشهر من قُتلوا وصُلبوا باسم الزندقة نذكر اسمي بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس. وخلف موسى الهادي (ت 170 هـ) أباه المهدي في الخلافة وسار على نهجه، فأخذ يتتبع الزنادقة في الآفاق ويقتلهم قتلاً ذريعًا. ولو أن العمر امتد بالهادي لكان قد أباد منهم خلقًا كثيرًا. بقي أن نقول: إنه وبالرغم مما كان لديوان الزنادقة من أفضال في الاقتصاص من أصحاب العقائد الفاسدة والأفكار الساقطة إلا أن هناك من حُبس وقُتل بسبب تهمة باطلة أو دسيسة ظالمة، غير أن الكلام عن هذا سيخرجنا عن مجالنا، فلنتركه لذوي الاختصاص من الباحثين.

وصية المهدي لولده الهادي

جاء في (تاريخ الرسل والملوك) للطبري ما يلي: ذكر محمد بن عطاء بن الواسطي، أن أباه حدثه أن المهدي (ثالث خلفاء بني العباس) قال لموسى (الهادي وهو رابع خلفائهم) يومًا – وقد قدم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه –: "يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد

لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجًا وتحوبًا، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور؛ فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين". قال: فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر: "أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينًا تطرف". ويقال: إنه أمر أن يهيأ له ألف جدع، فقال: هذا في شهر كذا، ومات بعد شهرين.

قول ابن قيم الجوزية في كتب الشرك وأهل الزندقة

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: "... وكذلك الكتب المشتملة على الشرك، وعبادة غير الله، فهذه كلُّها يجب إزالتُها وإعدامها، وبيعُها ذريعةٌ إلى اقتناءها واتخاذها؛ فهو أولى بتحريم البيع من كل ما عداها؛ فإن مفسدة بيعها بحسب مفسدتها في نفسها...".

وقال أيضًا رحمه الله: "وكل هذه الكتب المتضمنة لمخالفة السنة غير مأذون فيها، بل مأذون في محقها وإتلافها، وما على الأمة أضرُ منها، وقد حرّق الصحابة - رضي الله عليهم - جميع المصاحف المخالفة لمصحف عثمان، لما خافوا على الأمة من الاختلاف، فكيف لو رأوا أكثر هذه الكتب التي أوقعت الخلاف والتفرق بين الأمة؟". وقال أيضًا في نفس الموضع: "أن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة يجب إتلافها وإعدامها، وهي أولى بذلك من إتلاف آلات اللهو والمعازف، وإتلاف آنية الخمر؛ فإن ضررها أعظم من

ضرر هذه، ولا ضمان فيها...".

إتلاف كتب الزنادقة

• قال الطبري في أحداث سنة 163 هـ: "... انتهى (أي الخليفة المهدي) إلى حلب فأتته البشرى بها بقتل المقنع، وبعث وهو بها عبد الجبار المحتسب (صاحب ديوان الزنادقة) لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة. ففعل، وأتاه بهم وهو بدابق فقتل جماعة منهم وصلبهم وأتي بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين، ثم عرض بها جنده...".

• قال أبو الفرج ابن الجوزي: في نصف رمضان سنة 311 هـ أُحرِقَ على باب العامة صورة ماني وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على المصاحف.

• ذكر ابن الأثير رحمه الله في أحداث سنة 322هـ: أنه أحضر أبو بكر بن مقسم ببغداد في دار سلامة الحاجب، وقيل له: إنه قد ابتدع قراءةً لم تُعرف، وأحضر ابن مجاهد والقضاة والقرَّاء وناظروه، فاعترف بالخطأ وتاب منه، وأُحرِقتْ كتبه.

• ذكر ابن الجوزي في أحداث سنة 555: أنه قُبِض على ابن المُرخِّم الذي كان قاضيًا، وكان بئس الحاكم آخذ الرشاء! واستصفيت أمواله، وأعيد منها على الناس ما ادعوا عليه، وكان قد ضُرِب فلم يقر، فضُرِب ابنه فأقر بأموال كثيرة، وأُحرقت كتبه في الرحبة، وكان منها كتابي (الشفاء وإخوان الصفا)، وحُبِس فمات في الحبس.

• وفي سنة 611 هـ توفي عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر، والمعروف بالركن عبد السلام، وهو من بيت تصوف وتعبد مشهور. وكان عبد السلام هذا قد قرأ علوم الأوائل وأجادها، واقتنى كُتبًا كثيرة

في هذا النوع واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة. وله تقدم في الدولة الإمامية الناصرية (أي الخليفة العباسي الناصر لدين الله)، وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر فثلبه أحدهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن، فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه فوجد فيها الكثير من علوم القوم، وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة، وأن تحرق بحضور الجمع الجم منها ففعل ذلك. وأحضر لها عبيد الله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية، وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم، وذكر الركن عبد السلام هذا بشرٍ، وكان يخرج الكتب التي له كتابًا كتابًا فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار. وعوقب الركن عبد السلام على ذلك بالسجن، وبقي فيه إلى أن أفرج عنه في شهر ربيع الأول سنة 589 هـ وأعيد إليه ما كان له بعد الذي ذهب، وعاش بعد ذلك عمرًا طويلاً إلى أن توفي في السنة المذكورة.

- محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني ثم الدمشقي، المعروف بالسكاكيني: فاضل، يميل إلى مذهب المعتزلة. يناظر على القدر وينكر الجبر. احترف في صغره صناعة السكاكين، فنسب إليها. ووُجد بعد موته كتاب بخطه، اسمه (الطرائف في معرفة الطوائف) وفيه زندقة وطعن على دين الإسلام، فأخذه تقي الدين السبكي وقطعه في الليل وغسله بالماء. ونسب إليه عماد الدين ابن كثير الأبيات التي أولها (يا معشر الإسلام ذميّ دينكم). وتوفي السكاكيني هذا سنة 721 هـ.

محارق الأندلس

مع كامل الإقرار والتسليم بكل ما كُتب وقيل عن دولة الإسلام في الأندلس، وعن مجدها الحضاري، ورقيها الأدبي، وتسامحها الديني، إلا أنها مع كل هذا تكاد تبزّ حواضر الإسلام في امتهانها للكتب وحرقها بالنار، وأعني بالكتب هنا كتب الفلسفة! ولا يُذكر اسم فيلسوف من فلاسفة الإسلام بالأندلس من أمثال: ابن مسرة، وابن حزم، وابن باجه، وابن طفيل، وابن رشد إلا ووجدته قد شُنّع عليه، واتهم في دينه، وضيق عليه في معاشه، وربما أحرقت مصنفاته. ألا يحق لك بعد هذا أن تعجب وتحار فتتساءل مثلي: كيف لبلاد كانت تفوح عطرًا وتشعّ نورًا أن ترمي بالكتب في فم النار؟!

يعزو الباحث العراقي هادي العلوي (ت 1998 م) في كتابه (محطات في التاريخ والتراث) نفور الأندلسيين من الفلسفة إلى ما سماه بـ "طغيان السلفية" . فسلفية أهل الأندلس هي من حالت دون ازدهار علم الكلام في ربوعهم، وسلفيتهم هي من حالت دون انتشار المذاهب الفقهية خلا مذهب مالك. وأما السبب في اكتفائهم بمذهب مالك وتعصبهم له فإن ابن خلدون (ت 808 هـ) في مقدمته المشهورة يعيده إلى ما كان بين بيئة الأندلس والمغرب وبيئة الحجاز من تشابه كبير من حيث البساطة والبعد عن التعقيد، ولهذا فإن نزعة أهل الحديث كانت هي الغالبة على عقول أهل الأندلس والمغرب، وهذا كان من عوامل فشو المذهب المالكي في تلك البلاد .

ومما يدعو للعجب أن العداء للفلسفة والفلاسفة كان منبعه العوام لا الملوك والحكام. فملوك الأندلس وأمراؤها لم يلاحقوا الفلاسفة ولم يحرقوا

كتبهم بغضًا فيهم وإرهابًا لهم، وإنما لجأوا إلى ذلك توددًا للعوام وتزلفًا لهم. تعال اقرأ معي ما كتبه شهاب الدين أحمد المقري التلمساني (ت 1041 هـ) في سفره الكبير (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) التالي: "وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظًّا عظيمًا عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقربًا لقلوب العامة، وكثيرًا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب في هذا الشأن إذا وجدت. وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن". وتذكرني مقالة المقري باشتغال المنصور أبي عامر بالفلسفة في الباطن بما سطره ابن خلكان في ترجمته للشاعر ابن هانئ الأندلسي: "وكان - يعني ابن هانئ - كثير الانهماك في الملذات والمحرمات متهمًا بمذهب الفلاسفة. ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية وساءت المقالة في حق الملك بسببه، واتهم بمذهبه كذلك، فأشار عليه الملك بالغيبة عن البلد مدة يُنسى فيها خبره، فانفصل عنه وعمره يومئذ سبعة وعشرون عامًا". فهذا صاحب إشبيلية، فإنه وبرغم ميله إلى ابن هانئ وإعجابه به، إلا أنه اضطر إلى نصح شاعرنا بمغادرة البلاد خوفًا عليه وعلى نفسه من ألسنة الناس الذين ما كانوا يطيقون ذكرًا للفلسفة والفلاسفة وأيديهم.

لنستعرض سويًا بعضًا من أشهر حوادث إتلاف الكتب بالنار وغيرها من وسائل الإتلاف، في بلاد الأندلس:

أبو العلاء صاعد البغدادي اللغوي (ت 417 هـ)

جاء في كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان في

ترجمته لأبي العلاء صاعد البغدادي: صاحب كتاب (الفصوص)، روى بالمشرق عن أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي وأبي سليمان الخطابي، ورحل إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور ابن أبي عامر في حدود الثمانين والثلثمائة، وأصلة من بلاد الموصل، ودخل بغداد، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة ممتعًا، فأكرمه المنصور وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه، وكان مع ذلك محسنًا للسؤال حاذقًا في استخراج الأموال، وجمع له كتاب (الفصوص) نحا فيه منحى القالي في أماليه، وأثابه عليه خمسة آلاف دينار، وكان يتهم بالكذب في نقله، فلهذا رفض الناس كتابه.

ولما دخل مدينة دانية وحضر مجلس الموفق مجاهد بن عبد الله العامري أمير البلد كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفق مجاهد: دعني أعبث بصاعد، فقال له مجاهد لا تتعرض إليه فإنه سريع الجواب، فأبى إلا مشاكلته، فقال له بشار، وكان أعمى: يا أبا العلاء، فقال: لبيك، فقال: ما الجرنفل في كلام العرب؟ فعرف أبو العلاء أنه قد وضع هذه الكلمة وليس لها أصل في اللغة، فقال له بعد أن أطرق ساعة: هو الذي يفعل بنساء العميان ولا يفعل بغيرهن، ولا يكون الجرنفل جرنفلاً حتى لا يتعداهن إلى غيرهن، وهو في ذلك كله يصرح ولا يكني، قال: فخجل بشار وانكسر، وضحك من كان حاضرًا، فقال له الموفق: قلت لك لا تفعل فلم تقبل.

وتوفي صاعد المذكور سنة سبع عشرة وأربعمائة بصقيلة، رحمه الله. ولما ظهر للمنصور كذبه في النقل وعدم تثبيته، رمى كتاب (الفصوص) في النهر، لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له، فعمل فيه بعض شعراء عصره:

قد غاص في البحر كتاب   الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد:

عاد إلى عنصره إنما يخرج   من قعر البحور الفصوص

حرق الحاجب المنصور بن أبي عامر للكتب

استهل الإمام الذهبي ترجمته لأبي عامر المنصور (ت 392 هـ) بالقول: "الملك المنصور، حاجب المالك الأندلسية، أبو عامر، محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن وليد القحطاني المعافري القرطبي، القائم بأعباء دولة الخليفة المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس، فإن هذا المؤيد استخلف ابن تسع سنين، وردت مقاليد الأمور إلى الحاجب هذا، فيعمد إلى خزائن كتب الحكم، فأبرز ما فيها، ثم أفرد ما فيها من كتب الفلسفة، فأحرقها بمشهد من العلماء، وطمر كثيرًا منها، وكانت كثيرة إلى الغاية، فعله تقبيحًا لرأي المستنصر الحكم".

وكان الحكم المستنصر الأموي (ت 366 هـ)، والد هشام المؤيد، عالمًا بالدين، ملمًّا بالأدب والتاريخ، ضليعًا في معرفة الأنساب، يروى له شعر، محبًا للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جماعًا للكتب، قيل: إن مكتبته بلغت أربعمائة ألف مجلد.

حرق كتب ابن حزم الأندلسي

جاء في (الأعلام) للزركلي عن ابن حزم (ت 456 هـ): "عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم "الحزمية". ولد بقرطبة، وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين فقيهًا حافظًا يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، بعيدًا عن المصانعة. وانتقد كثيرًا من العلماء والفقهاء، فتمالأوا على بغضه، وأجمعوا على تضليله وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو منه،

فأقصته الملوك وطاردته، فرحل الى بادية لبلة (من بلاد الأندلس) فتوفي فيها. رووا عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو 400 مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. ومن أشهر مصنفاته (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، و(المحلى)، و(جمهرة الأنساب)، و(طوق الحمامة)، و(الناسخ والمنسوخ)، و(حجة الوداع) غير كامل، و(ديوان شعر).

وكان المعتضد بن العباد، صاحب إشبيلية، قد نقم على ابن حزم لمناوئته له ولتشيعه لبقايا بني أمية، ومثله كان فقهاء المالكية الذين أسخطهم ابن حزم بسبب تحديه لهم وتسفيهه لآرائهم، فما كان من المعتضد بن العباد إلا وأمر بحرق كتب ابن حزم في حضرة خصومه من الفقهاء. ولما أُحرقت كتبه أنشد ابن حزم تلك الأبيات الشعرية الجميلة فقال:

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة فكم
دون ما تبغونْ لله من سترِ
كذاك النصارى يحرقون إذا علت
أكفهم القرآن في مدن الثغرِ

حرق كتب ابن رشد

هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي (ت 595 هـ)، أبو الوليد، الفيلسوف. ويلقب بابن رشد "الحفيد" تمييزًا له عن جده العلاّمة أبي الوليد

محمد بن أحمد. من أهل قرطبة، أقبل على علم الكلام والفلسفة حتى صار يُضرب به المثل فيها. وعني ابن رشد بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة. لقد كان لابن رشد إسهام عظيم في الفلسفة؛ حيث قدم شروحات للفلسفة اليونانية احتفت بها أوروبا وترجمتها، وقد رأى ابن رشد أن ليس ثمة تعارض بين الدين والفلسفة فكلاهما ينشد الحقيقة. وهذه الشروح حملت الكثير من فلسفته الخاصة، تلك الفلسفة كانت سببًا في نكبته ونكبة الفلسفة في بلاد الإسلام.

ولقد صنف ابن رشد نحو خمسين كتابًا في الفقه والطب والمنطق والرياضي والإلهي. ومن كتبه نذكر: (التحصيل)، و(الحيوان)، و(الضروري في المنطق)، و(تهافت التهافت)، و(فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة)، و(تلخيص كتب أرسطو)، و(بداية المجتهد ونهاية المقتصد). ونقل الإمام الذهبي عن ابن الأبار قوله في ابن رشد: "لم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلمًا وفضلاً، وكان متواضعًا، منخفض الجناح، يقال عنه: إنه ما ترك الاشتغال مذ عقل سوى ليلتين: ليلة موت أبيه، وليلة عرسه، وإنه سوّدَ فيما ألف وقيد نحوًا من عشرة آلاف ورقة، ومال إلى علوم الحكماء، فكانت له فيها الإمامة. وكان يفزع إلى فتياه في الطب، كما يفزع إلى فتياه في الفقه، مع وفور العربية، وقيل: كان يحفظ ديوان أبي تمام والمتنبي".

اتصل بالسلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف فأنعم عليه وأحسن إليه، ثم زادت مكانته عند خلفه السلطان المنصور أبي يوسف يعقوب الذي عرف قدره فأجلّه وقدّمه. ثم إن خصومه اتهموه بالزندقة والإلحاد، فأوغروا عليه صدر المنصور، فأمر بإحراق بعض كتبه، ومن ثم نفاه إلى مراكش، فلبث فيها محبوسًا بداره، ثم رضي عليه المنصور وأذن له بالعودة إلى قرطبة، فعاجلته الوفاة بمراكش، ونقلت جثته إلى قرطبة، ومات المنصور بعده بشهر.

تحريم الاشتغال بالفلسفة

وبعد أن نُفيَ ابن رشد أمر السلطان أبو يوسف يعقوب كاتبه أبا عبد الله بن عائش بكتابة منشور نهى الناس فيه عن الاشتغال بالفلسفة. ولطول المنشور فسوف أنقله إليكم بشيء من الإيجاز:

"قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الإفهام، حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفًا ما لها من خلاق، مسدودة المعاني والأوراق، بعدها من الشريعة بعد المشرقين، وتباينها تباين الثقلين، يؤمنون أن العقل ميزانها، والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقًا، ويسيرون فيها شواكل وطرقًا، ذلكم أن الله خلقهم للنار، وبعمل أهل النار يعملون... ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله وهو خادعهم، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم، وزيهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم... فاحذروا، وفقكم الله، هذه الشردمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان. ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه، ومآبه... ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله أولياء ثم لا تنصرون".

ابن مسرة وابن الخطيب

يقول القاضي بغرناطة، أبو الحسن النبهاني، في كتابه (تاريخ القضاة بالأندلس): "من وجد بخطه شيء من المذاهب الفلسفية المخالفة للشريعة، أو ما بمنزلتها في هذا المعنى، حكمها أن ينظر في المكتوب؛ فإن كان فيه تصريح أن كاتبه يقول به ويرتضيه، وهو بلسانه ينكره وينفيه، فيجرى

حكمه على ما سبق ذكره في الخط، إذا ثبت من تعليق يمين به، أو سجن إن لم يحلف على نفيه، أو إنفاذ ما يوجبه الخط على من أقر بمضمنه، بحسب ما يقتضيه؛ وإن كان الخط بتلك المذاهب نقلاً مرسلاً غير مضاف قولاً لكاتبه، ولا مرتضى له مذهبًا من قبله، فبئس من كتب بيده، مما هو عرضة للإخلال، وهو رصد للطعن على الدين بسببه؛ وهو حقيق بالتحريق والزجر عن مثله. وقد قال تعالى في قوم أضلوا غيرهم بمكتوبهم: "فويل لهم مما كتبت أيديهم!" وقد تقدم في اسم محمد بن يبقى بن زرب ما كان من عمله سنة 350 جملة من أتباع ابن مسرة الجبلي، وأنه استتابهم، وأحرق ما وجد من كتبهم وأوضاعه عندهم. وجرى مثل ذلك أيضًا بحضرة غرناطة، منتصف عام 773، في كتب ألفيت بها من تواليف محمد بن الخطيب، فيما يرجع إلى العقائد والأخلاق؛ فأحرقت بمحضر من الفقهاء، والمدرسين من العلماء، وأماثيل الفقهاء، لما تضمنته الكتب المذكورة من المقالات التي أوجبت ذلك عندهم، وحققته لديهم".

إماتة (الإحياء)

مقدمة لا بد منها:

اسمحوا لي أن أسبق كلامي عن حرق كتاب (إحياء علوم الدين)، أو كتاب (الإحياء) على سبيل الاختصار، بكلمات موجزة عن صاحب الكتاب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وذلك لأني وجدت قومًا لا يعرفونه، بل ربما خلطوا بينه وبين الشيخ المصري محمد الغزالي - رحمه الله - (ت 1996 م)، ووجدت قومًا آخرين لا يعرفون عن صاحب الإحياء إلا أنه أمات الفلسفة في بلاد الإسلام وختم على عقل الأمة بالشمع الأحمر!

اسمه محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الطوسي، أبو حامد، زين الدين، حجة الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام. اشتغل في مبدأ أمره بطوس، ثم قدم نيسابور، واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وجدّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة، وصار من الأعيان المشاهير الذين يشار إليهم بالبنان. وقيل إنه صنّف في حياة أستاذه الجويني، أي ألّف كتبًا، فنظر الجويني في كتابه (المنخول)، فقال له، أي للغزالي: "دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت؟" وأراد الجويني بكلامه هذا أن كتابك قد غطى على كتابي.

ودخل أبو حامد الغزالي بغداد، ولقي الوزير الشهير نظام الملك الحسن بن علي (ت 485 هـ) فأكرمه وعظّمه، وبالغ في الإقبال عليه، وكان بحضرة الوزير جماعة من الفضلاء فناظروه وظهر عليهم واشتهر اسمه وسار بذكره الركبان، وفوّض إليه الوزير التدريس في المدرسة النظامية ونفذت

كلمته وعظمت حشمته ببغداد حتى علت على حشمة الأكابر من الوزراء والأمراء، وأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته، وضُرب به المثل، وشُدت إليه الرحال.

ثم أنه ترك جميع ما كان فيه، وشرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضها وطرحها، وأقبل على العبادة والسياحة، وسلك طريق التزهد والانقطاع، فحج إلى بيت الله سنة 488 هـ، ثم توجه إلى الشام فأقام في مدينة دمشق، ثم توجه إلى القدس واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة. وقيل إنه عزم منها على ركوب البحر للاجتماع بسلطان الموحدين - الملثمين - يوسف بن تاشفين (ت 500 هـ)، صاحب مراكش وواحد من أبطال الإسلام لما بلغه منه من محبته لأهل العلم والإقبال عليهم فبلغه نعي المذكور، ثم عاد إلى وطنه بطوس، مقبلاً على التصنيف والعبادة، وملازمة التلاوة، ونشر العلم، وعدم مخالطة الناس، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة 505 هـ.

ومن أشهر تصانيف أبي حامد الغزالي نذكر، مثلاً لا حصرًا: (إحياء علوم الدين)، و (الاقتصاد في الاعتقاد)، و (مقاصد الفلاسفة)، و (تهافت الفلاسفة)، و (المنقذ من الضلال)، و (التبر المسبوك في نصيحة الملوك)، و (فضائح الباطنية)، و (إلجام العوام عن علم الكلام)، و (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)، و (عقيدة أهل السنة)، و (ياقوت التأويل في تفسير التنزيل)، و (جواهر القرآن)، والقائمة تطول.

الإحياء ما له وما عليه

وكتاب أبي حامد الغزالي الموسوم بإحياء علوم الدين هو من أجمل كتبه وأنفسها. قال صاحب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) عن الكتاب بأنه: "أجل كتب المواعظ، وأعظمها، حتى قيل فيه: لو ذهبت كتب

الإسلام، وبقي الإحياء، أغنى عما ذهب". ومدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشي المحدّث الصوفي، وصاحب كتاب (النجم والكواكب) وغيره فقال:

أبا حامد أنت المخصص بالحمد
وأنت الذي علمتنا سّنن الرشد
وضعت لنا الإحياء يحي نفوسنا
وينقذنا من طاعة المارد المردي
فربع عبادات وعاداتها التي
تعاقبها كالدر نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإنه لمنجٍ
منَ الهلك المبرّح بل بعدي
ورابعها في المنجيات وإنه
ليسرح بالأرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر
ومنها صلاح للقلوب من البعد

ومع كل هذا التقريظ والمديح فإن كتاب (إحياء علوم الدين) لم يسلم من مثالب ومآخذ أنكرها فيه جملة من العلماء الأجلاّء، مما اضطر الغزالي نفسه إلى أن يضع كتاب آخر سمّاه (الإملاء على مشكل الإحياء) ليرد فيه على منتقديه. فمن أولئك الذين عابوا على الغزالي في كتابه نذكر الإمام جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي (ت 597 هـ) الذي صّنف كتاب (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء)، وتكلم عنه كذلك في كتابه الآخر والمعروف ب (تلبيس إبليس). إن أكثر ما أخذه العلماء على الغزالي وضعه لكتابه على مذهب الصوفية وتركه لقانون الفقه. فمن أمثلة ذلك ما ذكره الغزالي في مجاهدة النفس: أن رجلاً أراد محو جاهه فدخل الحمام فلبس ثياب غيره، ثم لبس ثيابه فوقها، وخرج يمشي على مهل حتى لحقوه فأخذوها منه فسمّي سارق الحمّام. وذكر هذا

المثال على سبيل تعليم المريدين قبيح، لأنه متى كان للحمّام حافظ وسرق منه سارق قُطِعَ، ثم لا يحل لمسلم أن يتعرض لأمر يؤثّمُ الناس به في حقه.

وعلاوة على ذلك، فإن كتاب الإحياء حوى الكثير من الأحاديث الموضوعة والتي لا يصح نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول ابن الجوزي في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) في ترجمته للشيخ أبي حامد الغزالي: "... وذكر في كتاب الإحياء من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف، وإنما نقل نقل حاطب ليل".

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فقد تذكرت الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - (ت 1999) الذي زاد على ما قاله المتقدمون عن كتاب الإحياء، فقال: "وشيء آخر هو أن هذه الروح التي تتجلى في كتاب الإحياء روح الانصراف عن الدنيا، والميل إلى الفقر ليست هي الروح الإسلامية، إن الروح الإسلامية تتجلى في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والعجيب أنه ألّفه في العصر الذي توالت فيه الهجمات على الإسلام من مغول الشرق وصليبيي الغرب، فلو أخذ المسلمون بما يدعو إليه كتاب الإحياء، لما وجدت قوة عسكرية تردّ التتار المغول من هنا ولا الصليبيين من هناك".

حرق كتاب الإحياء

بعد أن توفى الله عبده يوسف بن تاشفين، أول ملوك المرابطين، سنة 500هـ، قام بالأمر بعده ولده علي، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد؛ وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيدًا عن الظلم؛ واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيمًا لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس.

يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص المغرب): "ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا. وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وفي ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنِّي، من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس:

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك
وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب
وبأصبغ صبغت لكم في العالم)

وإنما عرَّض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة، وهو كان المقصود بهذه الأبيات، ثم هجاه بأبيات صريحة تجدها في الكتاب المذكور. والقاضي بن حمدين هو من كفّر أبا حامد الغزالي وأغرى السلطان علي بن يوسف به حتى أمر بحرقه، كما سيأتي معنا.

يقول عبد الواحد المراكشي: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِم عِلْم الفروع، أعني: فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها. وكثر ذلك حتى نُسي النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء. ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام. وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه

شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلاف في العقائد، في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بُغْض علم الكلام وأهله، فكان يُكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه. ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد - من سفك الدم واستئصال المال - إلى من وُجد عنده شيء منها؛ واشتد الأمر في ذلك".

وجاء في كتاب (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب) لكاتبه أبي العباس الونشريسي ما يلي: "قال ابن القطان: لما وصل إحياء علوم الدين إلى قرطبة تكلموا فيه بالسوء وأنكروا عليه أشياء، لا سيما قاضيهم ابن حمدين فإنه أبلغ في ذلك حتى كفر مؤلفه وأغرى السلطان به واستشهد بفقهائه، فأجمع هو وهم على حرقه، فأمر علي بن يوسف بذلك بفتياهم، فأحرق بقرطبة على الباب الغربي في رحبة المسجد بجلوده بعد إشباعه زيتًا، بمحضر جماعة من أعيان الناس، ووجه إلى جميع بلاده يأمر بإحراقه. وتوالى الإحراق على ما اشتهر عنه ببلاد المغرب في ذلك الوقت، فكان إحراقه سببًا لنزول ملكهم، وانتثار سلكهم، وتوالي الهزائم عليهم...".

والعجيب أن ابن القطان المذكور أعلاه قد جعل من حرق كتاب الإحياء سببًا في زوال ملك المرابطين، وتهدم دولتهم على يد المهدي ابن تومرت يعسوب الموحدين وزعيمهم. ينقل أبو العباس الونشريسي عن ابن القطان في كتابه (المعيار المغرب) ما يلي: "أن المهدي رحل من بلاد أقصى المغرب إلى الأندلس سنة خمسمائة، ومن المرية دخل في مركب إلى المشرق فغاب فيه اثنا عشر عامًا. وذكر أيضًا عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس، قال كنت ببغداد بمدينة أبي حامد الغزالي، فجاء رجل كث

اللحية على رأسه كرزي صوف، فدخل المدرسة وحياها بالركعتين، ثم أقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه، فقال: فمن الرجل؟ قال: من أهل المغرب الأقصى، قال: دخلت قرطبة؟ قال: نعم! قال فما حال فقهائها؟ قال: بخير، قال: هل بلغهم الإحياء؟ قال: نعم! قال: فما قالوا فيه؟ فلزم الرجل الصمت حياءً منه، فعزم عليه ليقولن ما طرأ، فأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت، قال فتغير وجه الشيخ أبي حامد ومد يده إلى الدعاء والطلبة يؤمنون، فقال اللهم مزّق ملكهم كما مزقوه، وأذهب دولتهم كما حرقوه! فقام محمد بن تومرت السوسي الملقب بعد بالمهدي عند قيامه على المرابطين فقال له: أيها الامام ادع الله أن يجعل ذلك على يدي! فتغافل عنه أبو حامد، فأخبره بمثل الخبر المتقدم، فتغير ودعا بمثل دعائه الأول، فقال له المهدي: على يدي، فقال: اخرج يا شيطان سيجعل الله ذلك على يدك! فقبل الله دعاءه. وخرج محمد بن تومرت من هناك إلى المغرب برسم تحريك الفتن وقد علم أن دعوة ذلك الشيخ لا ترد، فكان من أمره ما كان، وكان تاريخ هذا الإحراق سنة سبع وخمسمائة".

نقطة أخيرة

إن صح أن كتاب (الإحياء) قد أضرمت فيه النيران في سنة 507 هـ وهو ما تقدم معنا في شهادة ابن القطان، فهذا يقتضي أن واقعة الحرق قد جرت بعد وفاة أبي حامد الغزالي بسنتين، ومن ثم فإن لقاء ابن تومرت (ت 524 هـ) بالشيخ يصبح موضع شك كبير! إن كان ابن تومرت قد اتصل بالشيخ الغزالي فلا بد أن يكون اللقاء قد جرى فيما بين سنتي 505-500 هـ والعلم عند الله. هذا فيما يتصل باللقاء بين الرجلين، أما فيما يتصل بدعوة الغزالي على المرابطين وأنها كانت هي السبب في تمزق ملكهم وذهاب ريحهم فتلك قصة أخرى، ولا سبيل لي للخوض فيها!

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

الظلال الكثيبة

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي، ويُكنى بـ "أبي حيان"، وهي الكنية التي غلبت على اسمه وعُرف بها بين الناس. وأبو حيان، عربي الأصل، وُلد سنة 310 هـ ببغداد، وقيل بشيراز، وقيل بنيسابور، وعاش عمرًا مديدًا، ومات بشيراز سنة 410 هـ. واختلفوا في نسبته إلى التوحيد، فمنهم من قال: التوحيد هو نوع من التمر العراقي الذي كان أبوه يبيعه للناس، ومنهم من قال: بل سُمي بالتوحيدي لكونه معتزلي والمعتزلة يلقبون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد.

وُلد أبو حيان فقيرًا، وعاش فقيرًا، ومات فقيرًا. فمنذ نعومة أظافره عرف معنى اليتم وذاق مرارة الحرمان. ولما مات أبوه حمله عمه القاسي إلى داره فعاش الصغير في أكناف البؤس وأحضان الفقر. ولما كبر أبو حيان وجد في مهنة الوراقة ببغداد مصدرًا للقمة العيش ومنهلاً للعلم والأدب حتى غدى بفضل غزارة علمه، وعمق فكره، واتساع أدبه، نجمًا من نجوم الفكر وعلمًا من علوم الأدب. وابن حيان إن قلت عنه أديب فهو كذلك، وإن قلت عنه فيلسوف هو كذلك، وإن قلت عنه متصوف فهو أيضًا كذلك. ولقد وصفه ياقوت الحموي في معجمه بكلام جميل فقال: "وكان متفننًا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيًّا يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام،

ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان...".

وعلى ما يظهر فإنَّ مهنة الوراقة لم ترضِ طموحه ولم تلبِ احتياجه، فمد أبو حيان بصره إلى وزراء دولة بني بويه العظام من أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والمهلبي، لعله يجد عند أحد منهم ما يرنو إليه من علو المكانة وحسن المعاملة وطيب العيش، إلا أنه كان لا يعود إلا مكسور الشوكة، مهيض الجناح، منكس الرأس، ناقمًا على زمانه وناسه. وكان من نتائج شعوره بالتهميش والإنكار والفشل والإهمال أن لاذ بالتصوف عساه أن يجد فيه ما ينشده من العزلة والراحة والسكينة. يقول أبو حيان في كتابه (الصداقة والصديق) بعد أن انزوى على نفسه: "فلقد فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرافق ومشفق، ووالله لربما صليت في الجامع، فلا أرى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أو عصار، أو نداف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازمًا للحيرة، محتملاً للأذى، يائسًا من جميع ما ترى".

لآلئ وجواهر

خلّف أبو حيان إرثًا نفيسًا وأثرًا جميلاً لا يقدر بمال. ولقد اشتهر عنه أن كان فريدًا من نوعه، شاذًا عن أدباء عصره. ففيما كان أدباء زمانه يتبارون في تطريز كتاباتهم بالسجع وتبهيره بالمحسنات البديعية، كان أبو حيان منصرفًا إلى المعنى، ميالاً إلى البساطة، منحازًا إلى أسلوب الجاحظ، ولهذا فقد خصّ أستاذه بكتاب سمّاه (تقريظ الجاحظ). ومن مشاهير كتبه (الإمتاع والمؤانسة)، وهو نتاج مسامرته ومنادمته لوزير بني بويه أبي عبد الله العارض في سبع وثلاثين ليلة، والكتاب ذو طابع فكري ونقدي مكسو بقماشة أدبية فاخرة، يصور فيه كاتبه الحياة الاجتماعية والفكرية للمجتمع في ذاك الزمان. وله

كذلك كتاب (البصائر والذخائر) بأجزائه العشرة، ولقد جمع فيه أبو حيان روائع ما حفظ وسمع وقرأ. ولا ننسى كتابه المشهور (أخلاق الوزيرين)، ويقصد بالوزيرين هنا: ابن العميد والصاحب بن عباد، والكتاب يعدد مثالب هذين الوزيرين اللذين اتصل بهما أبو حيان فلم يجد عندهما ما تهفو إليه نفسه من التقدير والتكريم. وحين مال أبو حيان إلى التصوف وضع كتابًا سمّاه (الإشارات الإلهية) وهو محسوب ضمن كتب الأدب الصوفي الرفيع. ولأبي حيان التوحيدي كتب أخرى لا تقل شهرةً عما ذكرناه أعلاه أعرضنا عن ذكرها تجنبًا للإطالة واختصارًا للوقت.

أكبر زنادقة الإسلام

اختلف أصحاب التراجم في موقفهم من أبي حيان، فمنهم من قدح فيه وحط عليه، ومنهم من اثني عليه وذكره بخير. فالشيخ الذهبي في مصنفه الكبير (سير أعلام النبلاء) يقول عن أبي حيان: "الضال الملحد أبو حيان، علي بن محمد بن العباس، البغدادي الصوفي، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية، ويقال: كان من أعيان الشافعية. قال ابن بابي في كتاب (الخريدة والفريدة): كان أبو حيان هذا كذّابًا قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل، ولقد وقف سيدنا الوزير الصاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدغله ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقتله، فهرب، والتجأ إلى أعدائه، ونفق عليهم تزخرفه وإفكه، ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته، وما يبطنه من الإلحاد، ويرومه في الإسلام من الفساد، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح، فطلبه الوزير المهلبي، فاستتر منه، ومات في الاستتار، وأراح الله، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية. وقال ابن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو

العلاء المعري، وأشدهم على الإسلام أبو حيان، لأنهما صرحا، وهو مجمج ولم يصرح. قلت: وكان من تلامذة علي بن عيسى الرماني ورأيته يبالغ في تعظيم الرماني في كتابه الذي ألفه في تقريظ الجاحظ، فانظر إلى المادح والممدوح! وأجود الثلاثة الرماني مع اعتزاله وتشيعه...".

واثنى تاج الدين السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) على أبي حيان فقال: "المتكلم الصوفي، صاحب المصنفات... كان إمامًا في النحو واللغة والتصوف، فقيهًا مؤرخًا... قال ابن النجار: له المصنفات الحسنة، كالبصائر وغيرها، قال: وكان فقيرًا صابرًا متدينًا، قال: وكان صحيح العقيدة... وبعد أن نقل رأي الشيخ الذهبي فيه قال السبكي: ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقيعة فيه، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس، مزدريًا بأهل عصره، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل".

لماذا أحرق ابن حيان كتبه؟

عاش أبو حيان آخر عمره في عزلة وفقر ونكد، بدليل قوله: "لقد غدا شبابي هرمًا من الفقر، والقبر عندي خير من الفقر"، وفي موضع آخر يقول: "فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص". وزاد من حقد أبي حيان على الناس وتشاؤمه من الحياة، ما لاحظه من انصراف الناس عنه، وقسوة الحياة عليه، فلم يلبث أن أحرق ما لديه من مصنفات، ضنًا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته. وضمّن ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) رسالة طويلة كتبها أبو حيان إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد بعد أن بلغه أن القاضي يقبّح صنيع أبي حيان بنفائسه من الكتب. ولطول تلك الرسالة سنكتفي بنقل جزء منها: "حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك

على ذلك، وأجارنا جميعًا مما سود وجه عهد إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، وأدام الله نعمته عندك، وجعلني على الحالات كلها فداك. وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برح بي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به علي، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إلي، والصبابة نحوي ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تقرأ قوله جل وعز: {**كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون**}، وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: {**كل من عليها فان**}، وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلبًا بيد الليل والنهار، معروضًا على أحداث الدهر وتعاود الأيام، ثم إني أقول: إن كان - أيدك الله - قد نقب خفك ما سمعت، فقد أدمى أظلي ما فعلت، فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أيامًا وليالي، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع وتريع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي: إن العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه علاً - وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار.

ثم اعلم - علمك الله الخير - أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس

ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة علي لا لي. ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا منيبًا، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشتمون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن، ونقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخافٍ عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته بما قدمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته إما هربًا من التطويل، وإما خوفًا من القال والقيل. وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة؟ ألست زمرة من قال القائل فيهم:

نروح ونغدو كل يوم وليلة   وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر:

تفوقت درات الصبا في ظلاله   إلى أن أتاني بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدي، وتمامه يضيق عنه هذا المكان.

والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقربهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري، وما والى هذه المواضع، وتواتر إلي نعيهم، واستدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب. وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويعشى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر. وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول. وهذا يوسف بن أسباط: حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه. وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك. وهذا سفيان الثوري: مزّق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من ها هنا ولم أكتب حرفًا. وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمةً للنار..".

ولحسن حظ من جاء بعده فإن النار لم تأكل جميع ما كتبه أبو حيان. يقول جلال الدين السيوطي: "لعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه في حياته وخرجت عنه قبل حرقها، وربما كان لاشتغاله بالنسخ وتأليفه كتبه

وتقديمها إلى بعض رؤساء عصره أملاً في مجازاته عليها سببًا في بقاء العديد منها ونجاته من الحرق".

جالينوس العرب

من الغناء إلى الكيمياء

عُرف أبو بكر محمد الرازي منذ صباه بحبه الجارف للمعارف والعلوم؛ فدرس الفلسفة والرياضيات والموسيقى وأبدع فيها. وجاء في (الوافي بالوفيات) للصفدي أن الرازي كان في صباه مغنيًا بالعود فلما التحى قال: كل غناء يخرج بين شارب ولحية ما يُطرب، فأعرض عن ذلك. ولما بلغ أبو بكر الثلاثين من عمره انكب على دراسة الكيمياء والطب، فبلغ فيهما شأوًا عظيمًا ومنزلة رفيعة. ولشغفه بالعلم والكشف عن كل ما هو جديد فقد أذاب أبو بكر الرازي عمره في القراءة والكتابة، وفي البحث والتجربة، حتى صار واحدًا من كبار العلماء وأجلائهم ليس في بلاد الإسلام فحسب، بل في العالم أجمع. ومن طريف ما يروى عن أبي بكر وانغماسه في القراءة ومواظبته عليها أنه كان يضع سراجه في مشكاة على حائط يواجهه، وينام في فراشه على ظهره ممسكًا بالكتاب حتى إذا سقط الكتاب على وجهه فأيقظه ليواصل القراءة من جديد!

طينة العظماء

ترك أبو بكر الرازي بعد وفاته 232 عملاً ما بين كتاب ورسالة في الطب والكيمياء والطبيعيات والإلهيات والفلسفة والأخلاق. وأجلّ كتبه وأبعدها صيتًا وأذكرها شهرة هو (الحاوي) في صناعة الطب، وتُرجم إلى اللاتينية، وطُبع في أوروبا في خمسة وعشرين مجلدًا. وله في الطب أيضًا كتاب (الجدري والحصبة) وكتاب آخر اسمه (المنصوري) صنّفه لمنصور بن نوح أحد ملوك

بني سامان، والاثنان تُرجما إلى اللاتينية، وطُبعا غير مرة، وما زالت كتب الرازي تعد من المراجع المعتبرة لدراسة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر. ولهذا كله فلا عجب أن يُلقب أبو بكر الرازي بـ "جالينوس العرب". وسبق أن قيل عنه: "كان الطب متفرقًا فجمعه الرازي". وإلى جانب ما ذكر فإن للرازي كتبًا أخرى في الطب يتعذر عدها وضبطها ومنها: (من لا يحضره الطبيب)، و(سر الطب)، و(المدخل إلى الطب)، و(منافع الأغذية)، و(الحصى في الكلى والمثانة). وعلى الجملة، فالرازي كان إمامًا في الطب معدوم النظير.

ومثلما كان للرازي أيادٍ بيضاء في الطب فقد كان له مثلها في ميادين الطبيعيات والكيمياء. فالرازي كان يعتقد بكروية الأرض على خلاف ما كان شائعًا حينها، وكان يعتقد بأن الإبصار يتم بخروج شعاع من الجسم إلى العين على خلاف ما كان سائدًا وقتها، وهو ما أكده العلم بعد قرون، وهذا غيض من فيض وبرض من عد. وللرازي كتب ورسائل كثيرة وجليلة في هذا الحقل نذكر منها: (علة جذب حجر المغناطيس للحديد)، و(هيئة العالم)، و(الهيولي المطلقة والجزئية)، و(الهيولي الكبير). ويعد الرازي من أساطين علم الكيمياء وأعلامه. ولم يكتفِ الرازي بما وصل إليه من سبقه من أهل اليونان والهند والفرس في علم الكيمياء، بل زاد عليه وأضاف إليه بما تفتقت عنه تجاربه ومشاهداته. ومن مؤلفاته القيمة نذكر مثلاً لا حصرًا: (سر الأسرار)، و(الحجر الأصفر)، و(الإكسير)، و(شرق الصناعة).

ولقد شاع بين بعض الخلق في زماننا هذا كلام عن إلحاد أبي بكر الرازي وطعنه في دين الله ونقضه للنبوات وما إلى ذلك من أمور قبيحة. ولقد نسب بعضهم إليه ظلمًا كتبًا في هذا نذكر منها: (مخارق الأنبياء) و(حيل المتنبئين)، والكتابان المذكوران ملفقان ولا علاقة له بهما، ولا يعتقد أن يكتبهما الرازي

وهو الذي وضع لنا كتابًا سمّاه (إن للعبد خالقًا). ولو كان أبو بكر الرازي ملحدًا لما امتدحه ولا ترحم عليه أصحاب التواريخ والتراجم من أمثال: الذهبي، والصفدي، وابن كثير، وابن تغري بردي، وابن العماد الحنبلي، وغيرهم.

هكذا أتلفوا كتابه

لم يحرق الرازي كتبه كما فعل صاحبنا أبو حيان التوحيدي، ولم يحرق شانئوه كتبه اعتراضًا على ما نُسب إليه من إلحاد ظلمًا، وإنما جرى له شيء عجيب وغريب. يقال إن الرازي صنَّف للملك منصور بن نوح الساماني كتابًا في الكيمياء فأعجبه ووصله بألف دينار، وقال له: "أريد أن تخرج ما ذكرت من القول إلى الفعل"، فقال: "إن ذلك يحتاج إلى مؤن وآلات وعقاقير صحيحة وإحكام صنعة"، فقال الملك: "كل ما تريده أحضره إليك وأمدك به". فلما كعَّ عن مباشرة ذلك وعمله قال له الملك: "ما اعتقدت أن حكيمًا يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة يشغل بها قلوب الناس ويتعبهم فيما لا فائدة فيه، والألف دينار لك صلة ولا بُدَّ من عقوبتك على تخليد الكذب في الكتب". ثم أمر بأن يُضرب الرازي بكتابه على رأسه حتى تقطَّع، فكان ذلك الضرب سببًا في نزول الماء في عينيه إلى أن أصابه العمى!

دخان بلا نار

الغذامي وشهاب وعاصفة الحزم

بعد أن كتب الأكاديمي والمثقف السعودي عبد الله الغذامي – صاحب المصنفات المشهورة مثل: (الخطيئة والتكفير)، و(حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية) و(الثقافة التلفزيونية)، و(الليبرالية الجديدة) – مؤيدًا ومباركًا "عاصفة الحزم" السعودية من أجل إنقاذ اليمن من السقوط في يد جماعة الحوثي أذناب إيران الصفوية؛ خرج باحث عراقي، يدعى أثير شهاب، متوعدًا الغذامي بحرق كتبه.

ففي صفحة هذا العراقي، على موقع فيسبوك، كتب مهددًا: "معقولة هذا الغذامي... سأحرق كتبه... مثقفون من ورق". لا أعلم، ولا أهتم، إن كان شهاب هذا قد نفّذَ تهديده وأحرق كتب الغذامي. ما يحيرني فقط أن يلجأ مثقف إلى حرق كتب مثقف آخر! ما الذي أبقاه شهاب للمتعصبين والجهلة من أعداء الكتب والمكتبات؟! أتساءل: كيف كان موقف شهاب من مثقفين عراقيين آخرين قبلوا بالهيمنة الأعجمية الإيرانية على عراق العروبة وصفقوا لها؟ هل أحرق شهاب كتبهم أم أنه رضي بسكوتهم وتأييدهم؟! وثمة سؤال آخر: ماذا لو لم تكن جماعة الحوثي غير منتسبة إلى التشيع الصفوي؟ هل كان شهاب سيهدد كتب الغذامي بالحرق أم تراه سيسكت؟!

هولوكوست في الجزائر

في صيف 2011، صدم عز الدين جلاوجي، وهو أديب جزائري، محبيه خاصةً ومحبي الكتب عامةً بعزمه على حرق أحد عشر ألف نسخة

من قصصه ورواياته ومسرحياته الكثيرة، احتجاجًا على الأوضاع الثقافية البائسة واليائسة في بلاد المليون شهيد. يقول جلاوجي متألمًا ومتحسرًا على حاله وحال الثقافة في بلاده وفي بلاد العرب: "الكارثة لا تكمن فقط في الحكام، بل في المجتمعات العربية التي قد تصبر على جوع شهر كامل، ولا تصبر على قراءة كتاب واحد".

وأضاف جلاوجي أنه ما إن أعلن عن هذا "الهولوكوست" الثقافي حتى توالت عليه اتصالات من كل حدب وصوب من أصدقاء وأدباء وقرّاء ولسان حالهم يقول له: "كتبك هي ملك لنا، ولن نسمح بالمساس بها". ويظنني، أن الرجل لم، ولن، يحرق كتبه كما زعم؛ وإنما أراد بهذا أن يرمي بحجر في مياه الثقافة الراكدة، أو ربما أراد أن يلفت الانتباه إليه وإلى كتبه، من يدري؟!

وليمة لأعشاب البحر

هل تذكرون رواية (وليمة لأعشاب البحر) للأديب السوري حيدر حيدر؟ هذه الرواية ولدت مرتين: الأولى حين أبصرت النور لأول مرة سنة 1983، والثانية حين علت أصوات صاخبة وساخطة تدعو إلى حرقها سنة 2000. والولادة الثانية هي التي أشهرتها وعرّفت بها من لم يكن يعرفها من قبل! تدور أحداث الرواية - والتي لم يتسنَّ لي قراءتها - حول مناضل شيوعي عراقي فرَّ إلى الجزائر ليلتقي بمناضلة قديمة في زمن ذبلت وشاخت فيه الثورة.

يقال - والعلم عند من قرأوها - إن الحوارات التي جرت على ألسنة شخصيات الرواية كان فيها مساس بالله وتطاول على دينه؛ ولهذا كانت الواقعة عندما أعيد نشرها في مصر سنة 2000. ففي لقاء لأحمد عمر هاشم - أحد كبار هيئة العلماء - مع إحدى الصحف القومية، وصف فيه الرواية بـ

"الكتاب المشؤوم"، وقال: "دعوت إلى حرق الكتب التي تتنافى مع الشريعة الإسلامية الغرّاء، وطالبت بمصادرتها ولم أخشَ في الله لومة لائم".

ونتيجة لهذا التحريض والتعريض بالرواية، فقد خرج الآلاف من طلبة جامعة الأزهر إلى الشوارع محتجين وداعين لحرقها، مما دفع الشرطة إلى استعمال الغاز المسيل للدموع والعيارات المطاطية من أجل تفريقهم. ولقد اضطرت وزارة الثقافة المصرية بعد أن تزايدت الاعتراضات وكثرت المظاهرات إلى سحب ما بقي من نسخ في الأسواق ليغلق باب مخزن الوزارة دونها، وربما للأبد.

شهرزاد في قبضة شرطة الآداب

من كان يتخيل أن مفخرة الأدب العربي (ألف ليلة وليلة)، التي ما قرأها أحد من الناس إلا وأشغلت وجدانه وأشعلت خياله، سوف تُجرّ إلى ساحات القضاء؟! من كان يتخيل أن (ألف ليلة وليلة)، التي افتتن الغرب مثلنا بعوالمها السحرية، ستُوضع في قفص الاتهام؟! في سنة 1986 تلقت "شرطة الآداب" المصرية، نعم شرطة الآداب!، بلاغًا يطالب بحرق (ألف ليلة وليلة)! والعجيب أن حكمًا ابتدائيًا صدر بالموافقة، ثم سرعان ما تم نقضه بقرار من محكمة الاستئناف، فتأمل أيها القارئ الكريم!

وبعد انصرام ما يقرب من ربع قرن من الزمان، وتحديدًا في سنة 2010، تقدمت مجموعة تطلق على نفسها "محامون بلا حدود" ببلاغ طالبت فيه بمصادرة طبعة جديدة من (ألف ليلة وليلة)، بدعوى انطوائها على ألفاظ جنسية صريحة، إضافة إلى تهم عجيبة وغريبة أخرى. ولحسن الحظ، فقد أفلتت شهرزاد، وزوجها المتسلط شهريار، وأبطال حكاياتها من سندباد وعلاء الدين وعلي بابا من مقصلة المصادرة هذه المرة كما أفلتوا أول مرة من المحرقة.

ومما جاء في حيثيات قرار النائب العام المصري أن كتاب (ألف ليلة وليلة): "صدر قبل نحو قرنين من الزمان وأعيدت طباعته مرارًا، وظل يتداول ولم تعترض الرقابة على المطبوعات عليه باعتباره من كتب التراث ويبعد كل البعد عن فكرة انتهاك حرمة الأخلاق ومظنة إثارة الشهوات، بل إنه ينبئ عن طرائق قدماء الأدباء في التأليف والنظم الأدبية، كما أنه لم يكتب أو يطبع بغرض خدش الحياء... وهذا الكتاب خليق بأن يكون موضوعًا صالحًا للبحث المنتج والدرس الخصب لكونه من قبيل الأدب الشعبي ومكونًا أصيلاً من مكونات الثقافة العامة، وأنه كان مصدرًا للعديد من الأعمال الفنية الرائعة، واستقى منه أدباء كبار روائعهم". من الجائز أن يذهبوا للمحكمة مرة ثالثة، ومن الجائز أن ينتزعوا حكمًا لصالحهم؛ ولكن ما يجب أن ندركه أن حرق ألف نسخة أو عشرة آلاف نسخة من (ألف ليلة وليلة) لن يمسحها من على وجه البسيطة، فشهرزاد لن تسكت عن الكلام المباح!

مصر العروبة... عراق العجم!

كتب الشاعر العراقي سعدي يوسف قصيدةً في نوفمبر 2014 بعنوان (مصر العروبة... عراق العجم!)؛ قصيدة قابلها كثير من شعراء العراق وأدبائه بوابل من السهام، وصلت إلى تحريض بعضهم على حرق مصنفات سعدي يوسف في شارع المتنبي الحافل دومًا بالكتب والكُتّاب ومحبي القراءة! القصيدة تبكي عروبة العراق وتاريخه الذي توارى وراء عباءة (الولي الفقيه) الفارسي الأعجمي!

يقول الشاعر قاسم الربيعي: "... فمن يحاول أن يعبث بتاريخنا نحن أهل الجنوب نحرق تاريخه... الدعوة لحرق كتب سعدي لم تتحملها جهة معينة، وليس وراءها أي أحد سوى الذين استجابوا لدعوتي وإن كانوا قلة،

لكننا طالبنا بالحضور الساعة التاسعة قرب تمثال المتنبي وكل واحد يحمل ديوانًا ليحرقه احتجاجًا على إساءات سعدي للعراق وللجنوب بالتحديد، وهي فكرة أتمنى أن ترى التشجيع". وقال الشاعر مهدي القريشي: "... يحز في نفسي أن أرى كتب سعدي يوسف تلتهمها النيران، وجل ما أخشاه أن تكون هذه النيران محقونة بمصل الطائفية فنقابل الظلم بالظلم، والعداوة بالعداوة، والطائفية بالطائفية. قلبي سوف يحترق مضطرًا حينما أشاهد الأخضر بن يوسف (قصائد لسعدي يوسف) تلتهمه النيران ولا تستطيع الليالي كلها أن تطفئ هذه النيران".

وإليك بعضًا من أبيات تلك القصيدة:

هل العراق عربيٌّ؟

يرِدُ تعبير "شيخ العراقَين" عن فقهاء أجمعَ الناسُ عليهم.

يعنون: عراق العرب

وعراق العجم.

*

الدولة الحديثة، بتأسيسِها الأوربي، الاستعماري، ليست دولة الفقيه.

هي دولةٌ لإدارة كيانٍ جغرافيّ (قد يكون متعددَ الإثنيّات، وقد لا يكون).

لكن العراق ليس مستحدَثًا.

اسمُ العراق آتٍ من أوروك!

إذًا...

ما معنى السؤال الآن عن أحقيّة العراقِ في دولةٍ جامعةٍ؟

ما معنى أن يتولّى التحكُّمَ في البلدِ، أكرادٌ وفُرْسٌ؟

ما معنى أن تُنْفى الأغلبية العربية عن الفاعلية في أرضها التاريخية؟

ما معنى أن تُستقدَم جيوشٌ من أقاصي الكوكبِ لتقتلَ عربًا عراقيّين؟

ما معنى أن تكون اللغة العربية ممنوعةً في إمارة قردستان عيراق البارزانية بأربيل؟

*

إذًا:

نحن في عراق العجم!

*

سأسكن في مصر العربية!

الإمامان المبتدعان!

الأول هو: الإمام المحدث الفقيه أبو زكريا محي الدين النووي (ت 676 هـ)، شيخ الشافعية، وصاحب التصانيف المشهورة من أمثال: (الأربعون النووية)، (رياض الصالحين)، (منهاج الطالبين وعمدة المفتين)؛ والثاني: هو: الإمام الحافظ وأمير المؤمنين في الحديث شهاب الدين ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ)، من أعلام الشافعية، وصاحب المؤلفات العوالي ذوات الرتب السوامق مثل: (فتح الباري)، (الإصابة في تمييز الصحابة)، (إنباء الغمر بأنباء العمر)، وغيرها كثير. هذان الإمامان الحافظان الجهبذان

وُجد في زماننا هذا من يتهمهما في دينهما، ويبدّعهما في عقيدتهما، ويدعو إلى حرق كتبهما! وخرج قوم ممن يبغضون علماء المملكة العربية السعودية، وممن ينعتونهم بالوهابية، إلى اتهام الشيخين عبد العزيز بن باز ومحمد بن عثيمين - رحمهما الله رحمة واسعة - بتبديع الإمامين النووي وابن حجر وتضليلهما، وهذه كذبة صلعاء!

ودونك ما جاء في موقع "الإسلام سؤال وجواب" على الشبكة العنكبوتية، سأنقله لك مختصرًا بسبب طوله، ومن أراد قراءته كاملاً فليذهب للموقع الظاهر رابطه في الحواشي:

السؤال: قال واحد من العلماء المسلمين في المدينة التي أسكن بها: إن الإمام ابن حجر والإمام النووي مبتدعان، وساق بعض الأدلة من (فتح الباري) لتبرير رأيه، وأعطى مثالاً على ذلك بشرح الإمام ابن حجر للمقصود بوجه الله أنه رحمته، ما رأيكم؟

الجواب: أهل السنَّة والجماعة منصفون في الحكم على الآخرين، لا يرفعون الناس فوق ما يستحقون، ولا ينقصون قدرهم، ومن الإنصاف بيان خطأ المخطئ من أهل العلم والفضل، والتأول له، والترحم عليه، كما أن من الإنصاف التحذير من خطئه؛ لئلا يغتر أحد بمكانته فيقلده فيما أخطأ فيه، وأهل السنَّة لا يتوانون عن الحكم على المخالف المتعمد للسنَّة بأنه مبتدع ضال. وقد وُجد في زماننا هذا من نال من الإمامين ابن حجر والنووي، فحكم عليهما بأنهم مبتدعة ضالون!، وبلغت السفاهة ببعضهم أن قال بوجوب إحراق كتابيهما (فتح الباري) و(شرح مسلم)!

سئل علماء اللجنة الدائمة للإفتاء: ما هو موقفنا من العلماء الذين أوَّلوا في الصفات، مثل ابن حجر، والنووي، وابن الجوزي، وغيرهم، هل نعتبرهم من أئمة أهل السنَّة والجماعة أم ماذا؟ وهل نقول: إنهم أخطأوا في تأويلاتهم،

أم كانوا ضالين في ذلك؟

فأجابوا:

"موقفنا من أبي بكر الباقلاني، والبيهقي، وأبي الفرج بن الجوزي، وأبي زكريا النووي، وابن حجر، وأمثالهم ممن تأول بعض صفات الله تعالى، أو فوَّضوا في أصل معناها: أنهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمة بعلمهم، فرحمهم الله رحمة واسعة، وجزاهم عنا خير الجزاء، وأنهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه الصحابة رضي الله عنهم وأئمة السلف في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخير، وأنهم أخطأوا فيما تأولوه من نصوص الصفات وخالفوا فيه سلف الأمة وأئمة السنة رحمهم الله، سواء تأولوا الصفات الذاتية، وصفات الأفعال، أم بعض ذلك. وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم" انتهى.

الشيخ عبد العزيز بن باز. الشيخ عبد الرزاق عفيفي. الشيخ عبد الله بن قعود

"فتاوى اللجنة الدائمة" (3/ 241)

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله:

بالنسبة للعلماء الذين وقعوا في بعض الأخطاء في العقيدة، كالأسماء والصفات، وغيرها، تمر علينا أسماؤهم في الجامعة حال الدراسة، فما حكم الترحُّم عليهم؟

الجواب: "... لكن هناك علماء مشهود لهم بالخير، لا ينتسبون إلى طائفة معينة من أهل البدع، لكن في كلامهم شيء من كلام أهل البدع؛ مثل ابن حجر العسقلاني، والنووي رحمهما الله، فإن بعض السفهاء من الناس قدحوا فيهما قدحًا تامًّا مطلقًا من كل وجه، حتى قيل لي: إن بعض الناس يقول:

يجب أن يُحرق (فتح الباري)؛ لأن ابن حجر أشعري، وهذا غير صحيح، فهذان الرجلان بالذات ما أعلم اليوم أن أحدًا قدَّم للإسلام في باب أحاديث الرسول مثلما قدَّماه، ويدلك على أن الله سبحانه وتعالى بحوله وقوته - ولا أَتَأَلَّى على الله - قد قبلها: ما كان لمؤلفاتهما من القبول لدى الناس، لدى طلبة العلم، بل حتى عند العامة، فالآن كتاب (رياض الصالحين) يُقرأ في كل مجلس، ويُقرأ في كل مسجد، وينتفع الناس به انتفاعًا عظيمًا، وأتمنى أن يجعل الله لي كتابًا مثل هذا الكتاب، كلٌّ ينتفع به في بيته، وفي مسجده، فكيف يقال عن هذين: إنهما مبتدعان ضالان، لا يجوز الترحُّم عليهما، ولا يجوز القراءة في كتبهما!، ويجب إحراق (فتح الباري)، و(شرح صحيح مسلم)؟! سبحان الله! فإني أقول لهؤلاء بلسان الحال، وبلسان المقال:

أقِلوا عليهم لا أبا لأبيكم مِن اللومِ   أو سدوا المكان الذي سدوا

من كان يستطيع أن يقدم للإسلام والمسلمين مثلما قدَّم هذان الرجلان، إلا أن يشاء الله، فأنا أقول: غفر الله للنووي، ولابن حجر العسقلاني، ولمن كان على شاكلتهما ممن نفع الله بهم الإسلام والمسلمين، وأمِّنوا على ذلك" انتهى.

محامي الشيطان

تغريد خارج السرب

في زمن ما يسمى بـ "الصحوة"، والأصح أن يقال عنه زمن "الغفوة"، امتدت يد التشدد لتحرق كتاب (سقوط الدولة العباسية) لصاحبه الدكتور سعد بن حذيفة الغامدي. فما قصة الكتاب؟ ومن هو سعد الغامدي هذا؟ الدكتور سعد هو أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الملك سعود سابقًا، وهو مشهود له بسعة الاطلاع، وغزارة البحث، وجرأة الكلمة، وتفرد الرأي. ولا يكاد يُذكر اسم ابن حذيفة إلا وتُذكر معه صولاته وجولاته في الذّب عن ابن العلقمي - آخر وزراء بني العباس - وتصديه للسهام المسددة له من قبل المؤرخين الغابرين والمعاصرين، وهو ما أوقع الدكتور سعد نفسه في صدام مع المتعصبين من أهل السنة لدرجة الطعن فيه والتشكيك في ولائه المذهبي!

وعندما كانت مجلة اليمامة السعودية تستكتبني، في الفترة الممتدة من سنة 2014 إلى سنة 2016، سألني رئيس تحريرها أن أطعم المجلة بحوارات مع كوكبة من نجوم الفكر والأدب، فقبلت دون تردد، وكان اسم الدكتور سعد في طليعة الأسماء التي حرصت شخصيًا على السلام عليها واللقاء بها، وهو ما تحقق لي بفضل ربي وحسن حظي.

ولما جلست إليه وجدته كما تمنيته غاية في العلم، والتواضع، ولين الجانب، وسعة البال. سألته يومها عن أشياء كثيرة: عن دفاعه المستميت عن ابن العلقمي، وعن رفضه لما يشاع عن حرق المغول لمكتبات بغداد وتغريقهم للكتب في مياه دجلة، وعن نفيه لما يقال عن وقوع مجازر جماعية في بغداد

على يد أتباع هولاكو، وعن ادعاءاته بأن جنكيز خان ونسله كانوا شغوفين بالعلوم والفنون والأدب، فما ترك لي سؤالاً إلا وأشبعه جوابًا.

قصة الكتاب

ثم سألته عن كتابه المشهور (سقوط الدولة العباسية)، وما أثير حوله من لغط وجدل، لدرجة سحبه من الأسواق وحرقه، بناء على طلب مفتي البلاد السعودية آنذاك الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - لأمور نقمها عليه خصومه. فأجاب الدكتور سعد عن سؤالي بجواب طويل، سأنقله لكم مختصرًا قدر المستطاع.

قال: " جاء في الخطاب المذكور أنني أمجد الشيعة؛ وذاك والله كذب علي وافتراء نزق؛ لم أقل به، وأخاصم من يقول بذلك عند من لا يطالبني ببينة ولا بشهود، لأنني لا أمجد أحدًا، لا سنيًا ولا شيعيًا، فلا ولن أسمح لنفسي بسب أحدٍ ما حييت. فلست برب أحد ولا مالكه؛ فلكلٍ دينه ومذهبه وسبيله الذي يجب أن ينتهجه. كما ورد في الخطاب المذكور أنني أشكر من قام بمساعدتي من الإخوان المسلمين في إيران، من مسؤولي جامعاتها ومكتباتها عامة و"جامعة الثورة العسكرية/ دانشكاه سباهيان انقلاب " وطهران خاصة. وهنا يجب أن أذكر بعض الحقائق التي لا يعلمها من كتب ذلك الخطاب. أقول بأنه جاهل جهلاً مركبًا، وقد أصيب بعمى المذهبية المقيتة والحقد الدفين على من خالفه فيما تمذهب به من عند نفسه، ونسبه إلى مذهب هو مما يعتقد براء، فضيقه على نفسه وبنفسه؛ فلا ينظر إلا من خلاله، والضغينة الإقليمية النتنة رانت على قلبه وطغت على وجدانه وتخلخلت خلايا بدنه. كيف وقد أنكر علي قولي بأن: "جنكيز خان عظيم". ألم يصف الله السحر بـ "عظيم" في قوله: "وجاءوا بسحر عظيم"؟!، ووصف كيد النساء بالعظيم في قوله: "إن كيدكن عظيم"؟!، ناهيك عن تحريف كلامي والتقول علي بما لم أقله، بل

وتعمد بتر النصوص لتتلاءم مع ما يريده من كتبه وعرضه على الشيخ لينال عنده حظوة وزلفى. وإنني هنا أبريء الشيخ ابن باز، فأجده قد غُرّرَ به، وقد اتضح ذلك لي بعد مقابلتي له، وقد أعيد فسح الكتاب...".

ولما سألت الدكتور سعد عن صحة ما قيل عن حرقهم للكتاب، أجابني فقال: "أما مسألة حرق الكتاب، فقد أخبرت بأن مجموعة ينتسبون لهيئة...ما (لم يسمها لي، ربما كان يعني: هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) جمعت نسخًا منه واحتفلت بحرقها في مقرها الرئيس. لقد كان الكتاب مقررًا في خمس جامعات من سبع، خلا البترول والمدينة. شعرت وكأنني أعيش في عصور أوروبا المظلمة، وبما كانت تفعله الكنيسة ورجالها بالتنويريين، الذين أوصلوا بلدانهم إلى ما هم عليه الآن؟ واحسرتاه؟؟!! حسرة أصبحت ملازمة لي ومسيطرة على نفسيتي وتسببت لي بغصص أتجرعها كلما هممت بالكتابة. فوالله لا أكتب إلا تاريخًا، وللتاريخ، ولا لشيء غيره، ولا أبتغي به إلا وجهه جل في علاه".

بقي أن أقول لكم أن اللقاء، الذي أخذ مني ومن ضيفي، وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا لم يبصر النور حتى ساعة كتابة هذه السطور، بحجة أن الخوض في تلك المسائل سيفتح على المجتمع أبواب الشر وكأني بتلك الأبواب لم تكن في يوم مفتوحة!

العبيد يحرقون كتب مالك

بعد خروج الناس من صلاة الجمعة، في السابع والعشرين من شهر أبريل 2012، وعلى مشهد ومسمع من الخلائق، قام بيرام ولد الداه ولد عبيدي ورجال يتبعونه بحرق أمهات كتب المالكية في موريتانيا. وبيرام هذا هو رئيس منظمة حقوقية غير رسمية في موريتانيا؛ وهي منظمة تحمل على عاتقها محاربة العبودية التي ما زالت قائمة وصامدة رغم إلغائها سنة 1981 وتجريمها سنة 2007.

وعلى خلاف ما كان يجري في أزمان شتى، وفي أماكن شتى، فقد سرت هذه النار في كل البلاد حتى كادت أن تحرقها. إن حرق كتب المالكية في بلاد يعتنق أهلها فقه مالك منذ أن وطأ الإسلام أرضهم أمر لا يمكن الصبر عليه ولا السكوت عنه. ويتهم بيرام وجماعته كتب المالكية، وعلى رأسها كتب إسحاق بن خليل الجندي (ت 767 هـ)، بالدفاع عن الرق وعن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان. ولا نعلم إن كان بيرام هذا فعل ما فعل لضيقه بكتب المالكية التي تبرّر العبودية وتشرّعها أم ليحرك الموريتانيين والعالم من ورائهم لحرق ما بقي من جذور العبودية التي ما زالت تتمدد في عرض البلاد وطولها!

وكما كان متوقعًا، أو كما كان مخططًا، فقد خرج موريتانيون في مظاهرات عدة يندِدون بحرق كتب أئمتهم ويطالبون بقطع اليد التي أهانت ودنّست مقدساتهم. ووجد الحزب الحاكم، المُحاصر من قبل أحزاب المعارضة، في تلك الحادثة طوق نجاة حتى يُظهر للناس مقدار قوته ومدى حرصه على ما هو مقدس. وأما المعارضة فقد وجدت في تلك الحادثة فرصة لتجديد

اتهامها للسلطة بالعجز وافتعاله لمثل تلك الحرائق ليشغل الناس بقضايا فرعية ويصرفهم عن نضالهم لإسقاط النظام الحاكم!

لا أعرف لمَ يخيل إلي أن هذا الحريق كان "بردًا وسلامًا" على الجميع خلا المؤمنين المدافعين عن الإمام مالك وأعمدة مذهبه. فبيرام وجماعته وجدوا في دخان تلك الكتب فرصة لكي يراهم المجتمع الموريتاني والمجتمع العالمي ويستمع لمطالبهم، والحزب الحاكم وجد فيه فرصة للإفلات من يد المعارضة التي تزداد ضغطًا على رقبته، وأحزاب المعارضة وجدت فيه فرصة لكشف عورة النظام وضعفه!

ما حصل بعد ذلك أن السلطة أخذت بيرام وحفنة من رجاله فحبستهم على فعلتهم تلك. وفي اليوم التالي انتفضت حكومات عالمية وانتفضت منظمات دولية من أجل الدفاع عن بيرام والمطالبة بالإفراج عنه، مهددة الحكومة الموريتانية بقطع المعونات عنها إن لم تستجب. وبالفعل، فقد أطلق سراحه لينال في العام التالي جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان!

ومثلما حرّكت واقعة حرق كتب المالكية المياه في مجاري السياسة والحقوق فقد حرّكت مثلها في مجاري الدين. فقد كتب محمد المختار الشنقيطي، وهو باحث تاريخي وشاعر وسياسي متأخون، وهو صاحب كتاب (الخلافات السياسية بين الصحابة)، مقالة طويلة من ثلاثة أجزاء، ميّز فيها بين الرق في الدين والتدين، والشريعة والفقه، والوحي والتاريخ. ومثل ما استهجن في بدايتها اللجوء إلى الصراخ والنار بدلاً من النقاش والحوار، فقد استهجن الشنقيطي بعض المصنفات الفقهية التي خلطت بين فهمها للوحي مع موروثاتها الثقافية وواقع مجتمعاتها القهرية. وبما أن المقام لا يسع للكلام عن مقال كهذا، فأنصحك - إن كان يستهويك الوقوف على موضوع الرق في الإسلام - أن تذهب إلى الرابط الظاهر أدناه ففيه ما يستحق عناء القراءة.

أحزان سليمان

رائحة التاريخ

قليل منا من سمع عن بير خدر سليمان، ذلك الكهل الإيزيدي، الذي أحرق في دقيقة واحدة كل ما جمعه، وكل ما كتبه من كتب وبحوث ومقالات، طيلة أربعين سنة! كيف لإنسان كان يتجول لعقود بين رفوف مكتبته، ويعيش بين دفوف كتبه، ويستنشق رحيق الكلمات، أن ينهي كل هذا بعود كبريت؟! أي مصيبة تلك التي دفعت ببير خدر سليمان لكي يحرق جنته التي كان يتقلب فيها سنينًا بين بساتين المعرفة وأنهار الكلمات؟!

بير خدر سليمان ينتمي إلى طائفة تدعى بالإيزيدية، وهي طائفة دينية غائرة في التاريخ، وهي تتخذ من وادي لاش بشيخان وجبل سنجار من الموصل شمال العراق موئلاً لها. والإيزيدية، تلك الديانة التي تضرب بأطنابها في أزمنة الديانات الوثنية، تعرضت منذ قرون عدة إلى حملات إبادة، وموجات تهجير، وأصوات تشكيك. وبالرغم من تعاقب الأزمان، وتقلب الأحوال، وتوالي الضربات، إلا أن الإيزيدية ما زالت محتفظة بكيانها ومتمسكة بطقوسها. ولقد شاع بين المسلمين - عامتهم وخاصتهم - أن أتباع الإيزيدية يعبدون الشيطان، وقال البعض إنهم يقدسون الخليفة يزيد بن معاوية (ت 64 هـ)، وهذا كله ادعاء باطل وظالم. ولعل انغلاق الإيزيديين على أنفسهم، والغموض الذي يلف ديانتهم، فضلاً عن تعصب وجهالة بعض مخالفيهم، كلها كانت أسبابًا وراء رواج مثل تلك التصورات المغلوطة عنهم.

داعش في الموصل

والآن، وبعد أن ذكرنا في عجالة شيئًا عن الإيزيدية، فلنرجع إلى صاحبنا سليمان الذي حوّل مكتبته العامرة بضروب الأدب وصنوف الفن في لحظة إلى كومة من رماد. في سنة 2014 م دخل الدواعش - لعنهم الله - ديار الإيزيدية الآمنة الوادعة، فأخذوا يقتلون ويحرقون ويسبون ويسلبون. خرجت آلاف مؤلفة من وطنهم فرارًا بحياتهم، وخرجت بعدهم داعش وهي تقود ورائها مئات من السبايا الإيزيديات لتبيعهن في سوق المتعة كما لو كنّ قطيعًا من الأغنام.

لقد أكل الحزن من حشاشة قلب سليمان، وهو يرى وطنه يُستباح دون رحمة، والعالم بأسره يتفرج في صمت معيب ومريب على ما يجري في بلاده من فضائع وفضائح دون أن يحرك ساكنًا. أحسّ سليمان بأن الكلمة باتت أعجز من أن تقف في وجه السكين، وأن العقل والسلام والحب لا قيمة لها في زمن الجنون والحرب والكره. صنع من كتبه التي لطالما جلس تحت ظلالها تلة صغيرة، ثم أشعل فيها النار، لعل دخان الكلمات يصل إلى العالم ما دام أن الكلمات لا تفعل!

سليمان يتكلم

سألوه: لماذا فعلت هذا بكتبك؟ فأجابهم قائلاً: "إن ما حل بالعراق بشكل عام ومنطقتنا والإيزيديين بشكل خاص من ويلات وقتل وسلب ونهب وسبي لنسائنا على أيدي عصابات داعش تقشعر له الأبدان... حاولت التعبير عن تلك المآسي بقلمي فعجز القلم، وحاولت أن أسلي نفسي بقراءة هذه الكتب فلم أستطع". ويضيف سليمان: "حاولت أن أحتج بطريقتي، فأقدمت على حرق مكتبتي والتي كانت عامرة بالكتب المتنوعة، ومن ضمنها تسعة كتب من مؤلفاتي، إضافة إلى العديد من البحوث والمقالات التي

نشرتها في المجلات والصحف الكردية والعربية". ثم ينهي سليمان حديثه بالقول: "إنني عندما أضرمت النيران في مكتبتي شعرت كأنما أحرق نفسي، لكني حاولت من خلال حرق الكتب أن أبعث برسالة على طريقتي رغم أنها طريقة قاسية".

نعم يا سليمان! لقد كانت طريقة قاسية عليك مثلما هي قاسية على كل من تعلقت نفسه بالكتب وحلّق في عوالمها السحرية!

ابن تيمية يموت مرتين

ابن تيمية يقتل الكساسبة

بعد إقدام جماعة داعش الإرهابية على إعدام الطيار الأردني الشهيد معاذ الكساسبة في الثالث من شهر فبراير من عام 2015 حرقًا بالنار قامت جماعة أردنية غاضبة بحرق كتب شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ). ولسائل أن يسأل فيقول: ما وجه الصلة بين حرق الكساسبة وحرق كتب ابن تيمية؟ وهل كان ابن تيمية هو أس البلاء وعرّاب الإرهاب لجماعات التكفير والتفجير من داعش وأخواتها؟ والجواب عن هذا السؤال أن التنظيم الشيطاني كان قد تلا لحظة قيامه بحرق الكساسبة فتوى لابن تيمية، تنص على: "فأما إذا كان في التمثيل الشائع دعاء لهم إلى الإيمان أو زجر لهم عن العدوان، فإنه هنا من إقامة الحدود والجهاد المشروع"!

بصراحة تامة، نحن هنا أمام ضحيتان: الأولى، وهو معاذ الكساسبة الذي قُتل بوحشية على أيدي جماعة مجرمة تجردت من الدين والإنسانية والأخلاق، وأما الثانية فهو ابن تيمية نفسه الذي ظلمه جمهور غفير من المسلمين وغير المسلمين حيًا وميتًا. فوالله لو كان ابن تيمية حيًا لما رضي بقتل الكساسبة، ولوجدته يحذر الناس من الدواعش ويحرض على قتالهم وقتلهم. ولا أخفيكم سرًا أني كنت مثل كثير من الليبراليين والمتصوفة والشيعة وغيرهم الذين اختزلوا الغلو والتطرف في فتاوى ابن تيمية، وكأن الله لو لم يخلق ابن تيمية لعمّ السلام وحلّ الوئام وساد الحب!

الوجه الآخر لابن تيمية

غالبًا ما يُتهم ابن تيمية من قبل خصومه بأنه سبّاق إلى التكفير، ميّال إلى هدر الدماء، متحجر العقل، قاسي القلب، سليط اللسان. ولو سألتهم إن كانوا قد قرأوا شيئًا من مصّنفات ابن تيمية لأجابك معظمهم - وأنا كنت منهم - بأن هذا ما سبق لهم سماعه من شانئيه، وهذا برأيي خطأ جسيم وتسطيح معيب! إن إصدار أحكام على الآخرين من خلال ما يتداوله مناصروهم أو مناوئوهم لا شك أنه سيكون حكمًا يخلو من الموضوعية والحيادية. فإذا أردت أن تعرف شخصًا عن قرب، وتستمزج آراءه، وتحاكم أفكاره، فأذهب إلى ما كتبه مباشرة وبدون وسيط بينكما، وهذا ما عزمت على فعله مع ابن تيمية وغيره من أعلام الدين وأرباب الفكر.

عندما بدأت بتصفح بعض من الصفحات المطوية من حياة ابن تيمية وجدت أني أمام إحدى نفحات العبقرية التي لا يجود بها الزمان إلا نادرًا. يقول الشيخ محمد بهجة البيطار عن ابن تيمية: "ومن أعجب الأشياء أنه لما سُجن صنف كتبًا كثيرة، وذكر فيها الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وعزو كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه، وذكر أسماء الكتب التي ذكر ذلك فيها، وفي أي موضع هو فيها: كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن حينئذ كتاب يطالعه، ونقبت واختبرت فلم يوجد بحمد الله فيها خلل ولا تغيير". ولقد اشتهر الشيخ بين الناس بسعة علمه، وعمق تفكيره، وقوة لفظه، وحضور بديهته، فكان خصومه يتهيبون لقاءه، ومن لا يعرف الشيخ تمام المعرفة، ويغتر بما عنده من علم وحجة، فإن ابن تيمية سيلقمه الحجة تلو الحجة، ويجعله عبرة لمن اعتبر، ولهذا فلا عجب إن حسدوه وكالوا له التهم وفجروا في خصومتهم له.

وأما ما يقال عن تعصبه وتشدده على مخالفيه، وخصوصًا من الشيعة والمتصوفة وأهل الكتاب، ففي هذا مبالغة وتهويل، وسنرى في بعض الأمثلة

أدناه أدلة على وسطية ابن تيمية واعتداله.

فبالنسبة إلى الشيعة، فابن تيمية كان دائمًا ما يسند كلامه إلى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة حتى يفوت الفرصة على دعاة التعصب للمغالاة والخوض في الحديث دون وجه حق. فمن مآخذ ابن تيمية على الشيعة سبهم للصحابة رضوان الله عليهم، فتجده يذكرهم بالأحاديث الصحاح التي رويت عن رسول الله بحق أصحابه، وتجده يذكرهم كذلك بنبل وشهامة الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في حربي الجمل وصفين تجاه أصحاب رسول الله الذين خرجوا عليه ورفعوا السيف في وجهه. ومن مثالب الشيعة التي أخذها عليهم ابن تيمية أيضًا اتخاذهم المآتم في أوقات المصائب، مبينًا بالدليل من القرآن الكريم والسنة النبوية أنها ليست من الإسلام في شيء، ولم يفعلها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا صحابته الكرام، ولا تابعيهم، ولا حتى أهل البيت أنفسهم، فهذا هم قد شهدوا مقتل علي بن أبي طالب، ومن بعده مقتل ابنه الحسين، فلا أحدثوا مأتمًا ولا لطموا الخدود ولا شقوا الجيوب ولا نثروا الشعور. والكلام في هذا يطول، ولك أن ترجع إن شئت إلى رسائله وفتاواه، فالرجل لم يهاجمهم ويحرّض عليهم، بل كان فقط يحاجهم بكتاب الله وسنة نبيه.

وأما ما يختص بموقفه من المتصوفة، فابن تيمية كان لاذعًا وصارمًا مع أولئك المتصوفة الذين مالوا إلى التواكل والتبطل والدروشة في وقت عصيب كانت الأمة الإسلامية بأمس الحاجة إلى شحذ الهمم ورص الصفوف من أجل التصدي للعواصف التي كانت تزعزع أركان ديار الإسلام وتهدد وجودهم. ومن يتعمق في مؤلفات ابن تيمية سيجد أنه نفسه كان ميالاً إلى الزّهاد الأوائل، ويمتدح شيوخهم، ويثني على رجال منهم لم يفرطوا بكتاب الله وسنة نبيه.

وأما بالنسبة إلى أهل الذمة من اليهود والنصارى، فكفاك أن تعرف أن ابن تيمية حين دخل على غازان خان ملك التتار، الذي ألحق بالمسلمين هزيمة قبيحة وقتلهم قتلاً ذريعًا في موقعة وادي الخازندار سنة 699 هـ، سأله الأمان لأهل دمشق كافة من مسلمين ويهود ونصارى، فكان له ما أراد. ولما همّ غازان خان بإطلاق سراح مَن عنده من أسرى المسلمين امتنع ابن تيمية وأصرّ على ألا يخرج من عنده قبل أن يفتك أسر الآخرين من اليهود والنصارى، قائلاً له: "بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا لا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"، فما كان من خان التتار إلا أن أطلق سراحهم.

وعلى ما أظن يا سادة يا كرام فإني أشعر وكأني قد أبحرت بعيدًا وأسهبت طويلاً في الكلام عن ابن تيمية! وحقيقة الأمر فإن الحديث عن شيخ الإسلام ذو شجون، والكلام عنه لا بد وأن يطول، ولكن لنتذكر أننا هنا للكلام عن حرق كتبه لا عن شخصه رحمه الله عليه.

إن تحرقوا كتبنا نحرق كتبكم

ثورة على الثورة

أسقط المصريون جماعة الإخوان من سدة الحكم بعد عام واحد من حكمها للبلاد والعباد. قام المصريون على الرئيس محمد مرسي وشيعته بعد فشلهم الذريع في إعادة الأمن والأمان، وتحسين الحال والمعاش، وبسط العدل والمساواة. فالإخوان ما إن تربعوا على عرش مصر في فلتة من فلتات التاريخ حتى استبدوا بالحكم، وانفردوا بالأمر والنهي، وكأنهم لم يتعلموا شيئًا من دروس الماضي القريب منه قبل البعيد. وبعد أن أدرك المصريون أنهم قد استبدلوا الشر بما هو أشرّ، والمر بما هو أمرّ، قاموا على الإخوان قومة رجل واحد، فتشعث أمرهم، وتفرق شملهم، وانتهى الحال ببعضهم في السجون، وبالبعض الآخر في المنافي، فسبحان مغير الأحوال ومن له الدوام!

امرأة تحرق كتب الإخوان

عام واحد من حكم الإخوان كان كافيًا للمصريين، أو لكثير منهم، لكي يبغضوا أحفاد حسن البنا ويبغضوا كل ما يمت لهم بصلة. وأحد الأشياء التي تذكر بالإخوان هي كتبهم، وهي أكثر من أن تعد. وكما قام بعض العوام بنهب مقر الإخوان بالمقطم وحرقه بعد أيام من زوال حكمهم فقد قامت امرأة - هذه المرة امرأة وليس رجلاً على جري العادة - تدعى بثينة كشك، مدير المديرية التعليمية بالجيزة، بحرق ما يقرب من ثمانين كتابًا من كتب الإخوان، وُجدت في مكتبة إحدى مدارس المنطقة، منها: (دور المرأة ومكانتها)، و(مفاهيم إسلامية)، و(عالم الجن والشياطين)، و(اللحية

لماذا)، و(أضواء على الغزو الثقافي)، وغيرها كثير من العناوين.

وما أن خمدت نار كتب الإخوان في فناء تلك المدرسة حتى أشعلت إدارة المدرسة نارًا من نوع آخر حين رفعت دعوى قضائية على بثينة كشك بدعوى أن الكتب التي قامت بحرقها لا تحوي في أحشائها شيئًا من وصفات التطرف وبذور العنف كما قيل. وقبل أن يقول القضاء كلمته قام وزير التربية والتعليم الهلالي الشربيني بإنهاء خدمات كشك في محافظة الجيزة، وإعادتها إلى عملها الأصلي بمديرية التربية والتعليم بالقاهرة، وهو الأمر الذي قابلته كشك بنقد حار وهجوم حاد. ففي مداخلة هاتفية في برنامج 90 دقيقة، الذي يقدمه الإعلامي معتز الدمرداش، عبر قناة المحور، قالت كشك بالحرف الواحد: "إن إقالتها تمت بطريقة مهينة ومذلة وستدافع عن سمعتها ضد بيان الوزارة"، وأردفت قائلة: "الوزير عاقبني بسبب حرقي لكتب الإخوان... شرف لي حرق كتب الإخوان، والقضايا التي أُحلتُ للتحقيق فيها ما زالت قيد التحقيق". ولما سُئلت كشك في لقاء صحافي عن سبب اختيارها لتلك المدرسة دون سواها، أجابت بالقول إنها ملك لقيادات إخوانية، وأن عصام العريان – أحد شياطين الإخوان وأعلامهم – قد تم القبض عليه مستترًا بها. ولما سألوها إن كنت تشعر بأنها أخطأت بحرقها الكتب، قالت: "لم أخطئ. ولو عاد بي الوقت لحرقتها عشرت المرات"!

الإعلامي محمود سعد، وفي برنامجه التلفزيوني آخر النهار، على قناة النهار قال ساخرًا من تصرف كشك باللهجة المصرية: "يخرب بيت التخلف اللي احنا فيه لما نحرق كتب في حوش المدرسه، ده يوسف شاهين (مخرج مصري ت 2008) عمل فيلم المصير مخصوص عن حرق الكتب ده... الكتاب يُرد عليه بكتاب، مش نحرقه زي العصور الوسطى، ده تخلف".

الحرق بالحرق

وعلى طريقة "العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم"، ردَّ أحد أنصار جماعة الإخوان، واسمه سلامة عبد الباقي، على واقعة حرق كتب الإخوان بأن حرق كتب اتهمها بمحاربة الله ورسوله والتشنيع بالإسلام والتطاول على مقدساته. أطلَّ علينا سلامة عبد الباقي، الذي وجد في تركيا هو وفلول الإخوان كهفًا يأوون إليه، عبر قناة "رابعة" عين الإخوان ولسانهم في بلاد المنفى. جاء سلامة بكتاب (مولانا) لإبراهيم عيسى، وبكتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وبكتب كثيرة لنوال السعداوي، ثم أخذ يكيل لها ولأصحابها التهم بالتعدي على الإسلام والسخرية من شريعته ومحاربة الحجاب، ثم قال وبالحرف: "اسمحولي أطرح فكرة ربما تكون غريبة على قناة وعليَّ كرجل أزهري مسلم، أريد أن أتحرر من كل القيود"، ثم خلع عمامته وأشعل النار في تلك الكتب!

حكايتان من جنين وكردستان

فقوعة

في أواخر سنة 2016، وبالقرب من مدينة جنين الفلسطينية، قام شاب فلسطيني يُسمى مفيد جلغوم ويسكن قرية صغيرة تُدعى "فقوعة" بحرق كتابه الذي يحمل اسم القرية. لقد أحرق جلغوم كتابه الذي لم يكد يبصر النور؛ الكتاب الذي أمضى في كتابته أربعة أعوام متواصلة من النبش في المصادر والمراجع. لم يكن هذا الشاب يتخيل وهو ينسج حروف كتابه أن وليده سيقلب القرية رأسًا على عقب، وسيفتح عليه أبواب جهنم، وسيجعل حياته على كف عفريت.

يقول جلغوم: "إن ردود أفعال بعض الناس تجاه الكتاب كانت صادمة، حيث وصل الأمر إلى إصدار بيان يتبرأ فيه أهالي القرية من الكتاب. إن معظم من اعترضوا لم يقرأوا الكتاب حتى الآن، بل اعتمدوا على الشائعات وتناقل الأحداث، لكن ما فعلته هو فقط من أجل الحفاظ على العلاقة الطيبة مع أهالي فقوعة". يتهم معظم أهل القرية صاحب الكتاب بالكذب وبالتحيز إلى إحدى الأسر ورفعها فوق أكتاف باقي الأسر الأخرى داخل فقوعة. ويقول آخرون إن جلغوم بكتابه قد فتح دفاتر ما كان يجب أن تفتح، ونكش جراحًا ما كان يجب أن تنكش، وحرّك مياه راكدة ما كان يجب أن تحرك. ولما أحسَّ جلغوم بأن كتابه الذي سقاه من وقته وجهده قد يحرقه قبل أن يحرق قريته الوادعة، قام بحرق نسخ كتابه جهارًا نهارًا، لعل تلك النار تطفئ غضب أهل قريته عليه وعلى كتابه!

وللكرد نصيب

بعد مرور ما يقرب من عامين على حرق بير خدر سليمان - ذلك الإيزيدي الذي حدثتكم عنه -لكتبه ومقالاته، سار رجل آخر في كردستان على خطى سليمان. ففي سبتمبر 2006 قام محسن شواني بجمع كل ما جادت به قريحته من قصائد شعرية، وكل ما خطته يده من مقالات وتقارير صحفية، وكل ما حصده وفاز به من شهادات تقديرية، ثم أضرم النار فيها حتى صارت رمادًا نفخته الريح في كل اتجاه.

عندما سألوه عن كتبه: بأي ذنب أُحرقت؟ أجابهم بأنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن لمس وأحس بأن الناس في بلاده لا تعير حملة الأقلام وأصحاب الأفكار أي اهتمام، ولا تعطيهم ما يستحقونه من التقدير والتكريم. ألا تذكرنا دوافعه تلك بالتي كانت عند صاحبنا أبي حيان التوحيدي حين أقدم على حرق كتبه قبل أكثر من ألف عام؟! وأضاف محسن: "إن الجهات المعنية لم تتخذ إجراءات بشأن حالات الانتهاك والتجاوز على الصحفيين". ألا يكفي محسن وأضرابه ما يلقونه من تهميش مجتمعاتهم لهم وانصرافها عنهم حتى تنهال عصا السلطة على ظهورهم فتدميها؟! حقًا، ما أسوأ أن يولد الإنسان وفي داخله شاعر وفي يده قلم في مكان مثل هذا وفي زمان مثل هذا!

الفصل الثاني

حرق المكتبات عند المسلمين

تحدثنا في الفصل الأول عن إتلاف الكتب عند المسلمين، في ماضيهم وحاضرهم، وعلى أيدي مؤلفيها أو مخالفيهم. وأما هذا الفصل فسوف نفرده للكلام عما حلَّ بالمكتبات في مشرق العالم الإسلامي ومغربه من خراب ودمار على مر العصور.

وكما يدرك القارئ الكريم، فقد أولى المسلمون الأوائل الكتب والمكتبات عناية فائقة؛ وهي عناية تنم عن مدى رقيهم وتطور الحياة العقلية عندهم. ومن يقرأ في كتب التاريخ سيذهله مقدار حرص كثير من الخلفاء والملوك والأمراء على بناء المكتبات الأنيقة، وتزويدها بمصنفات من كل علم وفن. لقد كانت المكتبات إحدى حلبات التنافس بين الخلفاء والملوك، وهو ما نراه في قيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ببناء مكتبة (دار العلم) على نحو يفوق (بيت الحكمة) مفخرة العباسيين في بغداد. ولا تعدم أن تجد حاكمًا محبًا للعلم مقربًا للعلماء، يبذل الأموال الطائلة في سبيل اقتناء كتب خُطّت في المشرق أو في المغرب، فتجده يبعث رسله إلى تلك الأمصار النائية ليحضروا إليه تلك الكتب مهما كانت المشقة وزادت الكلفة.

ولم تكن تلك المكتبات حكرًا على الحاكم وحاشيته وعلى أهل العلم فحسب، بل كانت أبوابها مشرعة لكافة الناس، وكان بعض العلماء وطلاب العلم يقصدونها من كل فج عميق. وكان رواد المكتبة يجدون فيها إلى جانب

الكتب المكدسة على رفوفها ما يحتاجون إليه من أوراق وأقلام. وعلاوة على الكتب، فقد كانت تلك المكتبات مكانًا تُلقى فيه الدروس والمحاضرات وتُعقد فيه المناظرات بين أصحاب الملل والنحل.

ومما يدعو للحزن والأسى، أن تلك المكتبات الجميلة لم يُكتب لها البقاء والخلود، وصار كثير منها تلاً من رماد. أما السبب وراء ذلك فهو أن حياة المكتبات قد ارتبطت ارتباطًا شديدًا بحياة الدول وملوكها، فإذا ما ذهبت الدول ذهبت مكتباتها. ومن يتتبع نهايات تلك المكتبات الحزينة يجد أن النكبات لا تحل بها إلا في حالتين: إما أن يدخل الغزاة البلاد فاتحين منتصرين فلا يمرون بشيء إلا وخربوه وسلبوه وأحرقوه، مثلما فعل المغول حين دخلوا بغداد؛ وإما أن تشتعل نار الفتنة بين أهل البلد الواحد فتمتد نارها إلى المكتبة، مثلما فعله العسكر التركي في مصر أيام الشدة العظمى.

وإذا كنت تحسب أن حرق المكتبات ونهبها هو من أفعال الناس في الماضي الغابر فأنت مخطئ؛ فإتلاف المكتبات وتخريبها لا صلة له بزمان أو بمكان. وفي رأيي، أن المكتبات عاشت في وقتنا الحاضر أحوالاً أشد حلكة وأكثر سوءًا مما عاشته فيما مضى من قرون، وهو ما سنراه فيما يأتي من صفحات.

العراق الصغير

قامت فوق تراب المغرب الأوسط، أو ما تُسمى بالجزائر بلغة اليوم، دولة عُرفت باسم الدولة الرستمية، نسبة إلى واضع قواعدها وباني نهضتها عبد الرحمن بن رستم، وهو فارسي الأصل. وبنو رستم هم من فرق الإباضية، والإباضية هم من فرق الخوارج، وأولئك أقرب فرق الخوارج إلى أهل السنّة وأكثرهم اعتدالاً، وما زال للإباضية وجود إلى يومنا هذا في بلاد عمان وأجزاء من شمال إفريقية.

وُلد عبد الرحمن في العراق في العقد الأول من القرن الهجري الأول، وحمله أبوه وأمه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فمات الأب، ومن ثم تزوجت الأم برجل من أهل المغرب، فحملها هي وولدها إلى القيروان حيث نشأ وترعرع. وصادف الصغير هناك انتشار الدعوة الإباضية فتعلقت بها نفسه، ثم ارتحل إلى البصرة لطلب العلم، وعاد بعدها إلى المغرب لينضوي تحت راية أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الإباضي في ثورته على بني العباس. ولما قُتل أبو الخطاب سنة 144 هـ التجأ عبد الرحمن إلى جبال المغرب الأوسط وتحصن بها مدة إلى أن خف الطلب عليه.

ولما كثر جمعه وقوي أمره اتخذ من تاهرت قاعدة لحكمه وعاصمة لملكه سنة 160 هـ وسمّاها الدولة الرستمية، نسبة إلى والده رستم. وازدهرت تاهرت في عهد عبد الرحمن، ومن جاء بعده، وأطبقت شهرتها الآفاق، وشُدت إليها الرحال، وصارت ملتقى للتجار والعلماء والطلبة من كل

الأصقاع؛ فاستحقت بذلك أن تُلقب بـ "العراق الصغير" تشبيهًا لها بالعراق التي كانت تمور بناس من مختلف الأجناس آنذاك. كتب المقدسي في (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) واصفًا تاهرت: "هي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار، والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق وأخطأوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو بلد كبير، كثير الخير رحب، رفق طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف...".

دامت الدولة الرستمية ما يقرب من مائة وأربعين سنة، وتعاقب على ملكها أئمة وُصفوا في العموم بالعدالة، والصلاح والتقوى، وعاش في ظلالها أهل المذاهب متنعمين بحريتهم، راضين بحياتهم، مطمئنين على أعراضهم. ومع كل هذا فإن دولة بني رستم لم تسلم، مثل غيرها من الدول والممالك، من وقوع الفتن ونشوب الحروب. وكان آخر ما وقع فيها من فتن يوم وثب ولدا يقظان بن محمد على عمهما يوسف بن محمد فقتلاه ونصّبا والدهما يقظان مكانه، فاستبشع الناس هذا الفعل، وأعرضوا عنهم، وانفضوا من حولهم، ولم يكد يمر على تلك الحادثة سوى وقت وجيز، حتى قدم عليهم أبو عبد الله الشيعي، داعي الإمام العبيدي الفاطمي وقائد جيوشه، فقتل الوالد والولدين، وبقية الأسرة الرستمية، وطوى بساط دولتهم، فصارت أثرًا بعد عين.

المكتبة المعصومة

شهدت الدولة الرستمية نهضة فكرية عظيمة، وذلك بفضل رعاية حكامها للعلوم وحرصهم على إشاعة أجواء من التسامح لا يوجد فيها تعصب لرأي ولا اضطهاد لرأي آخر، ولهذا صارت تاهرت محجًا للعلماء

وطلاب العلم يأتونها من كل مكان. ومن الأمور اللافتة في دولتهم اهتمامهم بعقد المناظرات وجلسات الجدل الطويلة بين علماء الإباضية وغيرهم من أبناء المذاهب الأخرى، وكان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثاني أئمتهم، يحضر تلك المناظرات مناظرًا لا متفرجًا.

ودارت عجلة التأليف بسرعة في شتى ميادين العلم، وانتشرت المدارس والمكتبات وحلق العلم، وزادت حركة نسخ الكتب ونقلها من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، فاطلع علماء المغرب على آخر ما صنّفه علماء المشرق، وأصبح يصلهم آخر ما يُكتب من مؤلفات عن طريق قوافل التجار ومواكب الحجاج والمعتمرين. ويُحكى أن الإمام عبد الوهاب المذكور أرسل ألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها الكتب، فلما وصلهم الألف اشتروا بها ورقًا، فنسخوا له فيها وقر أربعين جملاً كتبًا، فلما بلغته تشمر وجدَّ لقرأتها... وقال عبد الوهاب عن هذه الكتب إنه قرأها فوجد ما فيها محفوظًا في ذهنه عدا مسألتين لو سُئل فيهما لأجاب عنهما قياسًا لما في هذه الكتب.

ومن مآثرهم العلمية بنائهم لمكتبة عظيمة الشأن عُرفت بـ "المعصومة"، قد حوت ما يقرب من ثلاثمائة ألف كتاب من صنوف العلم وضروب الأدب، ولم تكن المكتبة لتقتصر على كتب المذهب الإباضي وحده، بل إنها اتسعت لتواليف أصحاب المذاهب الأخرى. ولما كانت سنة 296 هـ زحف أبو عبد الله الشيعي بجيشه، فعاث في البلاد فسادًا، وقتل ونهب وسلب وأحرق، ودخل المعصومة فأخذ ما فيها من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والصناعة، وأحرق ما عدا ذلك، فقضى في لحظات قليلة على ما زرعه علماء المسلمين وفقهائهم في عقود طويلة! ووجدوا مكتبة أخرى في جبل نفوسة، اشتهرت بـ "خزانة نفوسة"، وكانت تحوي الآلاف من المجلدات، فألحقوها بأختها، فحسبنا الله ونعم الوكيل!

مكتبة سابور

الوزير المثقف

تُنسب هذه المكتبة إلى وزير بني بويه سابور بن أردشير. وسابور معدود في كبار الوزراء، وجمعت فيه الكفاية والدراية، وكان بابه محط الشعراء. وُلد سابور في شيراز سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وتوفي سنة ست عشرة وأربعمائة، وكان كاتبًا سديدًا استنابه أبو منصور محمد بن الحسن بن صالحان وزير الملك شرف الدولة بن عضد الدولة، وتقلّد سابور الوزارة غير مرة، وعُزل عنها غير مرة، وقُبض عليه وأخرج من حبسه غير مرة. قال عنه صاحب (سير أعلام النبلاء): "سابور بن أردشير الوزير الأوحد البليغ، بهاء الدولة، أبو نصر، وزر لبهاء الدولة بن عضد الدولة. وكان شهمًا مهيبًا كافيًا، جوادًا ممدحًا، وله ببغداد دار علم...". وأثني عليه ابن كثير في (البداية والنهاية) فقال عنه: "كان كاتبًا سديدًا عفيفًا عن الأموال، كثير الخير، سليم الباطن، وكان إذا سمع المؤذن لا يشغله شيء عن الصلاة... وكان جيد المعاشرة إلا أنه كان يعزل عماله سريعًا". ووصفه الصفدي في (الوافي بالوفيات) بأنه: "قليل الألفاظ، جافي الأقوال، دقيق الخط منتظمه، قصير التوقيع مختصره، كثير النشر، مخوف البطش، شديد التأوّل في المعاملات والميل إلى المصادرات". وكان أبو نصر بشر بن هارون النصراني كثير الهجر للوزراء والرؤساء، فممّا هجا به أبو نصر سابور:

سابور ويحك ما أخســ
ـك ما أخصك بالعيوب

وأكدَّ وجهك بالشنا
ءة للعيون وللقلوب
وجه قبيح في التبسم
كيف يحسن في القطوب

وكتب إليه أبو إسحاق الصابي يمدحه وقد أعيد إلى الوزارة:

قد كنت طلقت الوزارة بعدما
زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة
كيما يحل إلى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلفة
أن لا يبيت سواك وهو ضجيعها

فتنة السياسة وفتنة الدين

هذا ما يتصل بأبي نصر الوزير، وأما ما يتصل بمكتبته، فقال الصفدي عنها في (الوافي بالوفيات): "في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ابتاع أبو نصر سابور دارًا بين السورين وسمّاها (دار العلم) وحمل إليها من الدفاتر ما اشتمل على سائر العلوم والآداب... ولم يتعرض إليها أحد بعد تغيير أمره إلى أن ولي الوزارة بنو عبد الرحيم، فأخذوا من أحاسنها شيئًا كثيرًا، وذُكر أن فيها عشرة آلاف مجلدة من أصناف العلوم، وكان فيها مائة مصحف بخطوط بني مقلة. ولما وقع الحريق بالكرخ بعد هروب أهله في الجفلة مع البساسيري وقدوم طغرلبك إلى بغداد احترقت دار العلم هذه سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وجاء عميد الملك الكندري فأخذ خيار كتبها ونُهب البعض واحترق الباقي. وهذه الدار هي التي أشار إليها أبو العلاء المعري في قصيدته اللامية :

وغنّت لنا في دار سابور قينة　　من الوُرقِ مِطرابِ الأصائل مِيهال

وعلى ما يبدو لي، فإن دار العلم قد تعرضت للحرق مرتين وليس مرة واحدة: الأولى، كما أخبرنا ياقوت الحموي في (معجم البلدان) كانت سنة 447 هـ يوم دخل طغرلبك أول ملوك السلاجقة بغداد، فاحترقت فيما أُحرق من محال الكرخ الذي تسكنه الشيعة. والثانية، كما أخبرنا ابن الجوزي في (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، يوم قامت الفتنة بين السنّة والشيعة سنة 451 هـ، ففي تلك السنة ثار الهاشميون وأهل باب البصرة (أهلها من السنّة) إلى الكرخ فنهبوها وطرحوا النار في أسواقها ودروبها، واحترقت دار الكتب التي وقفها سابور بن أردشير.

مكتبة حلب

كتاب قتل صاحبه

جاء في كتاب (الوافي بالوفيات) لصلاح الدين الصفدي في ترجمته لأبي الحسن الحلبي ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب أنه: " أحد علماء الشيعة؛ كان من كبار النحاة، صنف كتابًا في تعليل قراءة عاصم وأنها قراءة قريش. تولى خزانة الكتب بحلب، فقال الإسماعيلية: هذا يفسد الدعوة، لأنه صنف كتابًا في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم وكيف بنيت على المخاريق، فحُمل إلى مصر فصلب، وأحرقت خزانة الكتب بحلب، وكانت لسيف الدولة وفيها عشرة آلاف مجلدة، وكان صلبه في حدود الستين والأربع مائة". وعلى الرغم من تشيع أبي الحسن الحلبي، فقد أثنى عليه الصفدي، ومن قبله الإمام الذهبي في (سير أعلام النبلاء)؛ إذ ترحم عليه، ودعى على من قتله، ووصفه بالعلاّمة ونحوي حلب.

إذًا، ثابت هذا من علماء الشيعة الإمامية، وكان أمينًا على مكتبة حلب، وكانت طائفة الإسماعيلية، أو من عُرفت بالباطنية، قد خافته بعد أن وضع فيها كتابًا يبيّن فيه مثالبهم ويفضح فيه أكاذيبهم، فاحتالوا عليه وحملوه إلى مصر الفاطمية، فأمر خليفتهم المستنصر بالله (ت 487 هـ) بقتله وصلبه. وقبل أن يحملوه إلى مصر أضرموا النار في المكتبة فأتت على كل ما فيها من كتب، وقُدرت بعشرة آلاف كتاب.

حريقان ومائة عام

وهذه المكتبة التي أبادتها الإسماعيلية بالجملة يعود تاريخ بنائها إلى زمن

الأمير سيف الدولة الحمداني (ت 356 هـ)، الذي عمّرها بالكتب الكثيرة وجعل أبوابها مفتوحة للقاصي والداني. غير أن المكتبة سرعان ما لحق بها التلف حين دخل طاغية الروم نقفور الثاني مدينة حلب بجيشه العرمرم ليدمر ويحرق ويقتل من جاء في طريقه. وبعد أن خرج الطاغية منها أعاد بنو حمدان بناء المكتبة فعادت كما كانت. وبقيت شعلة مكتبة حلب تشع بأنوار الفكر والعلم ما ينوف على مائة عام قبل أن تبطش بها يد الباطنية لأجل كتاب واحد نال منهم!

مكتبة بني عمار

وردة على ضفاف المتوسط

قبل الكلام عن (مكتبة بني عمار)، يحسن بنا أن نتكلم عمن هم بني عمار، وما هو نسبهم، وما الذي حكموا، ومتى حكموا. يُنسب بنو عمار إلى أمين الدولة الفاطمية وشيخ كتامة المغربية أبي محمد الحسن بن عمار (ت 390 هـ). وكان ابن عمار، وبقية كتامة، جليلي القدر مرهوبي الجانب منذ قيام دولة الفواطم إلى أن جاء العزيز بالله (ت 396 هـ) فاصطنع الديلم والأتراك، وجعلهم خاصته، وقدّمهم على كتامة. ولما مات العزيز بالله وتولى ابنه الحاكم بأمر الله (ت 411 هـ) أحضر ابن عمار هذا وقلّده الوزارة، وردَّ الأمور إليه والتدبير. وما أن استبد ابن عمار بالوزارة حتى عادت كتامة لتنبسط في البلاد، وكثر عبث أشرارهم وامتدت أيديهم إلى أخذ الحُرم في الطرقات، وعرّوا جماعة من الناس، وتعرضوا للأتراك، فثارت الفتنة في البلاد، فانتهب الأتراك دار بن عمار وإسطبلاته، وأخذوا ما لا يحصى كثرة، ثم عُزل ابن عمار من الوزارة ولزم داره مدة، ثم قتله الحاكم غيلة سنة 390 هـ.

ولما قُتل ابن عمار ضعفت كتامة، وانحط قدرها، وأدبر أمرها، وما زال قدرهم ينزل وأمرهم يتلاشى إلى أن صاروا من جملة الرعية بعد أن كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها. وعلى ما يبدو فإن من بني عمار من ارتحل إلى الشام وسكنوا طرابلس وتولوا قضائها ثم آل إليهم سلطانها، فملكوها أربعين سنة. وأول من تملك منهم رجل يُدعى أبو طالب الحسن بن عمار

ويُلقب بأمين الدولة (ت 464 هـ)، وكان سديد الرأي، حسن التدبير، فقيها شيعيًا، وله كتاب اسمه (جراب الدولة). ولما توفي أمين الدولة حكم بعده ابن أخيه جلال الدولة علي بن محمد (ت 492 هـ) فأرسى قواعدها وشيّدَ بنيانها. وبعد موته تسنّم أخوه عمار بن محمد الملقب بفخر الملك زمام البلاد.

وبعد خمسة أعوام من ملكه أقبل الصليبيون بجموعهم يريدون أخذ بلاده، فبقي فخر الملك ومن معه يدافعون عنها دفاع الأبطال. ولما اشتد عليهم الحصار وظنوا أنه الهلاك سار فخر الملك إلى بغداد طالبًا النجدة من السلاجقة. وفيما كان هو هناك، استولى الفاطميون على بلاده، وساقوا أهله من بني عمار في البحر إلى مصر، وتركوا فيها حامية ضعيفة لم تصبر على مدافعة الصليبيين الذين دخلوها في أواخر سنة 502 هـ، ثم أخذوا يقتلون ويسلبون وينهبون ويحرقون. وما كان بالطبع لمفخرة بني عمار، وأقصد بها دار العلم، أن تبقى وسط حمامات الدم وألسنة النار دون أن تطالها يد أولئك المتخلفين المتعصبين، وهو ما سنتحدث عنه فيما بقي من سطور.

تحفة بني عمار

أولى بنو عمار العلم والكتب أهمية بالغة، وشيّدوا في سبيل ذلك مكتبة عظيمة سمّوها دار العلم، وهي التسمية التي سبقهم إليها الفواطم قبل نحو سبعين سنة. ولقد كانت دار العلم تلك، أو ما تواضع الباحثون على تسميتها بمكتبة بني عمار، واحدة من أعظم إنجازاتهم التي تُذكر لهم وتُحمد على مر العصور. ولقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف في تقدير عدد الكتب التي حوتها رفوف المكتبة، فكانوا على عادتهم بين مقلٍ ومكثرٍ، فمنهم من أوصلها إلى مائة ألف مجلد، ومنهم من أوصلها إلى أكثر من ألف ألف مجلد، والله أعلم بمقدارها. ونقل الدكتور يوسف العش عن ابن الفرات في كتابه (تاريخ الدول والملوك)، الذي ينقل بدوره عن ابن أبي طيء وصفه للمكتبة:

"بأنها كانت أجمل وأغنى مكتبة في عصرها. وروى عن أبيه أنها احتوت على ثلاثة ألف ألف كتاب، وكان من بينها خمسون ألف نسخة من المصاحف، وعشرون ألف من التفاسير، وعمل بها مائة وثمانون كاتبًا، منهم ثلاثون، كانوا ينزلون بها ليلاً ونهارًا، وقد أولى حكام طرابلس بنو عمار هذه المكتبة كل اهتماماتهم، وهيؤوا لها وكلاء متجولين، لا يتأخرون عن أي رحلة، لشراء أفضل الكتب".

ولقد بقيت دار العلم منذ تأسيسها سنة 472 هـ منارة تشع بأنوار المعرفة إلى أن سقطت طرابلس بعد صمود دام سبعة أعوام في أيدي الصليبيين. كتب محمد علي كرد في (خطط الشام)، وتحت عنوان (مصائب الكتب ودورها): "ومن أهم النكبات التي أصيبت بها الكتب نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون وإحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها، وأخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها وكتب خاصة في بيوتهم. واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار أو دار حكمتهم في طرابلس، وعلى أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن مائة ألف مجلد، وأوصلها بعضهم إلى ألف ألف وبعضهم إلى أكثر. وقفها الحسن بن عمار وجاء بعده علي بن محمد بن عمار الذي جدد دار العلم سنة 472 ثم عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات في زمن آل عمار جميعها دار علم، وكان في تلك الدار مائة وثمانون ناسخًا ينسخون لها الكتب بالجراية والجامكية، فضلاً عما يشتري لها من كتب المنتخبة من الأقطار. وابن الفرات هو ممن يقول بأن عدد ما كان في دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عندما أحرقها الصليبيون سنة 503. والغالب أنه كان في طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم وقفت قبل بني عمار، وأراد ابن الفرات بهذه الثلاثة آلاف الألف عدد الكتب التي كانت في مكاتب طرابلس

كلها...".

وعلى ما يبدو لي، فإن صاحب (تاريخ الدول والملوك) يكاد ينفرد وحده بالكيفية التي أحرق فيها الصليبيون كتب دار العلم، فكتب مفصلاً: "عندما دخل الصليبيون غازين طرابلس أحرقوا دار العلم. ذلك أن أحد الكهنة فزع من كتب رآها فيها، ووقع بصره على مجموعة جليلة من المصاحف. ولما أمسك مجلدًا منها استنتج أنه نسخة من القرآن الكريم، فقارن بين عشرين نسخة منها، فاستنتج أنها نسخ من القرآن، وأن كل ما تحتويه الدار إنما هو مصاحف... ولهذا أحرقها الصليبيون، واستولوا على جملة من الكتب نقلوها إلى بلاد النصارى".

مكتبة ابن المرخم

لا نجد في كتب التاريخ والتراجم عن ابن المرخم ما يروي الظمأ وينقع الغليل. ما نعرفه عن ابن المرخم أنه كان قاضي بغداد في زمن الخليفة العباسي المتقي (ت 555 هـ). ولما توفي المتقي، وجلس ولده يوسف الملقب بالمستنجد على كرسي الخلافة، أمر في أول أيامه بالقبض على ابن المرخم ومصادرة أمواله.

ذكر ابن الجوزي في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) أنه وفي سنة 555 هـ: "وتقدم في هذا اليوم بالقبض على ابن المرخم الذي كان قاضيًا، وكان بئس الحاكم آخذ الرشاء واستصفيت أمواله وأعيد منها على الناس ما ادّعوا عليه وكان قد ضرب فلم يقر، فضرب ابنه فأقر بأموال كثيرة، وأحرقت كتبه في الرحبة وكان منها كتابي (الشفاء وإخوان الصفا) وحبس فمات في الحبس".

هذه القصة نجدها كذلك عند ابن الأثير في (الكامل في التاريخ)، الذي يضيف إلى اسمي الكتابين المذكورين أعلاه كلمة: "وما شاكلهما"، مما يقطع بأن المكتبة كانت تزخر بكتب الفلاسفة، وهذا بظني ما دعاهم إلى حرقها بالنار. وعلى أي حال، لا أحد يعلم سوى الله إن كان ابن المرخم قد قبض الرشاء أم لا، ولكن ما ذنب مكتبته لكي تعاقب وتُحرق بالنار؟!

دار العلم

ربيع وخريف

أنشأها سادس خلفاء الفواطم الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله بن المعز لدين الله سنة 395هـ واشتهرت كذلك باسم دار الحكمة. وقيل في سبب بنائها إن الحاكم بأمر الله أراد بها منافسة دار الحكمة ببغداد، وخزانة بني أمية بالأندلس والتي كانتا حينذاك منارتين لنشر مذهب أهل السنة والجماعة؛ فكأن الحاكم أراد بهذه المكتبة أن ينشر المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهو المذهب الذي كان طاغيًا على مصر في ذاك الوقت من قبل الدولة الفاطمية أو العبيدية عند بعضهم.

ولقد جمع الحاكم في دار العلم كتبًا كثيرة جدًا، ونقل إليها من قصور الخلافة ما لا يحصى كثرة من الكتب في سائر العلوم والفنون، وعيّن فيها المسئولين والعاملين، وخصّصَ لهم الجرايات، وجعل في المكتبة ما يحتاج إليه الباحثون والنسّاخ من المحابر والأقلام والأوراق. وقد كانت هذه الدار بحق من أعظم الخزائن التي عرفها العالم الإسلامي في تلك العصور، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع الفنون والعلوم، حتى غدت "من عجائب الدنيا" كما وصفها المقريزي. ومما يُحكى عنها أنها ضمّت بين جنباتها ستة آلاف كتاب في الطب وحده، وكان فيها خريطة عظيمة مرسومة على الحرير ضمّت أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها. وإلى جانب ما حوته دار العلم من كنوز فإن قاعاتها شهدت ما كان يسمى بمجالس الحكمة، والتي كان بعضها مفتوحًا للعامة، وبعضها مقصورًا على الخاصة،

وبعضها متاحًا للنساء.

وإليك ما نقله المقريزي عن عز الملك محمد بن عبد الله المسبحي - صديق الحاكم بأمر الله ومؤرخ بلاطه - عن دار العلم: "وفي يوم السبت هذا يعني العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم قوّام وخدّام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعًا لأحد قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها...".

عاشت دار العلم ما يزيد على ستة عقود كانت فيها منهلاً للباحثين ومقصدًا للدارسين، ثم أخذ نجمها يخفت شيئًا فشيئًا، والنكبات عليها تتوالى الواحدة تلو الأخرى؛ وكأنها بذلك تترجم ما آلت إليه مصر الفاطمية من ضعف واضطرابات وما ألمّ بها من فتن ومجاعات. ولدينا حادثتان شهيرتان لحقتا بدار العلم سأنقلها إليكم من كتاب "اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء" للمقريزي.

الشدة المستنصرية

قبل الشروع بالكلام عن النكبة التي أصابت خزائن دار العلم في زمن ما يعرف بـ "الشدة العظمى" أو "الشدة المستنصرية" نسبة إلى الخليفة المستنصر بالله، يتعيّن علينا رسم صورة عامة لمصر في تلك الأيام السوداء.

فلقد عاش المصريون في النصف الثاني من القرن الخامس، وفي عهد خليفتهم الثامن من أولاد فاطمة المستنصر بالله (ت 487 هـ) أوقاتًا لم يُسمع بها ولم يُرى مثلها من شدة الفوضى وزيادة الجوع واتصال الفتن. فقد أحاقت بالبلاد كارثة كبيرة ومجاعة عظيمة امتدت سبع سنوات متصلة (457هـ - 464هـ) بسبب قصور مياه النيل. وزاد الطين بلة إدبار الخلافة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة، وترادف الفتن في عرض البلاد وطولها، فزاد الغلاء وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأرض عن الزراعة، وشمل الخوف وخيفت السبل برًا وبحرًا. ولقد فصّلَ لنا المقريزي في صفحات كثيرة أحداث تلك الشدة العظمى فكتب يقول: "... اشتد البلاء على المستنصر بقوة الأتراك عليه، وطمعهم فيه، فانخرق ناموسه، وتناقصت حرمته، وقلت مهابته؛ وتعنتوا به في زيادة واجباتهم. وكانت مقرراتهم في كل شهر ثمانية وعشرين ألف دينار، فبلغت في هذه السنة إلى أربعمائة ألف دينار في كل شهر، فطالبوا المستنصر بالأموال... قوى تغلب المارقين على المستنصر، واستباحوا ما وجدوا في بيوت أمواله، واشتدت مطالباتهم بالواجبات المقررة لهم، وسألوا الزيادات في الرسوم. واقتسم مقدموهم دور المكوس والجبايات، وتغلب كل من بقي منهم على ناحية؛ ولم يبق للدولة ارتفاع يعول عليه، ولا مال في القياصر يرجع إليه. وأخرج من الذخائر ما لا شوهد فيما بعده من الدول مثله نفاسةً وغرابة، وجلالةً وكثرة، وحسنًا وملاحة، وجودة وسناء قيمة وعلو ثمن؛ ونقل منه التجار إلى الأمصار شيئًا كثيرًا، سوى ما أحرق بالنار بعد ما امتلأت قياسر مصر وأسواقها من الأمتعة المخرجة من القصر المباعة على الناس، التي أنفق منها في أعطيات الأتراك وغيرهم لسنة ستين وأربعمائة. فأهلت سنة إحدى وستين هذه وقد اشتد الخوف بمصر، وكثر التشليح في الطرقات نهارًا والخطف والقتل... واشتد الغلاء بمصر، وقلت الأقوات في الأعمال، وعظم الفساد والضرر، وكثر

الجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات، ووقفوا في الطرقات يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه، مع ما نزل بالناس من الحروب والفتن التي هلك فيها من الخلق ما لا يحصيهم إلا خالقهم. وخاف الناس من النهب، فعاد التجار إلى ما ابتاعوه من المخرج من القصر يحرقونه بالنار ليخلص لهم ما فيه من الذهب والفضة. فحرقوا من الثياب المنسوجة بالذهب والأمتعة من الستور والكلل والفرش، والمظال والبنود والعماريات، والمنجوقات والأجلة ومن السروج الذهب والفضة والآلات المجراة بالميناء والمرصعة بالجوهر، شيء لا يمكن وصفه، مما عمل في دول الإسلام وغيرها".

ولم تسلم خزائن الكتب في قصور الخلافة، ولا دار العلم من المصادرة والتلف والضياع. يقول المقريزي: "وأخرج من خزائن الكتب ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة، وألفان وأربعمائة ختمة في ربعات بخطوط منسوبة محلاة بذهب وفضة. وأخذ جميع ذلك الأتراك ببعض قيمته. وأخرج في المحرم منها في يوم واحد خمسة وعشرون جملاً موقرةً كتبًا صارت إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المعز، واقتسمها هو والخطير ابن الموفق في الدارين بخدمات وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الحلبيين؛ وأن حصة الوزير أبي الفرج قومت عليه بخمسة آلاف دينار، وكانت تساوي أكثر من مائة ألف دينار، نهبت بأجمعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة من مصر في صفر، مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما... وأخرج ما في خزائن دار العلم بالقاهرة. وصار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف بالإسكندرية كثير من الكتب، ثم انتقل منها كثير، بعد مقتله، إلى المغرب وأخذته لواتة، فيما صار إليها بالابتياع أو الغصب من الكتب الجليلة المقدار ما لا يعد ولا يوصف، فجعل عبيدهم وإماؤهم جلودها نعالاً في أرجلهم، وأحرق ورقها تأولاً منهم أنها خرجت

من القصر وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم، فصار رمادها تلالاً عرفت في نواحي أبيار بتلال الكتب، وغرق منها وتلف، ووصل إلى الأمصار ما يتجاوز الوصف".

الموت الأخير

عاشت دار العلم ما يربو على مائة عام من بعد أحداث الشدة العظمى إلى أن قُضي عليها تمامًا وبُني فوقها مدرسة للشافعية لنشر المذهب السني على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي. ولقد قرأت في مواقع شتى على الشبكة العنكبوتية أن صلاح الدين قد قام بإحراق كتب الفاطميين بقصد شطب تاريخهم؛ والحقيقة أن صلاح الدين لم يحرق كتبهم، بل قام ببيعها وتوزيعها، ثم أقام مكانها مدرسة لبث مذهب الشافعية الذي كان هو والأيوبيون يتبعونه ويتعصبون له. يقول المقريزي في وصفه للأيام الأخيرة من دولة الفواطم بعد تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبي: "ووجد من الكتب النفيسة ما لا يعد؛ ويقال إنها كانت ألف ألف وستمائة ألف كتاب، منها مائة ألف مجلد بخط منسوب، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري؛ فباع السلطان جميع ذلك، وقام البيع فيها عشر سنين". وهذا دليل آخر من كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لشهاب الدين المقدسي: "ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكلّ كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب

اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها محرومات ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصّل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد".

مكتبة الحشاشين

الحشاشون، أو الحشيشية، أو الفداوية، أو النزارية، هم فرع خبيث من فروع الإسماعيلية الباطنية، وشيخهم وشيطانهم ومؤسس نحلتهم اسمه الحسن بن الصباح (ت 518 هـ). وفي سنة 483 هـ استولى الحسن بالحيلة والمكر على قلعة ألموت في إيران، وألموت تعني بالفارسية "عش النسر"، وهي قلعة ذات حصانة ومناعة، لتكون مقر حكمه وكرسي ملكه. ثم استولى أتباعه من بعده على قلاع كثيرة حتى يتحصنوا بها ويبثوا منها شرورهم وسمومهم. والكلام لا يستقيم عن الحشيشية قبل أن نعرج ولو لقليل على سيدهم ومولاهم الحسن بن الصباح، والذي يُلقب عندهم بـ "السيد"، أو بـ "شيخ الجبل". ولقد قيل في هذا الرجل كلام اختلط فيه الواقع بالخيال، والصدق بالوهم، والحق بالبطل. وصفه صاحب (الميزان)، الإمام الذهبي، بقوله: "كان من كبار الزنادقة، ومن دهاة العالم، وله أخبار يطول شرحها... وأصله من مرو، وقد أكثر التطواف ما بين مصر إلى بلد كاشغر، يغوي الخلق، ويضل الجهلة إلى أن صار منه ما صار، وكان قوي المشاركة في الفلسفة والهندسة، كثير المكر والحيل، بعيد الغور، لا بارك الله فيه".

ولقد ابتلي المسلمون زهاء قرن ونصف بهؤلاء الحشيشية أشد البلاء بسبب ما تكرر وقوعه منهم من الغارات والاغتيالات. وعلى الرغم من قيام سلاطين المسلمين وأمرائهم بقتل جم غفير من هؤلاء الحشيشية، إلا أن قتلهم واستباحة أموالهم وسبي ذراريهم لم يفنهم ويقتلعهم من شرورهم. ومما اشتهر به هؤلاء الحشيشية اجترائهم على قتل الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء بالسكاكين غيلة، وقد تكرر هذا منهم لما عُرفوا به من

براعة في التخفي ومهارة في التنكر. فهم من مزقوا بخناجرهم الخليفة العباسي المسترشد، وولده الخليفة الراشد، والوزير الكبير نظام الملك، وولده الوزير فخر الملك، والأمير آق سنقر البرسقي، والأمير مودود بن ألتونكتين، والملك بوري بن طغتكين، وغيرهم كثير.

ولقد احتك بالحشيشية الصليبيون الذين كانوا بالشام حينها. ونظرًا لكثرة فتكهم بأعلام المسلمين غيلة فقد أدخل الصليبيون إلى قاموسهم كلمة الحشاشين أو "assassin" بالإنجليزية، لتعني عندهم القتل خلسة أو غدرًا، أو هي صفة للقاتل المحترف المأجور. وعلى ما يبدو، فإن الحشيشية الباطنية كانوا على صلة وثيقة بالصليبيين، يتآمرون على المسلمين من أهل السنة، ولا يتركون فرصة تلوح للانتقام منهم إلا اهتبلوها، فوجهوا كل عملياتهم ومؤامراتهم ضد أمراء الجهاد، وكان حري بهم أن يديروا سكاكينهم ضد الصليبيين الذين فتكوا بالمسلمين وانتسفوا أراضيهم واستباحوا أموالهم لو كانت بهم غيرة على الدين وحمية لأهله!

وبما أننا بصدد الكلام عن إتلاف الكتب، فلا بأس من أن نُسّبق حديثنا عن حرق مكتبة الحشاشين بالحديث عما فعله جلال الدين الحسن الثالث بن محمد الثاني (ت 618 هـ) سادس حكامهم حين اعتلى سدة الحكم. فالرجل ما إن آلت إليه الأمور حتى عمل على إحياء شرائع الإسلام، وحرص على تطبيقها، وحرّم ما حرّمه الإسلام، وأمر بأن تُبنى في كافة قرى ألموت المساجد والحمامات، وعاد إلى إقامة الأذان وصلاة الجمعة والجماعة. وزاد على ذلك بأن أوفد الوفود إلى خليفة بغداد الناصر لدين الله، وإلى سلطان السلاجقة محمد خوارزم شاه، وإلى بقية أمراء العراق ومختلف المناطق، يعلمهم بنقاء إيمانه، فاقتنع الخليفة والسلاطين بصدق أقواله، وخلعوا الخلع على رسله، فعادوا إلى جلال الدين معزّزين مكرّمين، وعُرف جلال الدين من يومها بـ "نومسلمان"، أي المسلم الجديد. وأما أهل قزوين فلم يقنعوا بتوبته، وطالبوه

بالبراهين الساطعة والأدلة الكاشفة، فطلب إليهم أن يرسلوا إليه بعض أعيانهم لكي يروا بأعينهم صدق ما يدعيه. وعندما حضر القوم عنده، قام جلال الدين وعلى مرأى منهم بإحراق كتب جدهم وأول حكامهم الحسن بن الصباح بكل ما انطوت عليه من مذهبه عقيدةً وسلوكًا، ثم انهال على أسلافه بالسب واللعن، وعند ذلك فقط شهد له أهل قزوين بحسن إسلامه وصدق إيمانه.

ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون نهاية الحشيشية وسقوط قلاعهم على يد واحد من شياطين الأنس وجبابرة البشر، وهو هولاكو خان الذي أقبل بجيش كالليل في انحدار السيل. وأخذت قلاع الحشيشية تتساقط الواحدة تلو الأخرى مثلما تتساقط أوراق الخريف، ولم يبق لهولاكو سوى قلعة ألموت عاصمة ملكهم ومركز قيادتهم. ولما ثقل الحصار على أهل القلعة وطال، وعلم حاكمها ركن الدين خورشاه أنه لا صبر له ولا جلد على دفع هولاكو وجمعه، نزل عن قلعته وسلّم نفسه إلى هولاكو. وبعد أن أمهل التتار أهل القلعة ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم، دخل جند هولاكو القلعة ليعملوا فيها يد التخريب والتدمير بعد أن استولوا على ما فيها من كنوز وأموال، وهكذا ضرب الله الظالمين بالظالمين.

وأما مكتبة الحشيشية الإسماعيلية النفيسة، والتي أنفق حكام القلعة سنوات طوال في بنائها وفي تجميع محتوياتها، حتى طارت شهرتها في الآفاق، فقد كاد المغول أن يتلفوها؛ لولا المؤرخ عطا ملك الجويني الذي استأذن هولاكو في أن يطلع على ما فيها قبل أن تُطرح النار فيها. وبالفعل، فقد أخذ الجويني منها مجموعة قيمة من المصاحف والكتب العلمية وآلات الرصد الفلكي، وأما ما حوته المكتبة من كتب تتناول عقائد الباطنية الفاسدة فقد أكلتها النار.

بيت الحكمة

ربيع بيت الحكمة

كان الخليفة أبو جعفر المنصور (ت 158 هـ) إلى جانب براعته في الفقه كلفًا بكتب الفلسفة وخاصة في علم النجوم. ولما قدم الطبيب السرياني جرجس بن جبرائيل إلى بغداد كلفه المنصور بترجمة كثير من الكتب، وترجم له ابن البطريق كتبًا قديمة، وكتب إلى ملك بيزنطة يطلب إليه أن يرسل بعض الكتب، فبعث إليه كتاب إقليدس وغيرها من كتب الطبيعيات. ولم تقتصر عناية أبي جعفر على ترجمة كتب الأقدمين، بل اهتم بتأليف الكتب العربية، ومثال ذلك أنه طلب إلى ابن إسحاق (ت 151 هـ) أن يؤلف لابنه المهدي كتابًا منذ آدم عليه السلام إلى العصر الذي هو فيه. ولما فرغ منه ابن إسحاق وجده المنصور طويلاً جدًا، فاختصره ابن إسحاق، واحتفظ المنصور بالكتاب الأصلي في مكتبته. وورث المهدي (ت 169 هـ) عن أبيه كلفه بعلم النجوم، وعني كذلك بتأليف الكتب العربية، فجُمعت له مفضليات الضبي، وخلاصة عن تربية الطيور.

وانتقلت إلى هارون الرشيد (ت 193 هـ) مكتبة أبيه وجده، وزاد عليها ما وجده في عمورية وأنقرة وسائر بلاد الروم حين غزاها، فضلاً عما كان يُترجم ويُولف له من كتب. فلما ضاقت خزانة القصر بما فيها من كتب، أمر الرشيد بإخراجها ووضعها في مكتبة عامة مفتوحة للناس وأسماها بيت الحكمة. وقُسمت بيت الحكمة إلى أقسام، ولها تراجمة يتولون ترجمة نفائس الحضارات المجاورة من اليونان والهند والصين إلى العربية. ولم تكن بيت

الحكمة مجرد مكتبة تُجمع فيها الكتب، بل غدت مركزًا كبيرًا يشتمل على الترجمة والتأليف والبحث والنسخ والتجليد، ثم سيُضاف إلى كل تلك الأعمال الجليلة تحولت بيت الحكمة فيما بعد إلى دار للعلم تُعقد فيها الدروس وتُمنح فيها الإجازات العلمية.

وعاشت بيت الحكمة عصرها الذهبي في عهد الخليفة المأمون (ت 218 هـ) لما اشتهر عن المأمون من تولع بالفلسفة وعلوم الأوائل. ففي عهده زاد الإقبال على ترجمة الكتب اليونانية التي جُلبت من بلاد الروم، وكان المأمون يرسل العلماء إلى القسطنطينية وقبرص وغيرها من البلدان للبحث عن نفائس الكتب اليونانية ونقلها إلى العربية. وقيل إن المأمون من شدة كلفه بالفلسفة، وعلى الأخص الفلسفة اليونانية، فقد ظهر أرسطو له في المنام ليخبرنه بأنه لا تعارض بين الدين والعقل. ولمع في زمان المأمون رجال اشتغلوا بالتأليف والترجمة في ميادين الفلسفة والفلك والرياضيات والطب وغيرها من أمثال: حنين بن إسحاق، وجبرائيل بن بختيشوع، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وموسى بن شاكر وأولاده الثلاثة، وغيرهم كثير. ولقد بلغ شغف المأمون بالعلوم وتشجيعه على التأليف والترجمة أنه كان يعطي المترجم زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. وأمر المأمون برسم خارطة للعالم سُميت بالخريطة المأمونية، واجتمع على صنعها كوكبة من علماء عصره الأجلاء، فصوروا في براعة فائقة العالم بأفلاكه ونجومه، وبره وبحره، وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك.

خريف بيت الحكمة

كانت مكتبة بيت الحكمة، شأنها كشأن بقية دور العلم، تستمد وهجها من حب الملوك للعلوم وعطفهم على العلماء، ولهذا فلما مات المأمون بدأت شعلة بيت الحكمة تخفت شيئًا فشيئًا. فالخليفة المعتصم (ت 227 هـ) كان

على خلاف أخيه المأمون أميًا ذا حظ قليل من العلم والثقافة، فلم يُعنى ببيت الحكمة مثل سلفه، وطفق يستقدم المماليك الأتراك البدو من الآفاق فأفسدوا بغداد وضايقوا الناس، فاضطر إلى نقل العاصمة إلى سامراء، فكان أن دبَّ الخمول في أوصال بيت الحكمة. ولما تقلد ابنه الواثق (ت 232 هـ) الخلافة، وكان معروفًا بحبه للعلوم والآداب على شاكلة عمه المأمون، استردت بيت الحكمة شيئًا من الشباب والألق؛ ولكن العمر لم يمتد طويلاً بالواثق، فجاء بعده أخوه المتوكل لتعود بيت الحكمة إلى مرحلة من الركود والفتور. ومنذ ذاك الوقت، أخذت عجلة التأليف والترجمة تتباطأ، والإهمال يرخي بستائره الكئيبة على بيت الحكمة. وزاد الطين بلة نشوب الحروب واشتعال الفتن بين الخلفاء كما جرى بين المستعين والمعتز، ثم أصاب الضعف خلفاء بني العباس، فصاروا اسمًا بلا رسم وصورة بلا معنى، وغدوا مجرد دمى يتلاعب بهم الفرس تارة والترك تارة أخرى.

استمرت بيت الحكمة قائمةً رغم ما اعتراها من ضعف وجمود إلى أن سقطت بغداد سنة 656 هـ على يد هولاكو وجيوشه الجرارة. وكما هو معلوم، فقد استباح أولئك الهمج المتوحشون المدينة فلم يسلم منهم لا بشر ولا شجر ولا حجر، واستمر القتل والنهب والحرق في بغداد أربعين يومًا كما يذهب بعض المؤرخين. وانظر إلى هذه الصورة المخيفة والفظيعة لبغداد التي رسمها ابن كثير بكلماته في (البداية والنهاية) لما أصدر هولاكو أوامره بالكف عن القتل وسفك الدماء التي سالت أنهارًا: "ولما نودي ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه. وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى".

أما بيت الحكمة فما كان لها أن تنجو من هذا الدمار العظيم. ومن أين

لها النجاة وأولئك البدو الهمج لم تهذبهم حضارة ولم يصقلهم أدب؟! يقال إن المغول أخذوا ما في بيت الحكمة من الكتب وما في غيرها من مكتبات بغداد وخزائنها، ورموا بها في دجلة حتى سُدَّ مجراه وأسّود لونه من المداد الذي كُتبت به. وقيل - ولا أظنها إلا مبالغة من المؤرخين - أن الناس عبرت على أقدامها فوق أكوام الكتب وكأنها جسر معقود من ضفة النهر إلى ضفته الأخرى! وكما غرّقَ المغول بعض الكتب في الماء فإنهم أشعلوا النار في بعضها الآخر؛ وبهذا خسرت البشرية جمعاء كنوزًا لا تقدر بثمن. ومما يُحكى كذلك، أن العالم والفيلسوف نصير الدين الطوسي (672 هـ)، الذي رافق هولاكو في حملته على بغداد، قد استأذن سيده فأخذ من المكتبة آلافًا من الكتب وحملها إلى مراغة حيث بنى هناك مرصدًا عظيمًا، ثم قام المغول بتغريق وتحريق ما بقي في بيت الحكمة.

كتب المسلمين في إسبانيا

ساحة باب الرملة

بعد سقوط غرناطة، آخر معاقل العرب والمسلمين، في شبه الجزيرة الإيبرية سنة 897هـ / 1492م، وما تلى ذلك من تهجير لبعض المسلمين، وتنصير لبعضهم، وتقتيل لبعضهم، وما إلى ذلك من فظائع يقشعر لها الجلد، وينفطر لها القلب، وتبكي لها العين، جاء الدور على المخطوطات والكتب، فما الذي حصل؟

بعد أن زال ملك المسلمين بالكامل، قام الإسبان بأمر من ملكتهم وشيطانتهم إيزابيلا وزوجها الشيطان فيرديناند، بمحو كل أثر عربي وإسلامي: فحولوا المساجد إلى كنائس، ومنعوا المسلمين من الكلام والكتابة بالعربية، وحالوا بينهم وبين العمل بدينهم الإسلام، وحرّموا عليهم استعمال الأسماء العربية، وأقاموا محاكم التفتيش التي ارتكبت بحق المسلمين وبحق غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى جرائم تتفتت لها الأكباد أسى وحسرة وتذوب لها النفوس ألمًا ولوعة. وبلغ الحقد والتعصب والغباء بهؤلاء الأوباش منتهاه حين مالوا على الكتب التي تركها المسلمون وراء ظهورهم فأحرقوها، وما علموا أنهم بذلك قد ارتكبوا بحق أنفسهم وبحق البشرية جريمة لن تُمحى من سجلات التاريخ. ولو أنهم تركوا تلك المصنفات، أو بعضًا منها، لوصلنا علم عظيم وفضل غزير، ولكنها العقول المتحجرة والقلوب المتفحمة تقضي في لحظات على ما أنفقه العلماء من سنين في التفكير والتأليف لصالح الإنسانية وخير البشر.

ففي عام 1502 م أصدر الكاردينال الكاثوليكي سيسنيروس أمرًا عامًا بحرق كتب المسلمين، فأخرج الجند كتبًا، أوصل بعضهم عددها إلى أكثر من ألف ألف كتاب والله أعلم بعدتها، إلى ساحة مشهورة عندهم بغرناطة يقال لها ساحة "باب الرملة"، وأوقدوا فيها النار حتى صارت كأنها تلة من رماد. ومما قيل إن بعض الجند، ولشدة افتتانهم بسحر كتب المسلمين وجمالها، المكتوب بعضها بماء الذهب والفضة، أخذوا يخفون ما قدروا عليه في أرديتهم. وسيظل هذا العمل الهمجي وصمة عار في جبين إسبانيا المسيحية لن يزول مهما تعاقبت القرون.

صرخة بلا عنوان

كتب أحد شعراء المسلمين بالأندلس قصيدة تتقطع لها نياط القلب؛ وهو يستنجد بالسلطان العثماني بايزيد الثاني بن محمد الفاتح دون جدوى، لاستنقاذ من بقي من المسلمين من محرقة محاكم التفتيش الإسبانية. القصيدة طويلة جدًا ومحزنة للغاية، ولكني سأكتفي بأبيات قليلة يصور فيها الشاعر ما جرى على كتب المسلمين على يد أولئك المتعصبين المجرمين:

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا
ففي النار ألقوه بهزءة وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابًا لمسلم
ولا مصحفًا يخلى به للقراءة

صحوة ضمير

أثناء كتابتي عن نكبة الكتب بإسبانيا وجدت بالصدفة خبرًا في موقع "طنجة انتر" الإلكتروني يتحدث عن قيام مسؤولين في (جمعية غرناطة من أجل التسامح) يطالبون فيه باسترجاع ما بقي من كتب لم تمسها النار في ساحة باب الرملة. يقال بأن بعضًا من تلك الكتب جرى تهريبها إلى منطقة تُدعى "ألكالا"، أي القلعة بالعربية، بالقرب من العاصمة مدريد. وبحسب مؤرخين إسبان، فإن الكتب التي نجت من الحرق استقر بعضها في الكنائس ليطلع عليها الرهبان ويستفيدوا منها، فضلاً عن كتب علمية أخرى استفاد منها العلماء في الدفع بعجلة النهضة الأوروبية آنذاك. ولفت الخبر المنشور بالموقع المذكور أن المؤرخين الإسبان مختلفون فيما بينهم في تقدير عدد الكتب التي أُحرقت؛ فبينما يذهب بعضهم إلى أن عددها بلغ خمسة آلاف كتاب، فإن بعضهم يرفع هذا العدد إلى أكثر من مليون كتاب. واختتم الخبر بكلمات المتحدث باسم الجمعية وأستاذ التاريخ بجامعة غرناطة، خابيير لوبيث الذي قال: "لا نروم من وراء هذا المطلب فتح آلام الماضي وجراحه، لكننا نريد فقط أن ننبه إلى أنه بالإمكان أن تتكرر مثل هذه الأحداث مستقبلاً في حال لم يتم وضع حدًا لموجة الكراهية المتصاعدة". تلك صحوة ضمير تُحمد لهذه الجمعية وتُشكر عليها، ولكنها جاءت مع شديد الأسف متأخرة جدًا، أي بعد مرور أكثر من خمسمائة عام!

مكتبة آل عصفور

آل عصفور والغزو العماني

بدايةً، من هم آل عصفور؟ هم أسرة شيعية بحرينية، خرج منها وبرز فيها رجال دين وتفسير وأهل كتب وتأليف. وممن اشتهر من آل عصفور، نذكر منهم يوسف بن أحمد بن إبراهيم (ت 1186 هـ) والمعروف بصاحب الحدائق نسبة إلى كتابه (الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة)، وكذلك حسين بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت 1216 هـ) وله مثل عمه يوسف كتب كثيرة.

ونظرًا لحب أفراد هذه الأسرة للتأليف وتعلقهم بالكتب فقد كانت لهم مكتبة عظيمة في بلاد البحرين، ولكن هذه المكتبة - مثل غيرها من مكتبات كثيرة - تعرضت إلى نكبة عظيمة تسببت في إسدال ستائر النسيان عليها وجعلها في خبر كان. وسبب نكبة (مكتبة آل عصفور) هم العمانيون. فالبحرين، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تعرضت إلى خمس محاولات عمانية للاستيلاء عليها بالحديد والنار. وخيرًا فعل بنا الباحث البحريني يوسف مدن حين كتب بحثًا بعنوان (الاحتلال العماني للبحرين في دراسات بحرينية) ، استعرض فيه وانتقد دراستين بحرينيتين سابقتين تناولتا بالتفصيل تلك الحملات البحرية العمانية لضم الجزائر البحرينية. وعلى أي حال، لا أجد من الحكمة الكلام عن تلك الحملات العمانية، ولا الكلام عن انتقادات الباحث وملاحظاته على الدراستين السابقتين لسببين بسيطين: أولهما انعدام صلتها المباشرة بموضوع الكتاب، وثانيها كثرة تفاصيلها

وتشعب أحداثها. وعمومًا، من أراد منكم الوقوف على تلك الأحداث الغابرة فليرجع إلى دراسة يوسف مدن؛ ففيها ما أظنه يكفي لفهم أسباب تلك الحملات وأحداثها ونتائجها.

من بين الحملات الخمس التي أبحرت من عمان بقصد الاستيلاء على البحرين، سنكتفي بالكلام فقط عن الحملة الأولى والتي يعود تاريخها إلى سنة 1711م/ 1129هـ. ولنقرأ بعض ما كتبه المؤرخ المرحوم بإذن الله ناصر بن جوهر الخيري في كتابه (قلائد النحرين في تاريخ البحرين)، نقلاً عن دراسة الأستاذ يوسف: " فنزع الأمير سلطان بن سيف بن مالك بن يعرب النبهاني القحطاني سلطان مسقط وإمام عمان واغتنم هذه الفرصة، فملك بعض شواطئ بلاد إيران في الخليج وشيء من الجزر البحرية، وفي جملتها جزائر البحرين ملكها في سنة 1711م الموافقة لسنة 1129هـ فكره الأهالي حكم السلطان المذكور لبلادهم، وأنّى للأباضي أن يتفق مع الشيعي، وذلك يبالغ ويسرف في بغض علي بن أبي طالب، بينما هذا يبالغ في مودته، ويكاد أن يجعله إلهًا، فهم لهذا على طرفي نقيض، ومحال أن يجتمع الضدين (هكذا كُتبت!) ويأتلف النقيضين (هكذا كُتبت!)، فلذلك استصرخوا بإخوانهم في المذهب وهم صاحب شيراز "السوير وي خان" وطلبوا منهم أن يمدهم بالقوات لطرد عدوهم المذهبي عن بلادهم التي هي في عرف الشيعيين من الأماكن المقدسة، ففزع إليهم في قوة عظيمة مؤلفة من أجناس مختلفة بقيادة خاجا معين الدين الفالي، فلما حلوا بالبحرين حاربوا نائب سلطان عمان ومن معه من جنود الأباضيين، فكسروهم شر كسرة وأخرجوهم من البحرين على رغم أنوفهم، وفرح الأهالي بخروج عدوهم من بلادهم...".

نكبة المكتبة

يذكر الأستاذ يوسف مدن أن النار قد أكلت "مكتبة آل عصفور" حين

دخل العمانيون البلاد غازين، وأن صاحبها وهو أحمد بن إبراهيم آل عصفور البحراني قد اضطر إلى النزوح إلى القطيف الشيعية ليموت فيها من الهم والغم بعد سنة واحدة بسبب ما جرى على بلاده وأهله ومكتبته من الحرق والسلب والنهب والقتل. ولقد ضمّن يوسف البحراني، وهو ابن أحمد المذكور، في كتابه (لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث) تفصيل ما وقع عليهم وعلى مكتبتهم وبلادهم من ويلات. ولقد كتب يوسف قصائد يصور فيها حزنه على فراق أهله وبلاده، ويذكر فيها ما أصابه وأصاب أهله وبلاده من الملمات والنكبات، فيقول:

وقد أصبحت في دهر كنود

به الغارات تشعل بالتهاب

وقد خلت المساكن من ذويها

فرارًا في الوهاد وفي الهضاب

مصائب قد غدت منها دوامًا

دموع العين تجري بانسكاب

علتني نارها فغدوت منها

طريدًا في الصحارى والشعاب

وأعظم حسرة أضنت فؤادي

تفرق ما بملكي من كتاب

لقد ضاقت علي الأرض طرا

وسد علي منها كل باب

طوتني النائبات وكنت نارًا

على علم بها طي الكتاب

مكتبة جامعة الجزائر

بلد المليون شهيد

لم يشهد الوطن العربي استعمارًا أطول أمدًا، وأكثر وحشية، وأعلى كلفة، من الاستعمار الفرنسي للجزائر. وكما يعلم القاصي والداني فقد بذل الجزائريون الغالي والنفيس من أجل تطهير تراب بلادهم من رجس المستعمر، وكتبوا صفحات من ذهب في مقاومة الهيمنة والغطرسة الفرنسية. ولا تُذكر المقاومة الجزائرية للعدو إلا وتُذكر أسماء أبطالها البواسل الذين حملوا أرواحهم على كفوفهم غير عابئين برصاص المحتل وقنابله ومشانقه، من أمثال عبد القادر الجزائري، وفاطمة نسومر، وأحمد بو قرة، والعربي بن مهيدي، وحسيبة بن بو علي، وجميلة بوحيرد، والقائمة تطول وتطول.

حرق جسور المستقبل

بعد أكثر من مائة وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي، استسلم الفرنسيون لإرادة الشعب الجزائري الأبيّ ومطالباته بالتحرر والاستقلال، فانسحبوا بقضهم وقضيضهم إلى بلادهم؛ ولكنهم وقبل شهر واحد من إعلان الاستقلال حدث ما لم يكن أحد يتوقعه ويتمناه. ففي اليوم السابع من شهر يونيو من عام 1962 قامت المنظمة السرية للجيش الفرنسي، والتي يطلق عليها اختصارًا (OAS)، وفي رابعة النهار بحرق مكتبة جامعة الجزائر مما أدى إلى تفحم ما يقرب من أربعمائة ألف كتاب ومخطوطة من ضمن ستمائة ألف، فضلاً عن تخريب المكتبة ومخابر العلوم ومدرجين، وكأن هؤلاء المجرمين أرادوا بفعلتهم السوداء حرمان أبناء الجزائر من أنوار العلم

والمعرفة والإبقاء عليهم في دياجير الظلمة والجهل. لقد أدى هذا العمل الإجرامي إلى ضياع كتب نفيسة ومخطوطات فريدة يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر الميلادي، وأما الكتب التي سلمت من النار فإنها لم تسلم من الماء، ولهذا فإنها لما عادت عاد منها ثمانون ألف نسخة فقط! إن نظرة عابرة إلى هذا الرقم الكبير من الكتب التي كانت تعج بها مكتبة جامعة الجزائر يخبرك أنها كانت واحدة من أكبر المكتبات في بلاد العرب وإفريقية. وقبل أسابيع من إشعال الفرنسيين، أهل الفكر والفن والأدب، النار في المكتبة قاموا بسرقة كثير من المخطوطات النادرة وحملها إلى بلادهم ليستفيدوا منها.

وبعد أن خمدت النار، وهدأت الأحوال، قامت الدولة بتأسيس لجنة دولية بغرض جمع التبرعات المالية والعينية من دول العالم لإعادة إحياء المكتبة من جديد. ونتيجة لتضافر الجهود الداخلية والخارجية، فقد عادت المكتبة لتقف مرة أخرى على قدميها، وذلك بعد انقضاء ستة أعوام من الحادثة التي ما زال الجزائريون يذكرونها بألم شديد وحزن عميق. ولك أن تتخيل أيها القارئ الكريم أن الجزائر ما زالت وإلى هذه اللحظة تعالج كتبًا اكتوت بالنار منذ خمس وخمسين سنة! اليوم طلاب العلم في بلاد المليون شهيد يستطيعون أن يجدوا بين رفوف المكتبة ما يبحثون عنه، ولكنهم لن يستطيعوا أبدًا أن يجدوا ما سبق للعصابة الفرنسية أن أحرقته من كتب ومخطوطات لا ثاني لها في كل بقاع الأرض!

مكتبة الكويت الوطنية

بذور التأسيس

تعود بداياتها إلى ما يقرب من مائة عام. ففي عام 1923م، وفي عهد الأمير الشيخ أحمد الجابر الصباح (ت 1950م) تنادى ثلة من رجال الكويت الأفاضل على تأسيس أول مكتبة وطنية لتساهم في بث الوعي ونشر أنوار المعرفة، واتفقوا على تسميتها بالمكتبة الأهلية. وما هو إلا قليل حتى جاءتها التبرعات والإهداءات من العوام والخواص إلى أن ذاع صيتها ولمع نجمها. وبسبب ضيق مساحة المكتبة فقد تبرع الأمير الشيخ عبد الله السالم الصباح (ت 1965م) بدكان أكبر فانتقلت إليه. وشيئًا فشيئًا، أخذت رفوف المكتبة تتمدد وتمتلئ بأمهات الكتب وبنفائس المصنفات، حتى صارت بحق منارة سامقة تسكب أنوارها على الكويت وأهلها.

ومنذ تلك السنين، والمكتبة في نمو وتمدد وازدهار حتى غدت ملتقى لمحبي القراءة ومحجًا للباحثين من العلماء وطلاب العلم. وكما أسلفنا، فقد كانت المكتبة تُسمى المكتبة الأهلية، إلا أن الاسم تغير في الثلاثينيات الميلادية من القرن المنصرم بعد انضمامها إلى دائرة المعارف فأطلق عليها (مكتبة المعارف)، وظلت تُدعى بهذا الاسم عقودًا إلى أن أُلحقت بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ليُستبدل اسمها إلى المكتبة المركزية في أواخر السبعينيات من القرن الماضي. وفي عام 1994م، وفي عهد الأمير الراحل جابر الأحمد الصباح (2006م) صدر مرسوم سامٍ بإنشاء مكتبة الكويت الوطنية، وأعطى لها مسؤولية جمع التراث الوطني والإنتاج الفكري والثقافي في دولة الكويت، وتنظيمه وحفظه وتوثيقه.

ظلت مكتبة الكويت، والتي كانت حينها تُسمى بالمكتبة المركزية، تؤدي دورها المناط بها على ما يرام إلى أن غدر الجيش الصدّامي بالشقيقة الكويت ذات ليل في شهر أغسطس من عام 1990م. بقي العراقيون في الكويت نحو سبعة أشهر قبل أن يتم إخراجهم ودحرهم على يد قوات التحالف الدولية. وخلال فترة وجودهم بالكويت عاث الغزاة العراقيون في المكتبة الكويتية نهبًا وتدميرًا، فأخذوا ما شاءوا منها من الكتب والوثائق والمخطوطات النادرة. ولا عجب أن يجوس الغزاة في المكتبة فسادًا، فما من غازٍ دخل بلدًا عنوةً إلا وامتدت يده إلى مكتباتها ومؤسساتها الثقافية ناهبًا ومحرقًا، وكأنه بذلك يريد أن يمحو ذاكرة أهلها ويشطب هويتها. ولأن ربّك بالمرصاد، فقد لقيت - مع شديد الأسف - مكتبات العراق المركزية المصير نفسه بعد أقل من ربع قرن، حين دخل الغازي الأمريكي بلاد الرافدين، فامتدت أيدي الرعاع في ظل الفوضى العارمة التي ضربت البلاد إلى مكتبات بلادهم لتنهب وتدمر وتحرق!

ولم تكن مكتبة الكويت الوطنية وحدها من تعرضت للنهب والتدمير فحسب، بل لحقتها مكتبات أخرى، وأبرزها مكتبة مجلس الأمة والتي جرى افتتاحها في فبراير من عام 1986م، تزامنًا مع افتتاح مبنى مجلس الأمة. وكانت المكتبة تزخر بمصادر معلومات متنوعة جدًا من كتب ودوريات ووثائق ورسائل جامعية ووسائل سمعية وبصرية. ولما اجتاح الجيش العراقي الكويت تعرضت تلك المكتبة للنهب حالها كحال بقية أخواتها. ويقال إن المكتبة كانت تحوي أكثر من خمسة وأربعين ألف كتاب، إلا أن كلها، أو قل معظمها، قد تم الاستيلاء عليها، وظلت تلك الكتب في حوزة الجار العراقي سنينًا إلى أن تم استرداد أكثر من ثلاثة آلاف كتاب فقط بعيد زوال الحكم الصدامي سنة 2003م.

مكتبة ناصر خسرو

صاحب "سفر نامة"

اسمه ناصر خسرو المروزي، والمروزي نسبةً إلى مدينة مرو الإيرانية، وهو رحالة وشاعر وفيلسوف، وله عدة مصنفات أهمها وأشهرها كتاب (سفر نامة) الذي يصور فيه رحلاته إلى جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر. وزار خسرو بلاد القرامطة في هجر والبحرين وأفاض في وصف أحوالهم ومعاشهم، ومرَّ بدولة الأخيضرية في وسط الجزيرة وكتب عنها. ودخل مصر الفاطمية فلقي فيها كرم ضيافة وحسن استقبال، وأمضى فيها ما ينوف على ثلاثة أعوام، وأسهب في وصفها في كتابه، وكال المديح للمستنصر الفاطمي ولمصر، وخرج منها وقد نُصّبَ كبيرًا لدعاة المذهب الإسماعيلي في خراسان.

وكان خسرو – كما قيل – في أول أمره سنيًا، وخدم في بلاط الدولة الغزنوية مدةً من الزمان. ولما ورثت دولة السلاجقة تركة الغزنويين التحق خسرو بخدمة جغري بك السلجوقي حاكم خراسان، ثم اعتزل منصبه، وساح في بعض من أرجاء بلاد الإسلام، ثم عاد إلى خراسان بعد سبعة أعوام من الغياب وألقى عصاه. وما أن عاد خسرو إلى بلاده حتى عكف على التبشير بالدعوة الإسماعيلية في السر، كما أنه اشتغل بالتأليف فوضع كتبًا في الفلسفة والشعر، وبقي على تلك الحال إلى توفي سنة 480هـ على الأرجح في قرية شوغان من أعمال يامغان الكائنة في شمال شرق أفغانستان. ولقد بلغ تقدير الأفغان لهذا الرجل الفيلسوف والشاعر الذي مات ودُفن في أراضيهم أن شيّدوا مكتبة جميلة للعامة تحمل اسمه.

ظلت مكتبة ناصر خسرو صامدة شامخة رغم ويلات الحرب المدمرة بين الأفغان والروس والتي أكلت الأخضر واليابس؛ غير أن فناءها - ويا للعجب! - جاء على يد بعض أبنائها المتعصبين المارقين، وأعنى بهم أهل العمائم السوداء من جماعة طالبان. ففي شهر أغسطس من عام 1998م، قام أفراد من تلك العصابة المقبورة بشن "غزوة" على المكتبة، والتي تعد واحدة من أفضل وأجمل المكتبات العامة في تلك البلاد المنكوبة، فأحرقوا ما يزيد على خمسين ألف مطبوعة من كتب ومخطوطات ووثائق بعضها يعود تاريخها إلى أكثر من عشرة قرون، وهو الأمر الذي سيتكرر بعد ذلك بسنوات على يد جماعة أخرى أكثر شذوذًا وأشد تطرفًا اسمها داعش.

يروي محافظ المكتبة الأفغاني لطيف بدرام، وهو شاعر رقيق، في حسرة اللحظات الأخيرة من حياة المكتبة. يقول بدرام إن أولئك الوحوش المتجردة من العقل والقلب دخلوا المكتبة بهمجية، ثم أضرموا النار فيها، ولما قاومهم بعض موظفيها المساكين قاموا بقتلهم ورمي جثثهم في النهر. أما بدرام فقد هرب منهم، وهو يحمل ما يقدر على حمله من كتب، إلى إحدى الكهوف، ومن بعده إلى أوروبا ليؤسس من هناك المؤتمر الوطني لأفغانستان. عاد بدرام إلى بلاده بعد زوال كابوس طالبان ليتنافس على كرسي الرئاسة؛ لكنه خسر السباق وخسرت معه أفغانستان مكتبتها الجميلة.

المكتبة الوطنية العراقية

البدايات

وُلدت المكتبة الوطنية العراقية سنة 1920م، إبان الاحتلال الإنجليزي للعراق. ففي تلك السنة اتفق جمع من الأدباء والعلماء والوجهاء العراقيين على جمع التبرعات من الأموال والكتب من أجل تأسيس مكتبة عامة. وبالفعل، فقد قامت المكتبة تحت اسم (مكتبة السلام) تيمنًا ببغداد مدينة السلام. وما هي إلا سنوات قليلة حتى أُلحقت المكتبة بوزارة المعارف وتغير اسمها إلى المكتبة العامة. وعلى الرغم مما مرَّ به العراق من أزمات سياسية إلا أن مسيرة المكتبة ورسالتها لم تتعطل ونموها وازدهارها لم يتوقف. وفي سنة 1987م، قامت الحكومة العراقية بدمج المكتبة الوطنية مع المركز الوطني للوثائق تحت اسم دار الكتب والوثائق الوطنية، وهو الاسم الذي ما زالت تُدعى به حتى اليوم.

المغول الجدد

بقيت دار الكتب والوثائق الوطنية ولأكثر من ثمانين عامًا نبعًا يشرب منه الباحثون الماء الزلال إلى أن وقعت الواقعة سنة 2003م. ففي أبريل من تلك السنة تعرضت المكتبة العراقية، مثلما تعرضت له بقية مؤسسات الدولة، إلى مصيبة ما بعدها مصيبة أثناء دخول القوات الأمريكية الغازية وبعد ذلك. فلقد أدى القصف الأمريكي إلى انكسار أنابيب المياه، ومن ثم تسرب المياه إلى الداخل؛ مما تسبب بغرق مجموعة من الكتب النادرة والوثائق الهامة وتلفها. كما أن المكتبة لم تسلم من حريق أشعله مجهولون لتأتي على ما يقدر بربع ما

في المكتبة من كتب، فضلاً عن تحول ما يزيد عن نصف الأرشيف الذي كان يضم مخطوطات تؤرخ لفترة الحكم العثماني إلى رماد. وزاد الطين بلة قيام مجموعة من الرعاع واللصوص باقتحام المكتبة نهارًا جهارًا من أجل نهب بعض موجوداتها الثمينة، مستغلين انفلات الأمن وتفشي الفوضى وانعدام النظام.

وقبل أن يضرب الأمريكيون ضربتهم أمر الرئيس الأسبق صدام حسين بنقل الأرشيف العراقي إلى مكان آمن، تحسبًا لتلف الوثائق في حال تعرضت المكتبة للقصف ممن كان يسميهم بمغول العصر، فكان قبو صغير في وزارة السياحة والآثار هو الملاذ الآمن للأرشيف آنذاك. ولسوء الحظ، فإن قبو وزارة السياحة والآثار لم يسلم هو الآخر من القصف الأمريكي؛ فكان أن تسربت المياه إلى الداخل لتُغرق ما يعادل ربع الوثائق المحفوظة!

اليوم، وبعد خمسة عشر عامًا من الغزو الأمريكي، عادت الحياة لتنبض ببطء في ردهات دار الكتب والوثائق الوطنية وممراتها، ولكن هناك وثائق ومخطوطات وكتب ذهبت ولن تعود إلى الحياة مجددًا. لم يكن العراقيون وحدهم من خسروا ما غرق واحترق ونُهب من موجودات تاريخية لا تقدر بمال، بل إن البشرية برمتها هي من خسرتها!

المجمع العلمي المصري

هدية نابليون

أورد عبد الرحمن الجبرتي في كتابه المشهور (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) وصفًا مستفيضًا للمجمع العلمي الذي بناه الفرنسيون سنة 1213هـ/ 1998م، نستقطع منه بعض السطور: "وفيه جملة كبيرة من كتبهم (يقصد الفرنسيين) وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصًا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعًا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار...".

وكما يتضح لك من وصف الجبرتي، فالمجمع المصري بناه الفرنسيون حين قدموا مصر، وله من العمر ما ينوف على المائتي عام، وهو يعد من أكثر المؤسسات العلمية عراقةً ليس في مصر فحسب، بل في ديار العرب

والمسلمين عامة. يحوي المجمع تحت سقفه ما يقرب من مائتي ألف كتاب في كل صنوف الفنون والعلوم. ويحتضن المجمع بين جدرانه أطلس عن (فنون الهند القديمة)، وآخر باسم (مصر الدنيا والعليا) يعود تاريخه إلى منتصف القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى النسخة الأصلية لكتاب (وصف مصر) الذي وضعه جملة من العلماء الفرنسيين، وهو عبارة عن عشرين مجلدًا. كما يضم المجمع كتبًا للرحالة الأجانب، ونسخًا للدوريات العلمية النادرة منذ عام 1920م. وإلى جانب ما يزخر به المجمع من كتب كثيرة ومخطوطات نادرة الوجود، فإن ساحته تشهد ندوات ومحاضرات يلقيها مصريون وغيرهم بهدف توطيد المعرفة ونشر أنوارها.

احتراق ذاكرة مصر

في ديسمبر من سنة 2011م، وأثناء وقوع ما كان يعرف بأحداث مجلس الوزراء، وهي عبارة عن اشتباكات بين الجيش المصري ومجموعة من المعتصمين أمام مبنى مجلس الوزراء المصري، تعرض المجمع العلمي إلى حريق هائل تسبب في فناء معظم مقتنياته. فمن جملة مائتي ألف مطبوعة ما بين كتب قيمة ومخطوطات أثرية وخرائط نادرة لم يتبق غير خمسة وعشرون ألف مطبوعة فقط. وخضع المجمع بعد ذلك إلى عمليات ترميم استغرقت نحو ثلاثة أشهر. وأهدى حاكم الشارقة الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، المشهور بعلمه وأدبه وفضله وحبه لمصر، ما يقرب من ثمانية آلاف كتابًا من أندر الكتب، بالإضافة إلى نسخة من كتاب (وصف مصر). كما أهدى سموه إلى المجمع نسخة من العدد الأول لجريدة الأهرام المصرية، علاوة على لوحات فنية توثق التاريخ المصري على مر الدهور.

مكتبة أحمد بابا

الشيخ الشجاع

بدايةً، من هو أحمد بابا هذا؟ يذكر صاحب (الأعلام) في ترجمته للرجل بأنه هو: "أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس: مؤرخ، من أهل تنبكت في إفريقية الغربية. أصله من صنهاجة، من بيت علم وصلاح. وكان عالمًا بالحديث والفقه. وعارض في احتلال المراكشيين لبلدته (تنبكت) فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيد إلى مراكش سنة 1002هـ، وضاع منه في هذا الحادث 1600 مجلد، وسقط عن ظهر جمل في أثناء رحلته فكسرت ساقه، وظل معتقلاً إلى سنة 1004 وأطلق فأقام بمراكش إلى سنة 1014 وأذن له بالعودة إلى وطنه. وتوفي في تنبكت. وكان شديدًا في الحق لا يراعي أحدًا. له تصانيف منها: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) في تراجم المالكية، و(كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج) وهي تراجم، وله حواش ومختصرات تقارب عدتها الأربعين أكثرها في الفقه والحديث والعربية، ما زال معظمها مخطوطًا. توفي سنة 1036هـ.

مفخرة تمبكتو

هذا ما يخص أحمد بابا، وأما ما يخص تنبكت، أو تمبكتو بلغة اليوم، فهي واحدة من أهم مدن دولة مالي، بل هي واحدة من أهم الحواضر الإسلامية في غرب إفريقية بالماضي. وكان يطلق على تنبكت، أو تمبكتو، جوهرة الصحراء، لما كانت تضطلع به فيما مضى من أدوار تجارية وثقافية هامة. لقد كانت المدينة ممرًا للقوافل التجارية، وموطنًا للعلماء والفقهاء، حتى أصبح

ينظر إليها كحاضنة للإسلام في الصحراء الكبرى، ومنارة تشع بأنوار الدين البهية على من فيها ومن حولها.

ونظرًا لمكانة تمبكتو العلمية، ولغزارة ما اجتمع فيها من مخطوطات فريدة، فضلاً عن منزلة أحمد بابا الرفيعة، فقد شيّدت حكومة مالي، وبدعم من منظمة اليونيسكو، (مركز أحمد بابا للتوثيق والأبحاث) سنة 1970 في وسط المدينة التاريخية. وفي سنة 2009 أُقيم "مركز أحمد بابا" على طراز أفخم وفوق مساحة أكبر، وذلك بدعم من حكومة جنوب إفريقية، ليشتمل على قاعة كبيرة للمحاضرات، ومثلها للمؤتمرات، إلى جانب مكتبة هائلة تحوي بين جدرانها الآلاف المؤلفة من المخطوطات. ولقد أخذ المركز على عاتقه منذ تدشينه مسؤولية جمع عشرات الآلاف من المخطوطات المنتشرة بين العائلات في تمبكتو، بقصد تصنيفها ومعالجتها وتصويرها خوفًا عليها من التلف والسرقة والضياع. ولا تقتصر مخطوطات المركز على موضوعات في الدين أو التاريخ فحسب، بل أنها تضرب بسهامها في ميادين أخرى وكثيرة، مثل الفلسفة واللغة والقانون والاقتصاد والطب وغيرها من مناحي المعرفة.

وبعد أربعة أعوام، وتحديدًا في أواخر شهر يناير من سنة 2013، تعرّض المركز للحريق نتيجة للقتال الدائر بين جماعات تابعة لمنظمة القاعدة الإرهابية والقوات الفرنسية. الرواية الأكثر شيوعًا وقبولاً بين الناس أن مجرمي القاعدة هم من أحرقوا المركز، مثلما قاموا قبل ذلك بتدمير المئات من الآثار التاريخية من مساجد وأضرحة. ومما قيل كذلك إن أتباع القاعدة كانوا ينهبون الآثار الإسلامية والمخطوطات القديمة لكي يبيعونها مقابل أموال طائلة. أما أولئك الذين يدافعون عن التنظيم الإرهابي فيتهمون الفرنسيين بحرق المكتبة لحقدهم على الإسلام والمسلمين ولتشويه صورة الجهاد والمجاهدين. وإذا كان المركز قد تعرض للحرق فهذا لا يعني أن

النار قد أكلت كل ما فيه من مخطوطات. يقول محمد زبير - رئيس الشؤون الإسلامية في مالي - إن إدارته سهرت على تهريب مخطوطات المركز قبل قدوم أنصار القاعدة واستيلائهم على تمبكتو. كما أن مجموعة من المتطوعين هبّوا لإنقاذ بعض المخطوطات وإخفائها في مكان آمن. وحسبنا ما قاله عمدة تمبكتو نفسه الذي خرج فيما بعد ليبشر الماليين والعالم بأسره بأن معظم المخطوطات قد سلمت -ولله الحمد والمنة -من عبث القاعديين ومن نار الجهل والتعصب والإرهاب.

مفكر الإخوان

وصف الموقع الإلكتروني والمسمى ب "الموسوعة التاريخية الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين"، أو إخوان ويكي، الدكتور محمد عباس بأنه أحد الكُتّاب المهتمين بالشأن الإسلامي، وبأن له جملة من المقالات الشمولية ذات النفس الإخواني. وللدكتور محمد عباس العديد من المؤلفات، نذكر منها: (بل هي حرب على الإسلام)، و(الوعي ينزف من ثقوب الذاكرة)، و(بغداد عروس عروبتكم)، و(بروتوكولات حكماء العرب)، و(من مواطن مصري إلى حسني مبارك)، و(الحدود في الإسلام كنز لا وباء). وله كتاب موسوم بـ (الإخوان المسلمون: باقة الإيمان وعطر الإسلام)، ولكن صادرته وزارة الداخلية المصرية سنة 2008، أي قبل اشتعال الثورة المصرية بسنوات قليلة.

شفيق و"البلاك بلوك"

في الثاني والعشرين من شهر مايو من عام 2013، وقبل أيام قليلة من وقوع الانقلاب وتحول الإخوان من حاكمين إلى مطاردين، شبَّ حريق هائل في مكتب المفكر الإسلامي محمد عباس في مدينة طنطا، فأتى على كل ما فيه من كتب ولما سُئل عمن فعل ذلك به، قال بلا مواربة: اللواء أحمد شفيق وعصابته من ميليشيات "البلاك بلوك". وأحمد شفيق، لمن لا يعرفه أو لمن لم يعد يذكره، هو وزير الطيران المدني الأسبق، ورئيس الوزراء الأسبق في زمن الثورة المصرية لشهر واحد، والمرشح الذي خسر الانتخابات بفارق ضئيل للغاية أمام الرئيس الإخواني المخلوع والمسجون الدكتور محمد مرسي. أما ما يُسمى بميليشيات "البلاك بلوك" فهم جماعة ينزعون إلى العنف، وهم

يخفون وجوههم بأقنعة سوداء لئلا يعرفوا. ولا أحد يعلم لمن يعمل هؤلاء المقنعون؛ وكل فريق يتهم خصمه بتحريك تلك الميليشيا في إثارة الفوضى وبث الرعب.

وعندما قالت الشرطة إن الحريق وقع بسبب ماس كهربائي، ردّ محمد عباس أن الحريق لم يقع بسبب الكهرباء التي كانت مقطوعة عن مسكنه ومكتبته، وإنما وقعت بتدبير من شفيق وبتنفيذ من "البلاك بلوك". وأما السبب في استهدافه هو ومكتبه فيعزوه المفكر الإسلامي إلى تصريحاته السابقة التي هاجم فيها جهاز أمن الدولة والحزب الوطني وحمّلهم فيها مسؤولية خطف بضعة جنود مصريين. كما أنه هاجم في وقت سابق عصابة "البلاك بلوك"، وطالب بإطلاق النار على أرجلهم إن هم رفضوا الكشف عن هويتهم.

ولم يذكر الخبر الخاص بحرق مكتبة الدكتور محمد عباس أي تفاصيل عن عدد الكتب؛ غير أني وجدت في مقالة للدكتور حلمي محمد القاعود أن المكتبة كانت تحمل بين جنباتها أربعين ألف مجلد، ظل صاحبها يجمعها كتابًا كتابًا منذ أن كان طالبًا في كلية الطب في فترة الستينيات من القرن المنصرم، والله أعلم إن كان هذا الرقم المذكور صحيحًا أم لا!

مكتبة هيكل

تحولات "الأستاذ"

لا أحد يجهل من هو محمد حسنين هيكل: الصحفي والمؤرخ والباحث اللامع. وإذا سمعت المصريين يقولون "الأستاذ" فاعلم أنهم يقصدونه بكل تأكيد. وُلد هيكل سنة 1923 م وتوفي سنة 2016، أي أنه عاش أكثر من تسعين سنة. وخلال عمره المديد، دبّجَ هيكل مئات أو ربما آلاف المقالات، وكتب عشرات الكتب، وتسنّم عرش جريدة الأهرام، واتصل بالملوك والقادة والزعماء. ولا يُذكر هيكل إلا ويُذكر جمال عبد الناصر الذي اتصل به وتقرب منه منذ بواكير ما يُسمى بالثورة سنة 1952م، وصار في عهده من المبشرين بالقومية والداعين لها بعد أن كان في أيام الملك فاروق نصيرًا للملكية، فسبحان من يغير ولا يتغير! وبعد أن قامت الثورة الخمينية خلع هيكل ثياب العروبة والقومية وصار لصيقًا بأصحاب العمائم ومقربًا منهم، لدرجة أنه صار يؤيد الادعاءات الإيرانية في الجزر الإماراتية والتي اُغتصبت منذ أيام الشاه المخلوع! وعلى أي حال، فالرجل قد مات وذهب إلى لقاء ربه، وليس لنا إلا الترحم عليه والدعاء له بالمغفرة، وعلى الله حسابه.

انتقام "الإخوان"

قبل عامين فأكثر من وفاته، تداولت وسائل الإعلام قيام جماعة من أنصار الرئيس المخلوع والمسجون محمد مرسي بإحراق مكتبة هيكل بالكامل. ففي شهر أغسطس من سنة 2013 هجم العشرات من جماعة الإخوان على مزرعة يمتلكها هيكل في قرية برقاش بمحافظة الجيزة، فأحرقوا جزءًا من

داره فيها، وأحرقوا بالكامل مكتبة ملحقة بالدار. وبحسب الخبر الذي تداولته وسائل الإعلام، حينها فإن المكتبة كانت تحوي المئات من الكتب، فضلاً عن عدد كبير من الوثائق النادرة. وذهبت جريدة "اليوم السابع" إلى أن عدد الكتب والوثائق التي التهمتها النيران بالكامل قد بلغ عددها ثمانية عشر ألف ما بين كتاب ووثيقة!. وأما السبب في قيام أولئك الإخوان بالاعتداء على مزرعة "الأستاذ"، وسرقة محتوياتها، وحرق مكتبته العامرة، يُعزى إلى مواقفه المباركة لانقلاب العسكر على حكم الإخوان. وبحسب الخبر المنشور كذلك، فإن اسم هيكل كان على رأس قائمة سوداء ضمّت جملة من الكُتّاب المصريين الذين عادوا الإخوان وأيدوا الانقلاب.

وبعد أن صارت مكتبة هيكل رمادًا خرج الكاتب الإسلامي فهمي هويدي بمقال يتعجب فيه تحميل الإخوان وزر حرق مكتبة هيكل دون تقديم أي دليل. وهاجم هويدي في مقالته تسيس الواقعة من قبل "الأستاذ" خاصة، والإعلام المصري عامة، بقصد شيطنة الإخوان وتشويه صورتهم وتأليب الناس عليهم. وعمومًا، لا يهمنا إن كان الإخوان، أو غيرهم، هم من قاموا بها، ولكن ما يهمنا أن مكتبة كانت تحوي المئات من الوثائق والكتب، أو ربما الآلاف بحسب بعضهم، قد صارت في غمضة عين طعمة للنار!

مكتبة السائح

طرابلس تحترق ثانية

في أوائل يناير من سنة 2014، شبَّ حريق كبير ومتعمد في واحدة من أقدم وأكبر مكتبات مدينة طرابلس اللبنانية؛ مما أدى إلى احتراق ثلثي محتويات المكتبة من الكتب والمخطوطات، وتلف الثلث الأخير بسبب مياه الإطفاء. وهكذا، وفي دقائق معدودة، تحولت الكتب، والتي كانت أعدادها تقارب ثمانين ألفًا، بألوانها المبهجة إلى كتلة واحدة من رماد أسود، فوا أسفاه واحسرتاه!

وبحسب الخبر الذي تناقلته وسائل الإعلام، فإن النار قد أضرم أوارها غاضبون وجدوا في المكتبة منشورًا مسيئًا للإسلام. وبحسب الخبر كذلك، فإن صاحب المكتبة، وهو قس مسيحي ويُدعى إبراهيم سروج، لم يكن على علم بالمنشور المذكور كما يقول. ومما يدعو للحزن، أن النار، وهي تسري مسرعة في الكتب، لم تكن لتفرق بين كتاب وآخر، فاحترقت نسخ كثيرة من القرآن الكريم وأكثر ما احترق كتب إسلامية!

ولحسن الحظ، فقد هبّ أهالي الفيحاء، وهو لقب مدينة طرابلس، هبة رجل واحد، شاجبين مستنكرين ما جرى لمكتبتهم التي اغتسلوا بأنوارها وشربوا من معينها عقودًا من الزمن. كان أهالي المدينة على وعي بأن حرق المكتبة ليس هو المقصود، وإنما حرق لحمة المجتمع الوطنية وخرق سفينته هو المقصود. ووقف كثير من اللبنانيين إلى جوار الأب إبراهيم وقفة تضامنية أمام وجه المكتبة المتفحم لدرايتهم بأن ذلك المنشور ما هو إلا دسيسة يراد

بها فتح باب الفتنة.

قيلت كلمات عديدة، وسال مداد كثير، فهذا خالد تدمري - أحد أعلام طرابلس، وأستاذ جامعي، ورئيس لجنة الآثار والتراث بالمدينة - يقول: "غطّت سماء الفيحاء هذا المساء سحابة سوداء جعلت ليل المدينة كئيبًا وحزينًا! وحلّت معها مكان رائحة زهر الليمون روائح الكتب المحترقة التي تنعصر عليها قلوب المثقفين والمؤمنين في مكتبة السائح... مع الأسف أتت النيران على كتب تلك المكتبة العامرة والنادرة، تمامًا كما سبق وأحرق الإفرنج مكتبة دار العلم في الميناء، وأحرق الأمريكان دور الأوقاف والمخطوطات في بغداد! ألا قاتل الله الجهلة في كل مكان ونجّا مدينة العلم والعلماء طرابلس من براثن الفتنة والتخريب! الخسارة كبيرة وعزاؤنا الوحيد أن الأب والكاتب والشاعر والمؤرّخ إبراهيم سرّوج بخير والحمد لله...".

طائر الفينيق

وعلى الرغم من الحروق والجروح فقد أصرَّ الأب إبراهيم على النهوض ثانية. وحمدًا لله، فإن الشيخ لم يكن ليقف وحده، فقد وقف إلى جانبه أهله وأصحابه وأهل الثقافة وخلق كثير، وتصّدت إحدى جمعيات المدينة لمهمة جمع التبرعات المالية. وبالفعل، فقد اجتمع من المال ما يفي ويكفي لإعادة ترميم المكتبة وشحن رفوفها كما في الماضي بالكتب. وهكذا، فقد انبعثت "مكتبة السائح" كما في الأساطير مثل طائر الفينيق من تحت الرماد لترفرف من جديد بجناحيها في فضاءات المعرفة الرحبة.

مكتبة الموصل

الكابوس

في شهر حزيران من عام 2014، سقطت الموصل، ثاني أكبر مدن العراق، في قبضة برابرة العصر ووحوش البشر من الدواعش، بسبب تخاذل القوات العراقية على أيام سيء الذكر نوري المالكي. وما أن دخل هؤلاء المجرمون مدينة الموصل حتى أذاقوا من لم ينفذ بجلده منها أشكال الهوان وألوان العذاب. ولضيق أفق هؤلاء المرضى وتعصبهم الأعمى وجهلهم المقيت فقد امتدت أيديهم للمراقد التاريخية ولمتحف المدينة بالتخريب والتدمير. وكما هو معلوم، فقد بقيت الموصل بمن فيها ومن عليها أسرى بيد هؤلاء العتاة الطغاة ثلاثة أعوام كاملة إلى أن تم بالأخير دحرهم منها وتطهيرها منهم، ولكن بعد أن غدت المدينة خرابًا يكاد يعتصر لمنظرها القلب حزنًا.

مجزرة الكتب

وعلى جري العادة، ما أن يدخل الغزاة بلدًا ما إلا ويعملوا على حرق مكتباتها بقصد طمس هوية البلاد ومحو ذاكرة العباد، فكيف سيكون الحال لو كان هؤلاء الغزاة من طينة الدواعش لا أبقى الله عليهم؟! فبعد أن فرغ أولئك المتوحشون من هدم آثار المدينة الضاربة بأطنابها في أعماق التاريخ وتجريدها من ذاكرتها التاريخية التفتوا إلى مكتباتها العامرة بالكتب والمخطوطات. دخل أعداء العلم والفكر والفنون إلى "مكتبة جامعة الموصل" المهيبة أكثر من مرة. وكانوا في كل مرة يغرفون من رفوفها آلاف الكتب ليقذفوا بها إلى خارج المكتبة، ثم يضرمون النيران فيها بدعوى أنها تدعو للكفر والإلحاد! استمر

أعداء الله ورسوله في صنع تلال من الرماد حتى أتلفوا ما يقدر بنصف مليون مادة ما بين كتاب ورسالة ومخطوطة. وبعد أن قام المجرمون بتفريغ المكتبة من محتوياتها أطلقوا النار في بنائها في منظر أبكى هواة الكتب والقراءة ومحبي العلم والأدب في العالم بأسره وليس في الموصل وحدها.

وبعد أن فعلت داعش بـ "مكتبة جامعة الموصل" ما فعلت ثنّتها بـ "المكتبة المركزية" للمدينة. ورغم توسلات أهل المدينة ووجهائها اليائسة لثني الإرهابيين السفلة عن ارتكاب مجزرة جديدة بحق العلم والفكر والإنسانية إلا أن أولئك الهمج أبوا إلا أن يلحقوها بسابقتها. ففي غضون دقائق قليلة خسر العراقيون، والبشرية من ورائهم، كتبًا فريدة ومخطوطات هامة تعود إلى قرون بعيدة، بالإضافة إلى تلف نسخ نادرة لصحف ومجلات عراقية يعود تاريخها إلى أوائل القرن التاسع عشر، علاوة على ساعة رملية نادرة الوجود ومقتنيات ثمينة عزَّ أن تجد لها نظير!

ولقد بلغ التعصب والتطرف والجهل بهؤلاء الرعاع إلى حد دخولهم المكتبات التجارية وحرق ما فيها من دواوين شعر ومن قصص وروايات لما تنطوي عليه - كما يفهون - من أكاذيب ومن تحريك للشهوات ودعوة للرذيلة! وذهب هؤلاء إلى ما هو أبعد، فاقتحموا البيوت على أهلها الخائفين، وأخرجوا ما وجدوا فيها من كتب إلى الشوارع، ثم أشعلوا فيها النيران، وهو الأمر الذي لا أظن أن هولاكو ووحوشه الضارية قد فكروا به حين اجتاحوا بغداد ودمروها على رؤوس أهلها!

صديق الأمس عدو اليوم

من منا لا يذكر محاولة الانقلاب الفاشلة على الرئيس التركي رجب طيب أردوغان في شهر يوليو من عام 2016! كيف لا نذكره ونحن من انشغلنا به أكثر مما انشغل به الأتراك أنفسهم؟! ما يهمنا هنا أن اسمًا، تعرفه القلة وتجهله الكثرة، برز إلى الواجهة وطفى على السطح منذ الساعات الأولى للانقلاب. كانت أصابع أردوغان وأنصاره تتجه بالاتهام إلى ذلك الرجل العجوز الذي يتخذ من الولايات المتحدة الأمريكية مستقرًا له. ذلك الرجل هو فتح الله كولن، أو جولان، أو غولان. فتح الله كولن ليس شيطانًا علمانيًا، بل هو زعيم إسلامي، وفوق هذا يُنظر إليه على أنه أستاذ أردوغان، وحليفه في الماضي، ولكن الخلافات السياسية بين الاثنين فرّقت بينهما وأجبرت كولن على مغادرة البلاد.

لقد تربى كولن منذ نعومة أظافره في بيت دين وتصوف، دائمًا ما يُقرأ فيه القرآن وتقام فيه الصلاة. ولحرص والديه على غرس قيم الدين الروحية والعقلية في نفس الصبي فقد ادخلاه مدرسة دينية ليتشرّب فيها أصول الدين وعلوم اللغة العربية، وزاد عليها اطلاعه وانفتاحه على الفلسفة والعلوم الوضعية. ولما اشتد عوده وحصل على ما يكفيه من ذخيرة علمية وروحية أخذ كولن يطوف البلاد، يخطب في الناس ويعقد المجالس والندوات، ليجيبهم عن أسئلتهم ويعظهم ويذكرهم بالله. واشتهر كولن بإيمانه وحرصه على مد جسور التفاهم بين أتباع الأديان، والعمل على نشر ثقافة التسامح

والتعايش بين أصحاب الأديان والمذاهب، ولعل هذا ما جعل الغرب يقبل به ويروج له.

غزوة مالاطيا

كما قلت في البداية، فقد اتهم الرئيس التركي أردوغان حليفه بالأمس وعدوه اليوم بالتخطيط للانقلاب على الشرعية، وهو ما ينفيه كولن جملة وتفصيلاً. بعد أيام قليلة من كسر شوكة الانقلابيين ورد كيدهم في نحرهم، قام بعض العوام الغاضبين من مؤيدي الرئيس أردوغان بالزحف إلى إحدى المكتبات التجارية في مدينة مالاطيا، في شرق تركيا. والمكتبة هذه هي أحد فروع مكتبة ||، وتُتهم بقربها من جماعة كولن وببيعها لمؤلفاته التي يبلغ عددها ستين مصنفًا. وعلى الرغم من المحاولات البائسة للعاملين بالمكتبة إلا أن نفرًا من الجماهير الأردوغانية قاموا بتكسير نوافذ المكتبة والعبث بمحتوياتها من الداخل ونهب بعض الأجهزة. وقام بعضهم بإضرام النار فيها، وكادت النار أن تأتي على المكتبة بالكامل لولا حضور سيارات الإطفاء التي أخمدت الحريق قبل أن يتفاقم.


الباب الثاني

الفصل الأول

حرق الكتب عند غير المسلمين

مثلما يقال بأن "الإرهاب لا دين له"، فإني أقول أيضًا إن "إتلاف الكتب لا دين له". فكما قام فئات من العرب والمسلمين، في ماضيهم وحاضرهم، بإتلاف كتب لدوافع شتى وبوسائل عدة، فقد قام مثلهم وأكثر منهم أناس من أمم أخرى بالفعل ذاته.

ولو غصت في بحور الماضي، ومن ثم عدت منها إلى سواحل الحاضر، واتجهت يمنة ويسرة، فسوف تجد نفسك أمام أحداث وحكايات لا تختلف في كثير ولا قليل عن أحداث وحكايات جرت وما زالت تجري في بلاد المسلمين. ربما تتغير الأسماء، وتتبدل الأزمان، وتتحول الأماكن، ولكن يبقى حرق الكتب واحد!

وإذا ما نحينا جانبًا أولئك الأشخاص الذين أحرقوا كتبهم بأيديهم لأسباب تخصهم، فإن جل الكتب قد أُحرقت بسبب شدة التعصب، والاعتقاد الزائف بامتلاك الحقيقة المطلقة، وغياب ثقافة التسامح وعدم القبول بالرأي الآخر. ولا يخفى عليك أن التعصب هو داء ابتليت به المجتمعات الإنسانية كافة منذ القدم وإلى يومنا هذا. وحتى المجتمعات المتحضرة في أيامنا هذه، والتي يتسع صدرها للآخر وتقبل بتعددية الآراء وبتنوع الأفكار، فإنها لا تخلو من وجود طائفة منها تستبد برأيها وتتعصب لأفكارها، وتتمنى لو كان الأمر بيدها لتحجر على الآخرين وتصادر حرياتهم وتكمم أفواههم.

فبسبب الاستبداد بالرأي والتسلط والتعصب الأعمى، نصب

الإمبراطور الصيني سنة 212 ق. م. محرقة هائلة للكتب في بلاده المترامية الأطراف، ثم أخذ يتتبع خيرة أهل بلاده وعقلائها من العلماء والمفكرين قتلاً وتشريدًا. ولقد بقيت هذه الفعلة الشنعاء وصمة عار تلاحق هذا الإمبراطور حتى وهو في قبره اليوم. وبسبب الاعتقاد الواهم بالاحتكار المطلق للحقيقة، فقد طاردت الكنيسة لقرون طويلة كل من انحرف عن مسارها وخرج عن إجماع باباواتها بالطرد واللعن والقتل والحرق. ولقد بلغ التعصب والغل بمتعصبي الكنيسة إلى قيامهم بنبش قبر المصلح اللاهوتي الإنجليزي جون ويكليف بعد موته بثلاثين عامًا، والانتقام من رفاته وحرق كتبه أينما وجدت!

التغريد خارج السرب

فريد عصره

انكزاغوراس، هو عالم فلكي وفيلسوف يوناني، وُلد نحو 510سنة ق.م.، وتوفي سنة 428 ق.م. على وجه التقريب. ويُعتقد أن انكزاغوراس كان معلمًا للفيلسوف الكبير سقراط، وأما كتبه فلم يصلنا منها شيء خلا شذرات من كتابه (في الطبيعة)، فضلاً عن إشارات من هنا ومن هناك في كتابات الفلاسفة اللاحقين من أمثال أفلاطون وأرسطو.

ولقد سبق انكزاغوراس كلا من نيكولاس كوبرنيكوس البولوني وجيردانو برونو الإيطالي بالقول إن الأرض هي من تدور حول الشمس وليس العكس، وإن الشمس هي سرة المجرة وليست هي الأرض كما هو السائد بين الناس آنذاك. ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إن كوبرنيكوس، والبشرية ككل، تدين بالفضل لهذا الفيلسوف اليوناني لأن كوبرنيكوس، وأثناء إقامته في إيطاليا، وجد أفكار انكزاغوراس فأخذ يدرسها ويدافع عنها.

وزاد انكزاغوراس على كل ذلك بالقول إن: "الشمس ليست إلهًا وإنما حجر محمي حتى البياض، وإن حجم الشمس يتجاوز بكثير حجم جزيرة بيلوبونيز الواقعة جنوب اليونان، وإن القمر لا يضيء من تلقاء نفسه وإنما يستمد نوره من الأرض، وإن الأجرام السماوية مكونة من مادة الأرض نفسها، وإن العناصر المادية الأربعة – التراب والماء والنار والهواء – لا تكفي مجتمعة لتفسير الطبيعة وخروجها إلى الوجود، بل أن هناك شيء ما وهو العقل الذي يربط بين تلك الأشياء".

ولقد لقي انكزاغوراس بسبب آراءه الصادمة عنتًا من أهالي أثينا الذين خالفوه وحاربوه. لقد رفض اليونانيون في ذاك الوقت، والكنيسة في أزمنة لاحقة، أفكار انكزاغوراس لأنها تسقط الأرض من مكانتها السامقة والمميزة بين الأجرام السماوية إلى منزلة متواضعة ومتدنية. وإذا ما خسرت الأرض مكانتها العليا، فإن الإنسان بدوره سيفقد مكانته وتميزه هو الآخر بين مخلوقات الله، وهذا ما جعل اليونانيين، ورهبان الكنيسة فيما بعد، يصّمون آذانهم عن سماعه.

ونتيجة لموقف أثينا المتعنت والمتصلب من أفكاره، فقد أُتهم انكزاغوراس بالإلحاد والكفر، ومن ثم صدر الحكم - كما يقال - بنفيه إلى خارج حدود البلاد وحرق كتبه التي حوت بين أحشائها تلك "الكفريات" العلمية. اليوم، وبعد ما يقرب من خمسة وعشرين قرنًا من موت انكزاغوراس أصبح العالم بأسره، خلا قلة لا تكاد تذكر، تؤمن بما أتى به وتسخر مما كانت أثينا تدافع عنه، فسبحان من يغير ولا يتغير!

زعيم السفسطائية

السفسطائي الأول

بروتاغوراس، فيلسوف يوناني، من أشهر أعلام الفكر السفسطائي في القرن الخامس قبل الميلاد، بل هو أول من تسمى بالسفسطائي، وكانت له بصمات على الفكر اليوناني في الأخلاق والسياسة. والفكر السفسطائي يقوم على الاقناع اعتماداً على الإدراك الحسي، وليس على البرهان العلمي أو المنطقي، ولذلك فقد اعتمد السفسطائيون على قوة الخطابة والشعر والجدل، فأضفوا الكثير من سحر البلاغة على اللغة اليونانية. وبحسب أنصار هذا النمط من الفلسفة فإنه لا توجد حقيقة ثابتة، بل هي نسبية. ويلاحظ أن الفكر السفسطائي ما كان يُنظر إليه نظرة سلبية لولا هجمات سقراط وأفلاطون عليه وعلى أتباعه.

وُلد بروتاغوراس في بلدة أبديرا اليونانية، وعاش في صقلية ردحًا من الزمن، ثم نزل أثينا واستقر بها بضع سنين، وارتبط اسمه باسم الحاكم بيركلس الذي طلب إليه كتابة الدستور للبلاد. ويعتقد بروتاغوراس أن الإنسان هو مقياس كل شيء، وهو وحده من يحدد الخير من الشر، والحق من الباطل. وإلى جانب اهتماماته الفلسفية، فلبروتاغوراس بعض الإسهامات في العلوم الطبيعية، وفي الهندسة، وفي النحو اليوناني.

الشك القاتل

وكان بروتاغوراس يحمل بين جوانحه رفضًا، أو قل شكًا، في وجود الآلهة اليونانية، وهو القائل: "لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة

أو غير موجودة وعلى أي صورة تكون؛ وذلك بسبب غموض الموضوع وقصر عمر الإنسان". ولقد تسببت هذه العبارة في تأليب اليونانيين عليه فاتهموه بالكفر والإلحاد، وأضرموا النار في كتبه، وأخرجوه من أثينا مهانًا مطرودًا. ويُعتقد أن حرق كتب بروتاغوراس هي أولى حوادث حرق الكتب في التاريخ.

ويُنسب إلى بروتاغوراس جملة من الكتب، أشهرها: (في الموجود)، و(في العلم)، و(في الآلهة)، و(الجمهورية)، و(الحقيقة)، وغيرها من كتب. ويقال إن كل كتبه قد جُمعت وأُحرقت في وسط المدينة بساحة "الأغورا" أمام الجمع بعد أن شكك بالآلهة، ولهذا فإنها قد عُدمت ولم يبق منها غير شذرات قليلة حفظتها لنا بعض المصادر التاريخية. ولهذا فإن المؤرخ الروماني "تاسيت" لم يكذب حين قال: "حين يصدر أمر بإحراق كتاب فإنه يصبح مرغوبًا ومطلوبًا خلال فترة منعه، في حين يسقط في النسيان بعد أن يسمح بقراءته". وعلى الرغم من ذلك، فهناك من يشكك في أن بروتاغوراس قد أُتهم بالزندقة وطُرد من أثينا؛ لأن أفلاطون كان يقول عنه إنه عاش ومات وهو ينعم بسمعة طيبة بين أهالي أثينا. ويُعتقد أن بروتاغوراس قد عاش نحو سبعين سنة، أنفق أربعة عقود من عمره في الفلسفة، ومات غرقًا في البحر وهو في طريقه إلى صقلية الإيطالية بعد طرده من أثينا سنة 420، وقيل 437 ق. م.

الهولوكوست الصيني

الإمبراطور المغرور

قبل مولد المسيح عليه السلام بأكثر من مائتي عام حفر الإمبراطور الصيني "تشي هوانغ تي" اسمه على جدار ذاكرة التاريخ باعتباره أول من نصب وقاد "هولوكوست" للكتب والكُتّاب في بلاد الصين المترامية الأطراف. لقد شنَّ الإمبراطور تشي، وبمشورة خبيثة من وزيره "لي سوا"، حربًا لا هوادة فيها على كل ما خطته الأقلام قبل أن تشرق شمس ملك تشي هوانغ. أراد تشي هوانغ أن يقول للصينيين إن التاريخ لم يبصر النور إلا على يديه؛ وإن ما قبله كان هو الفناء والعدم!

لم يقم تشي هوانغ بمجزرته للكتب بسبب جهله وأميته، ولم يلاحق أصحاب الأقلام ويقتلهم بسبب بغضه لهم وغيرته منهم، وإنما فعل كل هذا بسبب غروره وطغيانه. فمثلما يرخي الإمبراطور ظلاله على الحاضر فلا بأس أن يرخيها كذلك على الماضي، وهذا هو الجنون بعينه! لقد أوقد تشي هوانغ عشرات المحارق لعشرات الألوف من الكتب والمخطوطات خلا كتب الطب والصيدلة والزراعة والصناعة، وبطش بمن امتنع أن يمتثل لأوامره ونواهيه؛ ولكن التاريخ الذي قبله أبى إلا أن يحيى، والذاكرة التي قبله أبت إلا أن تبقى!

جيش من الصلصال

ولكي لا نبخس هذا الإمبراطور حقه وننتقص قدره نقول إن تشي هوانغ هو من مدَّ سور الصين العظيم لكي تتكسر عليه حراب قبائل البدو

من المغول والتتار، وهو من أقام مملكة مرهوبة الجانب موقرة الكرامة، واسعة الأطراف متباعدة الأكناف، وهو من ضبط شؤون البلاد واجتث الفساد والمفسدين وحارب الإقطاع وسنَّ القوانين.

لقد حسب تشي هوانغ أنه مخلد في الدنيا، وأن المُلك يبقى في نسله إلى يوم يُبعثون، وما علم أنه سيموت بعد حرقه للكتب وحرقه للمؤلفين ودفنهم أحياء بعامين أو ثلاثة أعوام حتف أنفه، وأن المُلك الذي ظن أنه بدأ معه ويمتد في نسله سرعان ما سينقرض بعد موته بأعوام لا تزيد على أصابع اليد الوحدة!

ولعل من نافلة القول التنويه إلى أن اسم تشي هوانغ تي قد عاد بعد قرون عديدة ليتردد صداه في كل العالم بعدما اكتشف فلاحون صينيون بالصدفة سنة 1974 وجود مقبرة مهيبة بناها الإمبراطور لنفسه؛ ضمت ثمانية آلاف تمثال من الصلصال لجنود وخيول وعربات حربية بالحجم الطبيعي لحراسة جثمانه بعد الموت. ولقد ذهب بعضهم إلى اعتبار هذا الاكتشاف الأثري العظيم "الأعجوبة الثامنة في العالم".

وجدتها... وجدتها!

خلطة من العبقرية

من منا لم يسمع بأرخميدس، أو أرشميدس كما في التراجم العربية؟! إنه رياضي، وفيزيائي، وفلكي، ومهندس، ومخترع، يوناني الأصل، وواحد من فلتات الزمن ونفحة من نفحات العبقرية. وُلد أرخميدس في سرقوسة، الواقعة في جزيرة صقلية الإيطالية، والتي كانت آنذاك تحت جناح الإمبراطورية اليونانية، سنة 287 ق.م. ولقد كرّس أرخميدس كل حياته للعلم دون ملل أو كلل، إلى أن مات سنة 212 ق.م.، مقتولاً بالسيف على يد جندي روماني بعد استيلاء الروم على سرقوسة.

وأرخميدس صاحب إسهامات جليلة ونظريات فريدة في ميادين الرياضيات والهندسة والفيزياء. فهو واحد من رواد حساب التفاضل والتكامل في الرياضيات، وله باع طويل في الهندسة، وله كذلك الفضل الكبير في اختراع الآلات المبتكرة، بما في ذلك محركات الحصار، وهو من اكتشف قانون الرافعات، وهو من اخترع طريقة لكتابة الأرقام الكبيرة، وهو من توصل إلى حساب المساحات والأجسام والمساحات الجانبية للأجسام. ومما هو جدير بالذكر أن أرخميدس قام بصنع سفينة هائلة الحجم جدًا، لحاكم سرقوسة، سُميت ب "سيراكوزيا"، وبروافع كان أرخميدس يحركها بأصابعه!

وأرخميدس هو صاحب العبارة المشهورة: "وجدتها... وجدتها" أو "أوريكا... أوريكا" باليونانية. وأما أصل هذه العبارة أن ملك سرقوسة

خالجه الشك في حقيقة التاج الذي صنعه له الصائغ. سار أرخميدس إلى حمام عام لكي يغتسل، وفكره كان مشغولاً بسؤال الملك، وفيما هو كذلك وجد أن منسوب المياه يرتفع كلما انغمس بجسده فيها، وأن للماء قدرة على دفع جسمه من أسفل إلى أعلى. وهنا قفز أرخميدس من المغطس وهو يعدو في الشارع فرحًا وهو يصيح: "أوريكا، أوريكا"، أي "وجدتها وجدتها". لقد استنتج أرخميدس أن جسده أصبح أخف وزنًا عندما نزل في الماء، وأن الانخفاض في وزنه يساوي وزن الماء المزاح، واستنتج كذلك أن حجم الماء المزاح يساوي حجم الجسم المغمور. وبناء على هذا الاكتشاف العظيم، بات من السهل معرفة ما إذا كان التاج مصنوع من ذهب أو نحاس. وكانت النتيجة أن توصل إلى أن التاج كان مصنوعًا من نحاس، ومن ثم فقد طارت رأس الصائغ بسبب عبقرية أرخميدس واكتشافاته المذهلة!

لا تفسد دوائري!

وفي سنة 212 ق.م.، وفيما كان أرخميدس منهمكًا في حل مسألة رياضية بداره، وهو لا يدري بسقوط سرقوسة بيد الرومان بعد حصار طويل وشاق دام عامين، دخل عليه جندي روماني ليطلب إليه أن يسير خلفه لمقابلة القائد الروماني، فأجابه أرخميدس بلا مبالاة: "من فضلك، لا تفسد دوائري!"، وهي العبارة التي ذهبت مثلاً، فما كان من الجندي إلا واخترط سيفه وضرب به أرخميدس ليسقط أرضًا مضرجًا بدمائه! وبظني أنها رواية مصطنعة تمامًا، كمثل التاج الذي صنعه الصائغ للملك! فعلى الرغم من أن أرخميدس كان عالمًا فذًا، إلا أنه كان في الوقت ذاته صداعًا في رؤوس الرومان وخنجرًا في خاصرتهم، بفضل اختراعاته العسكرية التي دوختهم وأوجعتهم وكبدتهم الخسائر. فهو من كان يسلط على سفنهم أشعة الشمس الحارقة بمرآة صنعها فتدب فيها النار وتلتهم سفنهم ومن فيها، وهو من كان يرميهم بمنجنيقات

هائلة فتتركهم حطامًا، ولهذا فقد كان رأس أرخميدس مطلبًا للرومان وهو ما تحقق لهم مع شديد الأسف.

وأما ما يخص ما تركه لنا أرخميدس من كتب، فإن الذي بقي منها أقل بكثير مما كتب إلينا. جاء في كتاب (الفهرست) للنديم ما يلي: "خبرني الثقة أن الروم أحرقت من كتب أرشميدس خمسة عشر حملاً ولذلك خبر يطول شرحه إلا أن الموجود من كتبه كتاب الكرة والاأسطوانة مقالتان كتاب تربيع الدائرة مقالة كتاب تسبيع الدائرة مقالة كتاب الدوائر المماسة مقالة كتاب المثلثات مقالة كتاب الخطوط المتوازية كتاب المأخوذات في أصول الهندسة كتاب المفروضات مقالة كتاب خواص المثلثات القائمة الزوايا مقالة كتاب آلة ساعات الماء التي ترمى بالبنادق مقالة".

بطل روما

البقاء للأقوى

وُلد الروماني أغسطس قيصر سنة 64 ق.م. لعائلة غنية وعريقة، وكان في صغره وشبابه يُدعى أوكتافيوس، ثم تبناه خاله ودكتاتور روما يوليوس قيصر الذائع الصيت. ولما قُتل يوليوس غيلة سنة 44 ق.م. تحالف أوكتافيوس مع مارك أنطونيو وليبيدوس فكسروا قتلة يوليوس قيصر كسرة عظيمة في موقعة فيلبي المشهورة سنة 42 ق.م. اقتسم المنتصرون الثلاثة مُلك البلاد فيما بينهم؛ لكن سرعان ما نشأ الخلاف واعصوصب الشر بينهم، فكان الظفر لأوكتافيوس الذي جرّدَ ليبيدوس من منصبه ونفاه، ثم سار إلى أنطونيو فهزمه في معركة أكتيوم. ولم يصبر أنطونيو على تجرع كأس الهزيمة المرّ فآثر أن ينتحر، ثم لحقت به معشوقته ملكة مصر كليوباترا البطلمية.

وبعد أن تم النصر لأكتافيوس وتخلص من منافسيه انصرف لمد رقعة الإمبراطورية الرومانية التي امتدت لمساحات واسعة في أوروبا وإفريقية وآسيا. حكم أكتافيوس، الذي لُقب فيما بعد باسم أغسطس، أربعة عقود، نعمت فيها روما بعهود من الاستقرار والرخاء لم تجده من قبل. وصدق أغسطس يوم قال لرعاياه حين قربت منيته: "لقد وجدت روما مدينة من طين، والآن أتركها لكم من رخام"!

حارق الكتب

وعلى الرغم من تخلي أغسطس في ظاهر الأمر عن مناصبه، إلا أنه كان مستبدًا بشؤون الحكم، ممسكًا بخيوط السلطة بين أصابعه، مهابًا مطاعًا.

وامتدت سطوة أغسطس ونفوذه إلى الكتب، فأُحرقت في عهده كتب كثيرة. لقد خاف أغسطس كتب النبوة التي كانت منتشرة في ربوع مملكته الواسعة الأرجاء، فأمر أتباعه بجمعها، وكان بعضها مكتوبًا باللغة اليونانية وبعضها الآخر باللغة اللاتينية، ثم أمر بحرقها، وقيل إن عددها بلغ ألفي كتاب، ولم يبق إلا على بعض كتب العرافة!

وشهد عهد أغسطس قيصر صورًا أخرى لحرق الكتب ومعاقبة أصحابها. فمن الأمثلة على ذلك، نذكر تيتوس ليفيوس، الخطيب المفوه والفيلسوف الموقر، والذي كان لا يتورع عن انتقاد أغسطس صراحة في خطبه وكتاباته. وكما هو متوقع، فقد أثارت خطب تيتوس وكتبه حفيظة الإمبراطور عليه، فأمر - بواسطة مجلس الشيوخ - أمرًا بحرق كتبه في روما علانية. وعلى ما يبدو، فإن قلب تيتوس لم يحتمل أن يرى كتبه تُهان وتُحرق هكذا، فقرر التخلص من حياته وانتحر.

رسول أم شيطان؟

شاؤول لماذا تضطهدني؟

بولس الرسول، أو بولس الطرسوسي - نسبة إلى طرسوس الواقعة في جنوب آسيا الصغرى -، هو أحد كبار أعلام المسيحية الأوائل، وهو الرجل الثاني بعد المسيح ابن مريم عليه السلام. كان اسمه قبل أن يتحول إلى المسيحية شاؤول أو شاول، وكان من أب وأم يهوديين، وكان شديد التعصب ليهوديته، حاقدًا أشد الحقد على النصرانية، حاسرًا عن ذراعه مشمرًا عن ساقيه في محاربة دين المسيحية واضطهاد أتباعها. وبعد أن كان بولس سوطًا على ظهور أتباع المسيح وسيفًا مسلطًا على رقابهم، انقلب بين عشية وضحاها إلى تابع مخلص للمسيح ورسول يبشر بالديانة الجديدة!

كيف حصل ذلك؟ لا أحد - غير الله عز وجل - يعرف سر تحول هذا اليهودي المتحرق لديانة المسيح غيره هو، أي شاول نفسه. لقد ادعى شاول، أو بولس فيما بعد، أن المسيح عليه السلام ظهر له في المنام، وهو في طريقه إلى دمشق، وعاتبه على ما يفعله بحق المؤمنين، ثم أمره أن يكون للمسيح لسانًا ورسولاً يبشر بالدين الجديد. وهكذا نام شاول وهو أشد الأعداء للمسيح عليه السلام ومن آمن به ليجد نفسه في صبيحة اليوم التالي مؤمنًا به ورسولاً له!

يروي لوقا قصة تحول بولس قائلاً: "أما شاؤول فكان لم يزل ينفث تهددًا وقتلاً على تلاميذ الرب، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسًا من الطريق رجالاً ونساءً يسوقهم

موثقين إلى أورشليم، وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق وبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتًا قائلاً له: "شاؤول، شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده، صعب عليك أن ترفس مناخس، فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال الرب: قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل...".

دخان في أفسس

ومما لا شك فيه أن بولس يعد مؤسس الديانة المسيحية حقًا، وليس المسيح عليه السلام، فهو من جعل المسيح إلهًا وابنًا لله، وهو من تكلم في صلب المسيح عليه السلام تكفيرًا عن خطايا البشر، وهو من تكلم في قيام المسيح بعد موته، وهو من حرّم الختان، وهو من جعل المسيحية للعالمين وليس لبني إسرائيل. بكلمات أخرى، بولس هو من حرّف المسيحية الحقيقية وخلطها بمعتقدات وأفكار وثنية مأخوذة من الأديان القديمة!

وبعد أن تحول بولس إلى المسيحية، وخلع على نفسه صفة الرسول، أخذ يتجول في آسيا الصغرى وأجزاء من أوروبا يدعو الناس إلى اعتناق المسيحية ويبني لهم الكنائس. واهتم بولس بكتابة الرسائل، فكتب رسالة إلى أهالي روما، وأخرى إلى أهالي كورنثوس، ومثلها إلى أهالي غلاطية، وغيرها من رسائل يدعو الناس فيها إلى الدخول في دين المسيح. ما يهمنا من هذا كله، أن بولس حين نزل مدينة أفسس طلب إلى كل من صّدقَ دعوته وآمن بالمسيح أن يجلب كل ما تحت يده من كتب الوثنيين، ثم أحرقها على مرأى ومسمع من الناس جميعًا. ويقال إنهم قدروا ما تم حرقه من كتب فبلغ خمسين ألف دينار من الفضة!

آريوس الملعون

صراع الوحدانية والتثليث

آريوس عالم مثقف، وواعظ مفوه، وزاهد متقشف، وُلد في ليبيا سنة 256م، وتتلمذ على يد لوقيانوس في الإسكندرية علوم اللاهوت. وكان آريوس، كمثل المسيحيين الأوائل، ممن لقي العنت والخسف من أباطرة الروم الوثنيين ردحًا من الزمان. ولما تنصّر الإمبراطور قسطنطين الأول رجحت كفة المسيحيين وصارت لهم الصولة والجولة على غيرهم.

آريوس هذا، والذي يُنسب إليه مذهب الآريوسية، هو القائل بأن الله إله واحد غير مولود، أزلي، وأما الابن - أي المسيح عليه السلام - فليس أزليًا، وهو خرج من العدم مثل غيره من المخلوقات حسب مشيئة الله، ومن ثم فهو ليس بإله، ولا يملك شيئًا من صفات الألوهية، إلا أن الله منحه مجدًا جعله فوق كل الخلائق. بكلمات أخرى، آريوس كان يريد توحيد الله وتنزيهه، ولذلك لم يقبل بتأليه المسيح عليه السلام، ولم يقبل قولهم إن الابن هو إله حق من إله حق. خلاصة القول، أراد آريوس بدعوته أن يفصل بين الخالق والمخلوق، وأن يضع المسيح عليه السلام ضمن المخلوقات وفي عدادها؛ ولكنه رغم بشريته فهو خليفة الله وتاج مخلوقاته.

ولقيت دعوة آريوس رواجًا شديدًا بين الناس؛ ولكنها اصطدمت بالرأي القائل بألوهية الابن، وهو ما تسبب في إثارة خلافات شديدة وصلت أصداؤها إلى الإمبراطور قسطنطين في آسيا الصغرى الذي هاله ما رأى من انقسام النصارى، وأدرك خطورة تلك الانقسامات على دولته المترامية

الأطراف. ولهذا فقد دعى قسطنطين إلى انعقاد مجمع نيقية سنة 325م للنظر في دعوة آريوس، وهو أول المجامع المسكونية المسيحية. وحضر قسطنطين بنفسه الاجتماع، الذي شهد أكثر من جلسة، وحضره أكثر من ثلاثمائة أسقف، وبالغ بعضهم فرفع العدد إلى أكثر من خمسة آلاف.

طرد ولعن وحرق

وانتهى المجمع إلى تقرير ألوهية المسيح عليه السلام، وأنه ابن الله، وأنه مولود منه غير مخلوق، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. وأما آريوس فقد رُمِيَ بالهرطقة، وطُرد هو وجماعته، ووُصم هو ومشايعيه بأعداء المسيحية، وصدر عن هذا المجمع ما عُرف فيما بعد باسم "دستور الإيمان النيقاوي"، وفي نصه: "أن المسيح إله حق من إله حق، وأنه مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر". جاء في كتاب (النصرانية والإسلام) لمؤلفه محمد عزت الطهطاوي: "إن قرارات مجمع نيقية تنص على ما يلي: إثبات ألوهية المسيح، وتكفير من يذهب إلى أن المسيح إنسان، وعلى تكفير آريوس وطرده وحرمانه من عضوية الكنيسة، وإحراق جميع الكتب التي لا تقول بألوهية المسيح، وتحريم قراءتها، ومن هذه الكتب أناجيل فرق التوحيد، التي تقر ببشرية المسيح، وتفيد أنه رسول فقط ومن هذه الأناجيل إنجيل برنابا".

وأما ما يتصل بكتب آريوس فقد حُرّقت ، وقُتِل كل من يخفيها عنده ويتستر عليها. وبالرغم مما لقيته الآريوسية فيما بعد من حصار وتضييق وتهميش إلا أنها لم تنقرض بالكلية، وما زال بعض تصوراتها للمسيح عليه السلام حاضرًا عند فرق مسيحية ظهرت فيما بعد، مثل شهود يهوه والمورمية المعاصرين.

بدعة نسطور

لاهوت وناسوت لا يمتزجان

نسطوريوس، أو نسطور فحسب، هو بطريرك القسطنطينية، وأحد أساطين الدين المسيحي في القرن الخامس الميلادي، وإليه يُنسب المذهب النسطوري. ونسطور هو من قال بأن للمسيح عليه السلام جوهران أو طبيعتان: إلهية وبشرية؛ وأن تلك الطبيعتان لم تتحدا وتنصهرا في جسد المسيح، أو لنقل إنهما اتحدا اتحادًا ذا خاصية نفسية وأدبية وليس اتحادًا ذا خاصية ميتافيزيقية. وتأسيسًا على ذلك، فإن مريم والدة المسيح لم تلد إلهًا، بل ولدت بشرًا حلّت فيه كلمة الله أثناء العماد وفارقته عند موته على الصليب، ومن ثم لا يجوز أن يقال لها: والدة الإله، وإنما يقال لها: والدة المسيح أو حاملة المسيح؛ لأنها ولدت بشرًا وليس إلهًا، وهذا الناسوت هو الذي تألم وقضى نحبه على الصليب. وفي هذا الصدد يقول نسطور لصاحب المدرسة اللاهوتية في الرها: "المسيح يا هيبا مولود من بشر والبشر لا يلد الآلهة... كيف نقول إن السيدة العذراء ولدت ربا ونسجد لطفل عمره شهور لأن المجوس سجدوا". ولا جدال في أن تلك التصورات اللاهوتية تخالف ما تقوم عليه الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية.

ولقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في مصنفه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ما يلي: "نسطورس يقول إن مريم العذراء ليست بوالدة إلها على الحقيقة ولذلك كان اثنان: أحدهما الذي هو إله مولود من الأب، والآخر الذي هو إنسان مولود من مريم، وأن هذا الإنسان الذي يقول إنه

مسيح بالمحبة متوحد مع ابن إله ويقال له إله وابن إله ليس بالحقيقة ولكن موهبة واتفاق الاسمين والكرامة شبيها بأحد الأنبياء. فبلغ قوله بطرك الإسكندرية فأنكر ذلك وكتب إليه يقبح عليه فعله ومقالته ويعرفه فساد ما هو عليه ويسأله الرجوع إلى الحق، فجرت بينهما رسائل كثيرة، ولم يرجع نسطورس عن مقالته...".

جراح النساطرة

ولقد تسببت آراء نسطور في إثارة ضجيج وعجيج، انتهى بانعقاد المجمع المسكوني أفسس سنة 431م، الذي اتحد فيه الأساقفة على محو الهرطقة النسطورية من كافة الكنائس وعلى حرق كتب نسطور. وعلى الرغم من تكذيب الكنيسة لنسطور ولعنه ولعن من لا يلعنه وحرمانه ونفيه إلى صعيد مصر أو صحراء ليبيا أو البتراء، ليموت فيها شريدًا طريدًا غريبًا، إلا أن "بدعته" لم تمت، بل وجدت من يحمل أمانتها من بعده ويدافع عنها ويُعذب من أجلها. ولما انهالت سياط العذاب على ظهور النساطرة وجدوا في دولة بني ساسان كهفًا يأوون إليه ويعتصمون به هربًا من حملات الاضطهاد التي طالتهم؛ وبهذا انفصلت الكنيسة النسطورية عن الكنيسة البيزنطية في القسطنطينية. ولما استشعر الفرس الخوف من تنامي النسطورية في بلادهم، وعلى الأخص في أيام ملكهم سابور الثاني، مالوا عليهم فعملوا السيف في رقابهم؛ مما اضطر بقيتهم إلى الفرار إلى شرق الجزيرة العربية. ولا يعني هذا أنها بقيت محصورة في الشام والعراق وشبه الجزيرة، بل نجد أنها اتجهت شرقًا فبلغت الهند والصين. واليوم يُسمى فريقًا من النساطرة الذين استمالتهم الكنيسة الكاثوليكية بـ "الكلدان"، وأما من بقي منهم على مذهب نسطور فيُدعون ب "الأشوريون".

نجمة الصباح

حجر في ماء راكد

يعد الإنجليزي جون ويكليف واحدًا من أبرز المفكرين ومن أشهر دعاة الإصلاح الديني إبان عصور النهضة الأوروبية، وتحديدًا في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو من أطلق عليه المؤرخون لقب "نجمة الصباح لحركة الإصلاح". وُلد ويكليف ما بين عامي 1320م - 1330م، وعاش ومات سنة 1384م في إنكلترا، ورُسّمَ كاهنًا وهو ابن العشرين، ونال الدكتوراه في اللاهوت من جامعة اكسفورد العريقة وهو ابن الأربعين، ثم اشتغل أستاذًا بها. ونظرًا لما حازه من شهرة في علوم اللاهوت، فقد وقع اختيار الملك إدوارد الثالث على ويكليف لمفاوضة مندوبي البابا غريغوري الحادي عشر في بعض المسائل المختلف عليها.

ويحسب لجون ويكليف الفضل في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية حتى يتمكن كل مواطن إنجليزي من قراءته دون حاجة إلى توسيط الكنيسة كمترجم ومفسر، وهي خطوة شجاعة بحق لم يقدم أحد على فعلها من قبل؛ الأمر الذي تسبب في إثارة سخط الكنيسة عليه ومهاجمتها له إلى أن فُصل من التدريس بجامعة أكسفورد، وكاد أن يُقبض عليه بأمر البابا لولا أن الملك احتضنه عنده في قصره وحماه منهم. وإلى جانب ترجمته للكتاب المقدس، فقد وضع ويكليف جملة من الكتب الأخرى مثل: (خلاصة الوجود)، و(أفعال النفس)، و(تفكير الله)، و(الوجود الكلي)، و(الحوار الثلاثي بين الحقيقة والكذب والحصافة)، و(في السلطة البابوية)،

وغيرها من كتب كثيرة.

الانتقام من العظام

وفي الأعوام الأخيرة من حياته هاجم ويكليف الكنيسة، وانتقد سلطتها المطلقة، وأدان انغماس أتباعها في حياة اللعب واللهو، ودعى إلى تجريد الكنيسة من أملاكها، وانتزاع صلاحياتها الواسعة، ورفع يدها عن أمور الحكم وشؤون السياسة، والانصراف إلى العبادة والعقيدة؛ الأمر الذي أوغر عليه صدر الكنيسة فسارعت إلى اتهامه بالإلحاد. وبعد أن مات ويكليف سنة 1384م بعد إصابته بشلل نصفي، وشبع موتًا، أمرت الكنيسة بنبش قبره بعد موته بنحو ثلاثين سنة! جاءوا إلى قبره سنة 1415م، وأخرجوا عظامه، ثم رموا بها في أقرب مجرى ماء، وقيل إنهم أحرقوها ونثروا رمادها في الهواء. وبعد أن شفوا غليلهم منه، انطلقوا يفتشون عن كتبه أينما كانت فكانوا ينتزعونها ويحرقونها ، وما حسبوا أنهم مهما أحرقوا من كتب فإن الأفكار لم ولن تحترق أبدًا. ولحسن حظ ويكليف، ومن يؤمن مثله بضرورة إصلاح الدين وتقويم سلوك الكنيسة، فإن شرارة دعوته الإصلاحية قد طارت إلى خارج حدود إنكلترا، فكانت أفكاره وقودًا لحركات ثورية فكرية وسياسية، كثورة الفلاحين سنة 1381م، وحركة يان هوس. والعجيب أنه في السنة التي انطفأ فيها نجم ويكليف ووري التراب، كان هناك نجم يُولد في السماء الألمانية اسمه مارتن لوثر، وهو الرجل الذي سيشطر أوروبا مذهبيًا إلى فريقين، وهذا ما سنعرّج عليه في القادم من الصفحات.

البطل التشيكي

شوكة في حلق الكنيسة

يان هوس هو مصلح ومفكر ولاهوتي وأستاذ جامعي في جامعة تشارلز بمدينة براغ التشيكية، وهو من ولاية بوهيميا التشيكية، اطلع على الأفكار التنويرية والتجديدية للمصلح الإنجليزي جون ويكليف فتحمس لها ودافع عنها. وكمثل كثير من الدعاة، فقد التف خلق كثير من التشيكيين حول هوس بعد أن استشعروا في كلامه الصدق والإخلاص، وآمنوا مثله بضرورة إصلاح أحوال الكنيسة وتقويم أوضاعها.

لقد أخذ هوس على الكنيسة انحرافها عن جادة الحق، واستغلالها للدين أسوأ استغلال، وامتطاء قساوستها ومطرانها ظهر الدين لغايات دنيوية. وانتقد هوس مظاهر التبجيل والتقديس التي تحيط بالبابا، ووصمه بالمسيح الدجال، وهاجم بضراوة قيام الكنيسة ببيع صكوك الغفران على البسطاء من الناس. وكما هو معلوم سلفًا، فقد أسخطت كلمات هوس الكنيسة عليه وخافت على نفسها غائلة دعوته، فسارعت إلى كسر شوكته قبل أن تقوى وإجهاض دعوته قبل أن تولد.

أفكار أقوى من النار

ولعجز الكنيسة عن مناظرته والرد على أفكاره، فقد رفعت في وجه هوس سيف التكفير والهرطقة. وفي أحد أيام شهر يوليو أُستدعي هوس للمثول أمام المحكمة، فلما وصلها غدروا به وقبضوا عليه رغم وعود الأمان التي قطعوها على أنفسهم. لم يمهل الجلادون هوس ليدافع عن نفسه، أو

ليعتذر لهم ويتبرأ من فكره، فأمسكوا به، وأحرقوا كتبه أمام ناظريه، ثم شدّوا وثاقه إلى خشبة وأشعلوا النار فيه وهو حي. ومما هو جدير بالذكر، أنه وفي نفس العام الذي أحرقت فيه الكنيسة هوس وكتبه كان بعض جلاوزتها ينبشون قبر المصلح الإنجليزي جون ويكليف في إنكلترا ويحرقون عظامه ومؤلفاته! وعلى الرغم من حرق بدنه بالنار، إلا أن أفكاره لم تحترق، ووجدت من بعده من ينافح عنها ويبشر بها، وهؤلاء على نوعين: الهوسيون، وهم ناس موصوفون بالاعتدال، وكنيستهم ما زالت قائمة اليوم في تشيكيا، والتابوريتيون، وهم ناس موصوفون بالتشدد، لا يقبلون إلا ما يجدونه في كتابهم المقدس. ولقد أشعل مناصروه بعد قتله ثورة عارمة في تشيكيا كادت أن تأتي على الأخضر واليابس، ولقد ظلت جمرة تلك الثورة مشتعلة لسنوات طويلة.

وكما نجد بصمات جون ويكليف على يان هوس وعلى أفكاره، فإننا نجد بصمات هوس على مارتن لوثر وحركته الإصلاحية البروتستانتية. وفي عام 1520 اعترف لوثر في رسالة لصديقه جورج سبالاتين: "بشرت وعلّمت حتى الآن وبدون قصد مني ما خلص إليه يان هوس، ونحن جميعًا بشكل أو بآخر من أتباع هوس". واليوم، يجد الزائر لمدينة براغ التشيكية، وفي وسط ساحاتها القديمة، تمثالاً ليان هوس وهو منتصب في شموخ فوق الأعواد التي أُضرم فيها النار.

الراهب الثائر

رجس من عمل الشيطان

جيرولامو سافونارولا، راهب إيطالي متشدد وواعظ نصراني متحرق. بدأ سافونارولا سنة 1490م في إلقاء خطبه المتطرفة ومواعظه الدينية بقصد إصلاح ما فسد من الدين وتقويم ما تفسخ من الأخلاق في مدينة فلورنسا الإيطالية الجميلة. كان سافونارولا، رغم تزمته وتحجره، خطيبًا مصقعًا بحق وواعظًا مؤثرًا وسياسيًا معارضًا، استمال إليه جموع من الناس بفضل ما خصّه الله من ملكة خطابية وبلاغة لفظية.

ولقد بلغ التعصب بهذا الراهب إلى حد اتهام الكتب بإفساد عقائد الناس وتعليمهم الرذائل، فكان في خطبه يشن الهجوم على الكتب التي تعلم الناس ما لا يريده الرب لهم، ويلعن الفنون التي تدغدغ الغرائز وتهيج الشهوات. وكان لخطب سافونارولا أثر السحر على نفوس أتباعه، فكانوا يغيرون على بيوت الأثرياء في فلورنسا وينهبون ما يجدونه فيها من لوحات وكتب، ثم يأتون بها إلى ساحة المدينة، فيلقون بها وسط أكوام من الحطب، ثم يشعلون فيها النيران، وهو يهتفون ويحتفلون!

الينابيع الأولى

وشيئًا فشيئًا، أخذ سافونارولا يدعي النبوءة، وتجرأ على اتهام البابا ألكسندر السادس في أخلاقه، وتنبأ بعقاب ينتظر كنيسة روما الكاثوليكية ما لم تتغير وترجع إلى دين الحق. ولما ذاع صيته وكثر جمعه استدعاه البابا ألكسندر السادس إلى روما حتى يكشف له عن نبوءته الخاصة هذه؛ غير أن

سافونارولا امتنع عن الذهاب إلى روما مدعيًا أن صحته لا تعينه على تحمل وعثاء السفر ومشقته. ولما امتنع عن الحضور أمره البابا أن يكف عن إلقاء المواعظ؛ لكن سافونارولا واصل إلقاء خطبه النارية ضاربًا بتحذيرات البابا عرض الحائط، فما كان من البابا إلا وأسقط عضويته في الكنيسة.

ولما استمر سافونارولا في التعريض بكبير الفاتكان قام البابا بتخيير مدينة فلورنسا بين أمرين: إما الحرمان الكنسي وتحريم العبادة في المدينة ما لم تجبر هذا الراهب المشاكس على الحضور إلى روما؛ وإما أن تغلق فمه وترغمه على السكوت وتجبره على طلب الغفران، لعل البابا يعفو عنه ويتغمد ذنبه.

ولما ضاقت الدائرة على سافونارولا، وسُدّت أبواب الدنيا في وجهه، أذعن لإرادة البابا، فسيق إلى المحكمة التي حكمت بشنقه سنة 1498. وبالفعل، فقد شُنق هذا الراهب المتعصب، وأُحرقت جثته، وأُحرقت معها كتبه كذلك. ومما هو جدير بالذكر، أن سافونارولا ينتمي في الأصل إلى أسرة إيطالية نبيلة، وكان قد درس في شبابه الفلسفة والطب، ثم إنه التحق فيما بعد بالسلك الكنسي ليصبح راهبًا دومينيكانيًا منغلقًا. وعلى الرغم من تزمته الديني، إلا أنه يُنظر إلى سافونارولا كمصلح ديني أراد بخطبه وكتبه أن يعيد الكنيسة إلى سيرتها الأولى بعد أن غلب عليها الشرور والضلال، وأن يعيد الناس إلى ينابيع الدين الصافية بعد أن غمّهم الشيطان وجرّهم إلى بؤر الفساد.

إعصار لوثر

الثورة على صكوك الغفران

هل خطر في بال مارتن لوثر، ذاك الراهب الألماني، أنه سيشطر أوروبا إلى نصفين متحاربين متباغضين باسم الرب بمجرد كلمات قالها وأفكار نادى بها؟ كيف كانت حال أوروبا حين ظهر لوثر إلى الوجود؟ كانت أوروبا تعيش في جلباب كنيسة مستبدة ومتسلطة، تقبض على رقاب العباد، وتحصي عليهم الأنفاس، وتحاسبهم على الأفكار، وتلهب ظهورهم بالسياط، وتحدد لهم الخطأ من الصواب. لقد ضاق صدر لوثر وضجت نفسه من شدة تسلط الكنيسة، ومن احتكارها للحقيقة، ومن تزايد مظالمها، وتراكم فظائعها. ومما زاد الطين بلة وأخرج لوثر عن صمته ما رآه من قيام الكنيسة ببيع صكوك الوهم، أو ما كانت تُسمى حينها بصكوك الغفران، للسذج والأغبياء من الناس، ظنًا منهم أنه بذلك ضمنوا الجنة وأمنوا النار!

لم يسكت لوثر عن تلك المخازي البابوية، ولا عن تلك المتاجرة بدين المسيح واحتكار فهمه وتفسيره، فخرج إلى الناس يدعوهم للتصدي لعبث الكنيسة بالدين والمتاجرة به من خلال صكوك وهمية هدفها استغلال الناس والضحك على ذقونهم. ولقد لقيت دعوة لوثر قبولاً من خلق كثير في القارة الأوروبية ممن لديهم تشوف للحرية بعد دهور من القيود، وللنور بعد عصور من الظلام. وكما كان متوقعًا، فقد أفزعت دعوة لوثر الكنيسة وملئت قلبها بالرعب، فعقدت مجالس المناظرة بقصد كسره وتخطئته فما كان منه إلا أن ظهر عليهم وأفحمهم. وردت الكنيسة عليه بقيام البابا بإصدار منشور

ينكر فيه على لوثر أفكاره، فأخذ لوثر هذا المنشور البابوي وأحرقه علانية في جوتنبرغ. ونشر لوثر كتابًا جمع فيه خمسة وتسعين بندًا هاجم فيه الكنيسة وتلاعبها بالعقول ومتاجرتها بالصكوك، فجنَّ جنون الكنيسة وأصدرت قرارًا بحرق كتابه، وزادت عليه بتحريم طباعة أي كتاب يتعلق بالكتاب المقدس دون الرجوع إلى الكنيسة، وأصدرت قائمة طويلة بكتب محرم قراءتها وطبعاتها. ولكي تضمن الكنيسة التزام الناس بأوامرها فقد أطلقت وحوشها الضارية من أتباع محاكم التفتيش لاصطياد كل من تسول له نفسه مخالفة أوامر الكنيسة، وخلال عامين فقط أعدمت ستين رجلاً حرقًا بالنار.

وزاد لوثر على ذلك بأن قام بترجمة التوراة والإنجيل إلى الألمانية؛ وكان لا يقرأ قبلاً إلا باللغة اللاتينية، وهي اللغة التي كان جلّ الألمان وغيرهم من الأوروبيين يعجزون عن فهمها. وإمعانًا في تكسير قوانين الكنيسة ومخالفة قواعدها قام لوثر بالزواج من راهبة مثله، وعاش هو وإياها حياة هادئة وهانئة حتى توفاه الله سنة 1546م.

ثمار لوثر

التقط بعض ملوك أوروبا وأمرائها دعوة لوثر الإصلاحية، وهي ما سُميت بالبروتستانتية، فمدوا له أيديهم أملاً في تحررهم من أغلال الكنيسة واستقلالهم عن سيطرتها، وهو ما أدى فيما بعد إلى بزوغ ما يُعرف بالقوميات. ولولا احتضان بعض الملوك للوثر في بلاطهم لما سلم من الكنيسة ولكان قد أُحرق هو وكتبه بالنار. ولا حاجة للتذكير بأن دعوة لوثر قد تسببت في تشرذم أوروبا مذهبيًا، وهو ما أدى فيما بعد إلى وقوع الحروب وحصول المذابح لعقود من الزمان. ولما أدرك الأوروبيون أن سفك الدماء لن يطفئ لهيب الحروب، مالوا إلى السلم واختاروا التسامح والتعايش معًا، وهو ما ينعمون به حتى هذا اليوم.

وعلى الرغم من أن دعوة لوثر قد تسببت في زلزلة الأرض من تحت أقدام الكنيسة، إلا أن الكنيسة نفسها قد أفادت من دعوته، لأنها دفعت بها إلى مراجعة أفعالها الشنيعة وأفكارها البليدة، ولعل أهمها تخليها عن كذبة صكوك الغفران. ومن فوائد اللوثرية كذلك أنها فتحت كوة في جدار الظلمة والاستبداد، وصار من حق الإنسان أن يختار أيا من المذهبين يروق له، هذا فضلاً عن ترجمة الإنجيل إلى اللغات الأوروبية الأخرى مما أتاح للناس أن يقرأوه ويفهموه وينتقدوه دون وسيط.

يوحنا الخياط

المعيدون للتعميد

قصة هذا الرجل المجنون، والذي يُدعى يوحنا الخياط، رواها موسى سلامة (ت 1958م) في كتابه (حرية الفكر وأبطالها في التاريخ)، سأنقلها لكم بعد بعض من الحذف والإضافة. يقول موسى سلامة إن الكاثوليكية حينما انكسرت شوكتها بظهور لوثر وخروجه على البابا؛ صار الناس يتجرؤون على مساءلة أنفسهم وتفتيش ضمائرهم عن العقائد القديمة، وصاروا يجتهدون ويُعلنون آراءهم. وفي سنة 1520م أو نحوها خرج أحد الألمان داعيًا الناس إلى وجوب تعميدهم مرة أخرى بمجرد بلوغهم سن الشباب؛ لأن التعميد في سن الطفولة - كما هو الحال في المسيحية - لا يفيد الدخول في النصرانية؛ إذ إن الطفل لا يعقل العقائد، فإذا أردنا أن نؤمن حق الإيمان بالمسيحية يتوجب إعادة تعميد الشباب، ولهذا فقد سُميت طائفته بـ "المعيدين للتعميد".

وإلى جانب ذلك، فقد كان هؤلاء "المعيدون" يتبّعون الإنجيل حرفيًا، فكانوا يقولون بشيوعية المال واجتناب الحروب، وما إلى ذلك من أمور لا تطيق الكنائس والحكومات سماع أي شيء منها. وفي سنة 1534م تزايد هؤلاء المعيدون في مدينة مونستر الألمانية، فطردوا أسقف المدينة، وأمسكوا بزمام السلطة، وشرعوا يطبقون ما قرأوه في التوراة والإنجيل، ويمضون أحكامها في الناس، فجعلوا الدين بذلك شريعةً مدنية جامدة، وافتتحوا لأهالي المدينة المساكين عهد خراب لم يره العالم من قبل أو من بعد.

وكان أكثر هؤلاء حماسة رجل خياط اسمه يوحنا. كان يوحنا يمضي نهاره في الخياطة، فإذا مدَّ الليل رواقه انتفض نبيًا، ينطق بكلمات الإنجيل والتوراة كأنهما لم ينزلا إلا لأجله وحده، ولا يفهمهما أحدٌ غيره. وأول ما فعله أتباع يوحنا أن عمدوا إلى كنائس الكاثوليك فجعلوا عاليها أسفلها، وأسكنوا فقراء المدينة أديرة الرهبان، ثم جمعوا كل ما في البلدة من الكتب خلا التوراة والإنجيل فأحرقوها عن بكرة أبيها، ثم نظروا حولهم فإذا بالمدينة قوم لا زالوا على عتوهم وعنادهم فقبضوا عليهم، وقطعوا رؤوس بعضهم، وغرّقوا بعضهم!

الملك المجنون

ولما اغتسلت المدينة من رجس الهراطقة ومن نجاسة كتبهم، ولم يبق بها سوى المعيدين الأطهار الأخيار؛ أخذ يوحنا يقلب أفكاره ذات اليمين وذات الشمال، وفجأة التمع في ذهنه خاطرٌ جليل، وهو أن يملك مونستر كما كان نبي الله سليمان بن داود يملك مدينة أورشليم، فذهب إلى سوق المدينة ونصب في قلبها عرشًا ليتبوّأه، ثم جاء بأهل المدينة، فقسّمهم إلى اثني عشر سبطًا كما كانت أسباط إسرائيل. وبعد أن فرغ من تنظيم شؤون المدينة وأهلها تذكر أن نبي الله سليمان لم يكتفِ بامرأة واحدة، فأضاف إليها زوجات أُخريات، ثم ألحقهن بسراري فوق ما عنده من النساء!

وفي الوقت الذي كان يوحنا يتقلب بين أحضان نسائه كانت الحكومة القديمة المطرودة تلملم شعثها وتطبطب جروحها، فجاءت إلى المدينة بجيش لجب، وطوّقت المدينة من كل جانب، وقطعت عن مونستر الميرة، فأصابتها مسغبة وعمّها القحط. وأما يوحنا، أو الملك يوحنا، فقد كان في شاغل عن هذا كله، فقد كان يقعد كل يوم على عرشه في السوق ولا يبالي، ويأخذ من الغني ويعطي الفقير، ويمتشق الحسام فيضرب به رقاب الخارجين

عن أمره ونهيه. ولما عضّ الجوع بنابه كل من في المدينة أمر يوحنا الأهالي بزراعة طرقات المدينة؛ ولكن المحاصِرين خلف الأسوار لم يمهلوهم إلى وقت الحصاد، فدخلوا المدينة بعد خمسة أشهر من الحصار، وأمسكوا بالملك الخياط، وأدخلوه في قفص كما لو كان قردًا، ثم طافوا به شوارع مونستر، ثم قتلوه أشنع قتلة.

صاحب (الفردوس المفقود)

موعد مع القدر

جون ميلتون، شاعر وعالم إنجليزي كبير، من مشاهير القرن السابع عشر وأعلامه، وعُرف بقصيدته العظيمة ودرته الفريدة (الفردوس المفقود) التي كتبها عام 1667م. وتدور قصيدته الخالدة حول خلق الله لآدم وحواء، وعصيان إبليس لله، وتحريضه لآدم وزوجه على الأكل من الشجرة المحرمة، وطردهما من الجنة إلى الأرض. وبالرغم من انقضاء ثلاثة قرون ونصف على كتابته لتلك الملحمة الشعرية، إلا أنها ما زالت تجتذب إليها القراء والباحثين من كل حدب وصوب.

وكان ميلتون، الذي وُلد في لندن سنة 1608م، إلى جانب كتاباته للقصائد والمقالات مؤلفًا موسيقيًا موهوبًا، وعلى ما يبدو فإن ميلتون ورث حب الموسيقى من والده. ويرى شاعرنا أن التذوق الموسيقي لا بد وأن يسهم في تحسين جودة القصائد والكتابة عند صاحبها. وكان ميلتون قد وُلد لعائلة متمسكة بالدين ومحبة للعلم. ولقد عُوقب جده بدفع غرامة مالية بسبب كاثوليكيته وتغيبه عن الصلوات الإنجليكانية، وهو المذهب الذي كان سائدًا حينها في بريطانيا. وذهب ميلتون إلى جامعة كمبردج العريقة، فقضى فيها ثمانية أعوام ما بين بكالوريوس وماجستير. ولقد توالت فيما بعد على ميلتون جملة من المصائب؛ حيث فقد ابنه سنة 1652، ثم لحقت به زوجته في نفس العام، وكانت ثالثة الأثافي انطفاء نور عينيه في السنة المشؤومة ذاتها. وبعد سنوات أربع، تزوج ميلتون بامرأة أخرى، ولكن القدر عاد ليكشر في

وجهه فاختطفها هي ورضيعها منه، وبعدها تزوج بثالثة وأخيرة وبقي معها ما بقي من عمره إلى توفاه الله سنة 1674م.

بين المطرقة والسندان

وكانت الحرية الشغل الشاغل لميلتون في كتاباته؛ وهو الأمر الذي تسبب في معادة أهل السياسة وأهل الدين له. وفي سنة 1660م، وبأمر من الملك تشارلز الثاني، أخذ القائمون على جامعة أكسفورد البريطانية الشهيرة كتب جون ميلتون فأضرموا النيران فيها أمام الجميع. والعجيب أن الذين كانوا يقذفون الكتب في النار هم من أساتذة الجامعة الذين كانوا يفعلون ذلك بكثير من التلذذ! ويقال إن الملك تشارلز الثاني كان قد نقم على ميلتون بسبب كتابين دافع فيهما عن إعدام والده الملك تشارلز الأول سنة 1649م. وزاد الطين بلة أن حكمًا بالإعدام صدر بحق ميلتون، غير أنه نجا منه بأعجوبة، ولكن أملاكه صُودرت، وبيته في لندن أُحرق. وعندما وصل للسلطة خبر بأن مطبعة طبعت خفية كتاب ميلتون (حق الملوك والحكام القضائيين)، قامت بإعدام صاحب المطبعة. وأما كتابه الآخر (دفاعًا عن الشعب الأنغليكاني) فقد أُحرق في فرنسا سنة 1652م.

الساحر الصغير

الموت لهاري بوتر

لا تكاد اليوم تجد أحدًا لم يقرأ حكايات "هاري بوتر"، وإن لم يكن قرأها فأغلب الظن أنه شاهدها متلفزة، وإن لم يكن لا هذا ولا ذاك فأغلب الظن أنه سمع بها أو قرأ عنها. حكايات هاري بوتر هي سلسلة من سبعة كتب للمؤلفة البريطانية ج. ك. رولنج، وجميع هذه الكتب تم تصويرها سينمائيًا. القصة عمومًا تدور حول شاب صغير يمتلك طاقات سحرية عجيبة يُدعى هاري بوتر، ويسعى هذا الشاب إلى الثأر من سيد الظلام "لورد فولدمورت" الذي تسبب في قتل والدي هاري حين كان رضيعًا. أول أجزاء هذه السلسلة المثيرة يعود إلى سنة 1998م م واسمها (هاري بوتر وحجر الفلاسفة)، وأما آخر أجزائها، والمسمى (هاري بوتر ومقدسات الموت) فقد خرج إلى النور سنة 2007م.

وعلى الرغم مما حظيت به تلك الأعمال - المقروءة والمرئية - وحصدته من مبيعات قياسية وإقبال جماهيري كبير، إلا أنها لم تسلم من انتقادات دينية واسعة من قبل أتباع الديانات المختلفة، وعلى الأخص من أصحاب الديانة المسيحية بكل ألوانها وأطيافها المذهبية. وأما السبب في اتخاذ المتدينين، أو جمهور غفير منهم، موقف عدائي من حكايات هاري بوتر، فهذا عائد إلى ما تنطوي عليه من تلميحات سحرية وإشارات تنجيمية. ولقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية دعوات قانونية تطالب بضرورة منع دخول روايات هاري بوتر إلى المدارس، بحجة أن السحر يُنظر إليه على أنه ديانة

معترف بها، وأن السماح للمدارس باقتناء هذه السلسلة فيه خرق لقانون فصل الكنيسة عن الدولة!

السم في العسل

وإلى جانب ما يترتب على دخول هاري بوتر إلى المدارس من وقوع لغط قانوني، فإن أتباع الجماعات الأصولية الإنجيلية ترى في تلك السلسلة شرًا مستطيرًا وخطرًا وبيلاً يهدد الأطفال ويحببهم بالسحر الذي لا تتسامح معه الكنيسة جملة وتفصيلاً. فما العائد المنتظر من تعليم الأطفال قيم التضحية والشجاعة والحب والصداقة إن كنت تمزج كل هذا بطقوس سحرية وأفعال شيطانية؟! تقول إحدى شركات الأفلام المسيحية، التي أصدرت قرص فيديو رقمي (دي في دي) بعنوان: (هاري بوتر: السحر مجمعًا) جاء فيه: "إن عالم هاري بوتر يقول إن شرب دم الحيوانات الميتة يعطي طاقة، والتضحية الشيطانية بالبشر والدم الفعال لهاري بوتر يجلبان حياة جديدة، والمس الشيطاني ليس خطيرًا روحيًا، والمرور عبر النار والاتصال بالموتى والتحدث إلى الأشباح والآخرين في عالم الأرواح وأكثر من ذلك يعد طبيعيًا ومقبولاً".

على مدار عدة سنوات، لم تخرج الإدانات لحكايات هاري بوتر عن حدود الكلمات، ولكن كنيسة ألاموغوردو كريست، في مدينة نيو مكسيكو المكسيكية، لم تطق صبرًا، فقام أتباعها بجمع مئات النسخ من كتب هاري بوتر، ثم أشعلوا النار فيها. ولما سُئل جاك بروك، رئيس الكنيسة، عن السبب في قيامه ونفر معه بحرق هذه الروايات قال: "إن الكتب كانت رجسًا لأنها أوحت إلى الأطفال بدراسة التنجيم". ولم يكذب بروك ولم يتجمل حين سألوه إن كان قد قرأ شيئًا منها، فأجابهم: أنه لا هو ولا من معه قد قرأ منها حرفًا واحدًا!

حارق المصاحف

القس الكذّاب

تيري جونز، قس أمريكي متطرف، أصله من ولاية ميزوري، معروف ببغضه للإسلام وأهله. حمل جونز على عاتقه منذ زمن بعيد مهمة التبشير بالمسيحية خارج تخوم الوطن، فذهب إلى إفريقية وأمريكا اللاتينية وأوروبا للدعوة إلى دينه. وقضى جونز في ألمانيا، وتحديدًا في مدينة كولون ربع قرن من الزمان، كان يدعو فيها الألمان للقضاء على الشيطان الساكن بجوار كاتدرائيتها المشهورة تمهيدًا لتطهير أوروبا من دنسها وآثامها، ولكن الألمان لم يصدقوا شيئًا من خزعبلاته تلك وتخاريفه.

ولقد اضطر هذا القس المتشدد إلى الهروب منها تحت جنح الظلام بعد أن فاحت رائحته النتنة. فمرة غُرِّمَ ثلاثة آلاف يورو لادعائه بأنه يحمل شهادة دكتوراه كذبًا، ومرة أُتهم بالتلاعب بأموال الكنيسة وممتلكاتها وتجييرها لحسابه الخاص. وأمام تلك الفضائح المدوية والهزائم المخيبة اضطر جونز إلى الانسحاب والعودة إلى بلاده، وإلى ولاية فلوريدا.

الشيطان يحرق القرآن

عاد جونز إلى بلاده ليستولي هو وإخوته على كنيسة لأرملة قس سابق. ولما وقعت كارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001م برز اسم جونز كعدو مبغض للإسلام ولكتابه ولنبيه وأهله. ففي ذكرى الكارثة الإرهابية أعلن جونز أنه ينوي حرق نحو ثلاثة آلاف نسخة من المصحف الشريف بعدد من قضوا في ذلك الحادث الإرهابي الأليم في منتزه عام؛ ولكن الشرطة أوقفته

ومنعته من تنفيذ تهديده.

ولقد سبق لهذا الشيطان في مناسبات سابقة أن أحرق نسخًا من القرآن الكريم كما حصل سنة 2012م. وإلى جانب ما عُرف عنه من القيام بحرق كتاب الله - شلّت يده -، فقد اشتهر برفعه هو وزوجته، ومن معهما من الأغبياء، لافتات كُتب عليها: "الإسلام هو الشيطان". ولما كانت بداية عام دراسي جديد، ذهب أطفال أعضاء هذه الكنيسة إلى مدارسهم وعليهم قمصان مكتوب في ظهرها العبارة المذكورة! وبالمناسبة، فقد كتب هذا الأرعن كتابًا يحمل ذات العنوان يتطاول فيه على دين الله!

ولقد وجدت في موقع يوتيوب الشهير، على شبكة الإنترنت، لقاءً مع هذا المعتوه الحقود، لا يتجاوز في مدته خمسة دقائق. وكم كان دفاعه هزيلاً، ومنطقه سخيفًا، وتفكيره سقيمًا، وهو يتلقى وابلاً من سهام مذيع قناة "سي إن إن" الأمريكية المشهورة وانتقاداته اللاذعة. ولما أطبق المذيع الحصار عليه أمسك جونز بقشة منع السلطات الرسمية في المملكة العربية السعودية للمرأة من قيادة السيارات، وكأن فقط عدم إجازة قيادة المرأة للسيارة دليل كافٍ ووافٍ على وحشية الإسلام وهمجية المسلمين عند هذا القس الأعمى البصر والبصيرة!

خمسون درجة من الرمادي

الخامس من نوفمبر

دأبت مجموعة من النسوة المُعنفات الإنجليزيات، في ملجأ خُصّصَ لهن، على حرق رواية (خمسون درجة من الرمادي) لصاحبتها الإنجليزية إي. إل. جيمس في الخامس من نوفمبر من كل عام. أما السّر في قيام أولئك النسوة بحرق هذه الرواية، وفي هذا التاريخ من كل عام، فهذا يرجع إلى تشبع الرواية إلى حد الثمالة بصور مشينة ومهينة تُستعبد فيها المرأة وتُذل في إطار جنسي يثير الشهوات. وهذه الرواية التي تشتعل وتنطفئ في الخامس من نوفمبر كل عام سبق ترجمتها إلى أكثر من خمسين لغة أجنبية، وبِيع منها أكثر من مائة مليون نسخة!

قناع فانديتا

وأظنك الآن تسأل نفسك: لماذا تُحرق الرواية في إنكلترا، وتحديدًا في هذا اليوم من كل عام؟ حسنًا، في عام 1605م خطّط رجل إنجليزي يُدعى جاي فوكس، واثنان معه، على قتل ملك إنكلترا حينذاك جيمس الأول. وكان فوكس هذا كاثوليكيًا متعصبًا لدرجة أنه غادر موطنه لينضوي تحت لواء الجيش الإسباني الكاثوليكي ويحارب في صفوفه. ولقد بلغت بفوكس الحماسة أن طلب عون الإسبان لإشعال ثورة في بلاده إنكلترا من أجل إعادة الكاثوليكية إليها لكنه لم يُوفق. ولم يفتّ الرفض الإسباني في عضده ولم يحل دون بلائه في العمل على كثلكثة إنكلترا ولو استدعى الأمر قتل الملك نفسه.

اتفق فوكس ومن معه من الرجال على حفر سرداب يفضي إلى مجلس

اللوردات بقصر وستمنستر. وبعد أن نقبوا الأرض قام فوكس بملء القبو بكمية عظيمة من البارود. وقبل ساعة الصفر بساعات فطنت السلطة الإنجليزية لما يُدبر له، فكبسوا المكان، ووجدوا فوكس هناك بين براميل المتفجرات، فأخذوه وعذبوه أيامًا عذابًا شديدًا، ثم ساقوه لمنصة الإعدام ليُقتل. وقبيل لحظات من إعدامه فاجأ فوكس الجميع وقفز من فوق المنصة لتنكسر عنقه في الحال، وعلى طريقة "بيدي لا بيد عمرو"!

ومنذ ذاك اليوم، وابتهاجًا بنجاة الملك جيمس من تلك المؤامرة والتي أصبحت تُعرف بـ "مؤامرة البارود الفاشلة"، دأب الإنجليز على الاحتفال بهذا اليوم الذي أصبح يُسمى "يوم جاي فوكس" على اسم المتآمر، أو "ليلة البون فاير" أي ليلة الألعاب النارية، حيث يقوم العوام باللهو بالألعاب النارية كنايةً عن البارود الذي كاد أن ينفجر لولا الرسالة المجهولة التي وصلت إلى الشرطة الإنجليزية في الوقت المناسب.

بقي أن نقول: أن قناع فانديتا vendetta الذائع الصيت يعود في الأصل إلى الثائر جاي فوكس؛ إذ أنه ورفيقاه كانوا يخفون وجوههم وراء أقنعة لئلا يُفضح أمرهم. ولقد اشتهر هذا القناع منذ ذاك الوقت، وأصبح يرتديه كل من يسعى إلى تغيير الواقع السياسي السائد أو الثأر من أعدائه. ولو عدنا بذاكرتنا سنوات قليلة إلى الوراء سنجد أن بعض المتظاهرين، الذين خرجوا للشوارع في زمن ما كان يُسمى تضليلاً وتدليسًا بـ "الربيع العربي"، كانوا يضعون أقنعة فانديتا على وجوههم تعبيرًا عن تململهم من حكوماتهم ورغبتهم في التغيير.

الفصل الثاني
حرق المكتبات عند غير المسلمين

إن حرق مكتبة بالكامل أشد مضاضة على النفس من حرق كتاب واحد أو بضعة كتب. ومن أسف فقد امتلأت صفحات التاريخ الإنساني بحوادث حرق لمكتبات عظيمة وفخيمة تكاد تفيض لذكراها العيون دمًا وتعتصر منها القلوب ألمًا. إني بحق لأشعر بكثير من الحسرة حين أقرأ عن مكتبات استغرق الإنسان في بنائها وتطويرها ورعايتها سنوات من عمره، ثم غدت في بضع ساعات رمادًا يتطاير في الهواء.

أتساءل أحيانًا بيني وبين نفسي: كم ستبلغ مكاسبنا نحن البشر لو قُيِّض لكل مكتبات العالم أن تحيا في أمان وتبقى في مأمن من التخريب والتدمير؟! لقد فوّت البشر، بمن فيها الجناة، على أنفسهم قدرًا عظيمًا من المعارف لو أنهم لم يعبثوا بالمكتبات ويحرقوا الكتب. أقل ما يمكن لنا قوله إن المكتبات لو كانت قد سلمت من حماقات البشر ونيرانهم الحاقدة لتكشفت لنا أمور مخفية ولوقفنا على أسرار منسية.

وبخلاف تلك المكتبات التي تلفت لدواعٍ طبيعية كفيضان أو زلزال، أو لدواعٍ أخرى غير مقصودة مثل التماس كهربائي، فإن معظم حوادث التلف كانت بسبب خلافات سياسية وحروب عسكرية. فعندما يقوم العدو بحرق مكتبات خصمه فإنه يفعل ذلك عن قصد وعمد لكي يمحو ما بقي من عدوه في ذاكرة الناس. فإذا كانت القنابل والصواريخ والرصاص ستفتك بالخصم

ماديًا، فإن حرق تراث هذا الخصم وتدميره قمين بمحو خصمه معنويًا. وهذا ما كان يرومه النازيون حينما أحرقوا المكتبات ولاحقوا المفكرين والعلماء في كل بلاد عاشوا فيها. والعجيب أن النازيين قبل أن يجتاحوا أوروبا ويحرقوا الأخضر واليابس أخذوا ما عندهم في مكتباتهم العامة والخاصة فأحرقوها وكأنهم يريدون بناء ذاكرة جديدة تتعصب لكل ما هو ألماني فقط. وكذلك فعل الإسبان المتعصبون بمخطوطات المايا حين دخلوا أمريكا الوسطى مستعمرين، والأمثلة على ذلك أشهر من تذكر وأكثر من نحصر.

وكما قدمنا القول من قبل، فإننا لا ننوي حصر كل وقائع حرق مكتبات العالم عبر التاريخ، بل نكتفي بتسليط بعض الأضواء على حوادث معينة عبر أزمان متعددة وفي أماكن متنوعة.

مكتبة إيبلا

مملكة تحت الرمال

إيبلا، اسم لمملكة عظيمة، عاشت وسادت وزالت قبل ميلاد المسيح عليه السلام. تقع مملكة إيبلا إلى الشرق من مدينة إدلب السورية في الشمال الغربي من البلاد. ويُعزى الفضل في إماطة اللثام عن هذه المملكة إلى بعثة أثرية إيطالية قدمت إلى سوريا في منتصف الستينيات من القرن المنصرم.

وكانت مملكة إيبلا في الأصل قرية متواضعة، ثم ما لبثت أن كبرت وقويت وانتعشت، حتى صارت مملكة تمتد أطرافها شمالاً إلى جبال طوروس، وجنوبًا إلى حمص، وشرقًا إلى حافة نهر الفرات، وغربًا إلى ضفاف البحر المتوسط. لقد شهدت مملكة إيبلا أوج عهودها في منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، ولكن الملك الأكادي الكبير نرام سين أزعجه وجودها وهاله أمرها، فأخذ يشنّ الحروب عليها بهدف القضاء عليها والتحكم بطرق التجارة من دون منافس. وبعد محاولة تلو أخرى، اجتاح جيوش الأكاديين الجرارة مدينة إيبلا، فاحتلتها وهدمتها وأحرقها سنة 2250 ق. م.

وعلى الرغم مما لحق بأبيلا من دمار واسع وخراب كبير، إلا أن جذوة الحياة كانت تتقد تحت الرماد. وبعد قرون من السكون والخمود بدأت الحياة تعود شيئًا فشيئًا إلى المدينة. وشهدت الفترة ما بين القرنين التاسع عشر والسادس عشر قبل الميلادي أزهى أيامها وأعظم إنجازاتها. وبما أن كل شيء إذا ما تم نقصان، فقد أقبل الحثّيون من الشمال بجيوشهم الجرارة، فدكوا البلاد دكًا، ثم انصرفوا عنها تاركين النار تلتهم ما بقي من شباب

تلك المملكة. بعد أن تركها الحثّيون خاوية على عروشها طُوي ذكر إيبلا ونُسي أمرها، وبقي الأمر على تلك الحالة قرونًا كثيرة، إلى أن قدمت تلك البعثة الإيطالية لتكنس الغبار عن الصفحات المطوية من تاريخ تلك المملكة الغابرة.

كنوز إيبلا

لقد وجد الإيطاليون، بقيادة كبيرهم وأستاذهم باولو ماتييه، كنوزًا أثرية عظيمة تنام منذ زمن سحيق تحت التراب. فمن جملة ما استخرجوه، نذكر مثلاً: القصر الملكي بقاعة العرش وأجنحة السكنى وأجنحة الإدارة، وقصور أخرى لا تقل سعة وأبهة، ومعابد تُعبد فيها إلهة الخصب عشتار، وتماثيل، ودمى، وأواني فخارية، وغيرها.

أما أجمل ما أُستخرج من باطن الأرض فكانت بلا شك هي مكتبة إيبلا. لقد تأخر اكتشاف هذه المكتبة إلى سنة 1975م، أي بعد نحو عشر سنوات من بدء التنقيب عن المملكة. شغلت المكتبة غرفة صغيرة بعض الشيء؛ ولكن جدرانها كانت مغطاة بالرفوف المملؤة عن آخرها بألواح من الصلصال، ربما يصل عددها إلى ألف خمسمائة لوح من مختلف الأحجام. وعلى الرغم أن النيران التهمت كل ما وجدته في طريقها، إلا أن الألواح - وبسبب طريقة صنعها الفريد - قاومت النار وانتصرت عليها!

كانت الألواح قد جرى ترتيبها فوق الرفوف وفق ترتيب عجيب وبديع، وفوق هذا فقد كانت مكتوبة بلغة إيبلا الخاصة بأهل المملكة وحدهم. وكانت الألواح تتضمن نصوصًا عديدة في مجالات شتى؛ مثل الدين والسياسة والأدب والطب والفلك والموسيقى والفلسفة.

مكتبة آشور بانيبال

درّة آشور

لا ريب أن هذه المكتبة هي الأشهر والأعظم بين كل المكتبات في العصور القديمة. ويعود الفضل في بنائها إلى الملك الأشوري العظيم آشور بانيبال (ت 626 ق. م)، والذي بلغت إمبراطوريته في عهده أوج مجدها، قبل أن تتهاوى بسرعة فائقة بعد موته. وكان هذا الملك، والمُلقب بملك العالم، محبًا للعلم راعيًا للمعارف، إلى جانب ما عُرف عنه من كونه ملكًا مهيبًا دانت له الممالك وخضعت له الرقاب. ففي أثناء فترة حكمه أمر هذا الملك الكبير أتباعه بجلب كل مصادر العلوم والآداب من كل الآفاق إلى مكتبته. لم يكن الناس في تلك الأيام الخوالي يعرفون الكتب؛ ولكنهم كانوا يحفظون علومهم على ألواح الطين، ولهذا فقد اكتظت مكتبة آشور بانيبال بالآلاف المؤلفة من ألواح الطين.

لقد حوت مكتبة الملك الأشوري على كل ما توصل إليه الإنسان في ذلك الزمان من علوم ومعارف في كل الميادين. فهذه ألواح تتحدث عن الطب، وتلك تتحدث عن الفلك، وأخرى تتناول الهندسة وتقنيات الري، وأخرى تحفظ لنا رسائل الملوك وأخبار الحروب، هذا فضلاً عما حفظته لنا تلك الألواح من تاريخ الحضارات القديمة من سومرية وأكادية وبابلية ومن تراثها الروحي الغني والمُعبر عنه في صورة ملاحم وأشعار وأساطير. فلولا مكتبة آشور لما عرف العالم بقصة الخلق (إينوما إليش)، ولما عرف بقصة الطوفان السومري والبابلي، ولما عرف قصة الملك جلجامش ورحلته

الشهيرة في البحث عن الخلود. ولولا هذه المكتبة لما تفطن العالم إلى أن الأسفار التوراتية كانت تمتح من معين التراث الديني لشعوب ما بين الرافدين!

أسرار تحت التراب

لقد ظلت مكتبة آشور بانيبال قرونًا طوال مدفونة تحت تراب مدينة نينوى العراقية القريبة من الموصل؛ مُسدل عليها ستائر النسيان الكثيفة، لا يعلم أحد من البشر بوجودها. بقيت المكتبة مخبأة تحت التراب قرابة ألفي عام وثلاثمائة سنة إلى أن قادت الصدفة سنة 1849 م مستكشفًا ورحالة بريطاني يُدعى أوستن هنري لايارد للعثور عليها، وجاء من بعده هرمز رسام ليكمل ما بدأه لايارد. يعتقد العلماء أن المكتبة كانت تحوي قبل دمارها ما يقرب من خمسة وعشرين ألف لوح طيني. ولسوء الطالع فإنه لم يبق من تلك الألواح سوى القليل، وحُمِلَ معظم هذا القليل إلى المتحف البريطاني في لندن ومتحف اللوفر في باريس.

وكانت مكتبة آشور بانيبال قد تعرضت سنة 612 ق. م إلى نكسة ما بعدها نكسة، وذلك بعد أن قام الغزاة البابليون، أو الكلدانيون، بكسر جيوش الأشوريين شر كسرة، ومن ثم قاموا باجتياح العاصمة الأشورية نينوى وأضرموا النيران في قصر آشور بانيبال وفي مكتبته البديعة، وذلك بعد أربعة عشر عامًا من موت ملك العالم المثقف والمُحب للعلوم والآداب. منذ ذاك الحين انقطع خبر المكتبة، وانشغل الناس عن أمرها، وتراكم فوقها تراب النسيان قرنًا بعد قرن، إلى أن هدى الله ذاك المستكشف الإنجليزي للعثور عليها وإماطة اللثام عنها.

مكتبة قرطاجة

صعود وهبوط

لم تكن قرطاجة هي أولى المستوطنات التي بناها الفينيقيون على امتداد سواحل شمال إفريقيا الشمالية وفي جنوب إسبانيا وصقلية، إلا أنها كانت الأشد قوة والأكثر ثروة والأقوى منعة بين كل المستوطنات الفينيقية. ولا تُذكر قرطاجة إلا ويُذكر معها ما اشتهر تاريخيًا باسم الحروب البونية مع روما. وكان أبرز وأعظم قادة تلك الحروب الدامية بين الفريقين هو هنيبعل القرطاجي، الذي غزا الرومان في عقر دارهم وقهرهم المرة تلو المرة حتى كاد أن يسقط روما وينهي حكم الرومان، لولا أنهم شدّوا عليه وهزموه في آخر المعارك وردوه على عقبيه مهزومًا مدحورًا.

ومنذ ذاك اليوم، أصبح أمر قرطاجة في انحسار، وأمر روما في ازدياد. جمع الرومان جيشًا كثيفًا وساروا به إلى قرطاجة التي فقدت بطلها هنيبعل بعد أن أفرغ السّم في جوفه. ولما اقتربت جموع الروم من قرطاجة، خرج للقائهم وفد من شيوخ المدينة ووجهائها لعلهم يقنعوا العدو بالرجوع عن مدينتهم الجميلة. في بادئ الأمر، سأل الرومان القرطاجيين لكي ينالوا النعمة أن يسوقوا إليهم ثلاثمائة من خيرة شباب قرطاجة وإلا فالسيف بينهم. قبل الوفد صاغرًا بهذا الشرط، وخرج ثلاثمائة شاب في أعمار الزهور، وسط مناحة أمهاتهم وعبرات آبائهم. ولما استلم الرومان رهائنهم، طلبوا من القرطاجيين إن أرادوا الحفاظ على حياتهم شيئين لا ثالث لهما: أولاً، أن يسلموا كل ما عندهم من أسلحة، وثانيًا، أن يتركوا المدينة التي حكمت

عليها روما بالدمار والفناء للأبد.

اللحظات الأخيرة

ولما سمع أهل المدينة بذلك عزموا على القتال حتى الموت، فإما حياة تسر الصديق، وإما ممات يغيظ العدى. ولقد دارت بعد ذلك أمور يطول شرحها ولا يحتمل هذا المختصر ذكرها، وأبدى القرطاجيون من ضروب الشجاعة ومن آيات البسالة ما يثير الإعجاب. لقد أظهر القرطاجيون كل ما عندهم من بطولة وكرامة، وقدموا كل ما لديهم من غالٍ ونفيس، لكي يدفعوا العدو الغاصب عنهم؛ حتى قيل إن النساء عمدن إلى جزّ شعورهن ليصنعن منها حبالاً لما عُدمت الحبال، وجئن بما في المطابخ والبيوت من أواني وأدوات لكي يُصنع منها سلاحًا يذودون به عن مدينتهم الغالية.

الحاصل أن الروم دخلوا المدينة بعد جهد جهيد، وبسطوا السيف في رقاب أهل المدينة الذين قاتلوهم حتى آخر رمق بكل ما في أيديهم من سلاح مهما بدا بسيطًا. ولما أيقن كثير من القرطاجيين بالهزيمة، أضرموا نارًا هائلة، ثم راحوا يقذفون أنفسهم بذراريهم فيها، على طريقة بيدي لا بيد عمرو!

لم يترك الروم الحاقدون بشرًا أو شجرًا أو حجرًا في المدينة، وأحرقوا مكتبتها العامرة والتي يقال إنها كانت تحتضن نحو خمسمائة ألف كتاب، وكان ذلك سنة 146 ق. م. ولما لم تجد النار شيئًا لتأكله بعد أيام وغدت رمادًا، قام الغزاة بفلاحة الأرض، ثم رشّوها بالملح لتصبح قرطاجة عقيمة وملعونة إلى الأبد.

مكتبة الإسكندرية

منارة الشرق

هي واحدة من أعظم وأشهر مكتبات العالم قاطبة؛ بناها أول ملوك البطالمة في مصر وهو بطليموس الأول، وقيل إن الذي بناها هو خلفه بطليموس الثاني، وقال بعضهم بل بناها الإسكندر المقدوني. ولقد طار ذكر هذه المكتبة في الآفاق لانفتاحها على كل الأفكار دون تحيز أو تعصب، وكذلك لما حوته من ذخائر الفكر والعلم الفرعوني والإغريقي، وكأنها كانت نقطة التقاء لعلوم الشرق بعلوم الغرب.

وفي سنة 48 ق. م أمسكت النار بالمكتبة فأحرقتها. وأصل الحكاية أن يوليوس قيصر زحف بجيشه من روما إلى مصر، فانبرى له بطليموس الثالث عشر، أو بطليموس الصغير، وهو شقيق كليوباترا، بعدما علم أن يوليوس قيصر يتحيز إلى كليوباترا التي امتلكت على رجل روما الأول شغاف قلبه. فلما نزل يوليوس قيصر الإسكندرية هاجمه بطليموس الصغير من جهة البحر والمصريون من جهة البر، ولما أطبقوا على يوليوس وجنده الحصار، أمر يوليوس رجاله بحرق الأسطول البحري المحاصر له، ثم سرعان ما امتدت ألسنة النار إلى دار صناعة السفن، ومنها إلى المباني المجاورة وكان فيها مكتبة الإسكندرية.

وقد أدت هذه الفعلة الشنيعة إلى فقدان ثروة فكرية وعلمية لا تُقوم ولا تُقدر بثمن. وأما عدد الكتب التي حوتها المكتبة حين أكلتها النيران فقد ذهب المؤرخون إلى أن عددها يتراوح ما بين سبعمائة ألف كتاب إلى أربعمائة ألف كتاب، والله أعلم بعدتها. ويقال إن كليوباترا قد اغتمت لحرق المكتبة

وعظم ذلك عليها، فجاءها حبيبها وزوجها مارك أنطونيو حين دخل مصر بمائتي ألف لفافة جلبها من إحدى المكتبات في آسيا الصغرى كتعويض لها عما طالها من خراب ودمار.

وبعد ما ينوف على أربعة قرون، وبالدقة سنة 391م، لحقت مصيبة أخرى بالمكتبة، وذلك في عهد الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول (395م). وكان هذا الإمبراطور إلبًا على الوثنية وعلى كل ما يخالف الديانة المسيحية. فثيودوسيوس الأول هو من حرّم الألعاب الأولمبية لكونها تقليدًا وثنيًا لا يليق بدولة انتبذت الوثنية واعتنقت المسيحية، وهو من أمر بقلب معابد الوثنيين إلى كنائس، وهو كذلك من أمر بحرق مكتبة الإسكندرية سنة 391م لما تحويه بحسب اعتقاده من كتب تخالف المعتقدات المسيحية.

جناية ابن العاص

يذهب جمهور من المؤرخين، ومن ورائهم جمهور غفير من المتعصبين على الإسلام والمبغضين له، إلى أن مكتبة الإسكندرية تعرضت للحرق والتدمير الكامل سنة 640م، أي بعد فتح المسلمين بقيادة عمرو بن العاص لمصر، فيما يذهب آخرون إلى نفي هذه التهمة ويرمون بها عرض الحائط، زاعمين أن ابن العاص حينما دخل مصر لم يكن لمكتبة الإسكندرية أي وجود من الأساس بعد أن أصابها ما أصاب من تخريب وتحريق قبل ولادة الإسلام ودخول العرب لمصر فاتحين غانمين.

فإذا ما نظرنا إلى الباحثين المسلمين ممن يتهمون عمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية سوف نجد أن عمدتهم في هذا هو عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ت 629 هـ)، كما جاء في كتابه (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) ، وأظن أن جمال الدين القفطي (ت 646 هـ) نقل عن البغدادي، ومن بعده أبو الفرج الملطي والمعروف بابن العبري (ت 685 هـ)، ومن بعده تقي الدين المقريزي (ت

845 هـ). ولعلك تذكر أن العرب فتحوا مصر على الأرجح سنة 21 هـ والبغدادي كتب مصنفه المذكور في أواخر القرن السادس للهجرة أو في أوائل القرن السابع للهجرة، أي أن المسافة بين الحدثين تكاد تقترب من ستمائة عام! وإذا ما سلمنا بصدق رواية البغدادي، فلماذا ظلت تلك الواقعة طي الكتمان مئات السنين؟! ولماذا سكت المؤرخون الأوائل من أمثال البلاذري واليعقوبي والطبري عنها؟! ولماذا لم يتكلم عنها المؤرخون الذين كتبوا عن تاريخ مصر وفتحها، وأعني بهم ابن عبد الحكيم وسعيد بن البطريق وأبو عمر الكندي؟!

وزد على ذلك، ما قاله صاحب كتاب (حضارة العرب) جوستاف لوبون (ت 1931م) بأن: "أن المكتبة لم تكن موجودة عند الفتح العربي، إذ كانت قد أُحرِقت عام 48 ق. م عند مجيء يوليوس قيصر إلى الإسكندرية". وهذا ما ذهب إليه ألفريد بتلر (ت 1945م) في كتابه (فتح العرب لمصر) كذلك.

وأما الرواية المزعومة، والتي تقول إن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في أمر المكتبة بعد أن طلب الفيلسوف يوحنا النحوي إلى ابن العاص ما فيها من كتب الحكمة، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بجواب قال فيه: "وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة بنا إليها". وتزعم القصة أن ابن العاص وزَّع الكتب على حمامات الإسكندرية، وأحرقها في مواقدها، واستنفَد استهلاكها مدة ستة أشهر. ولم تسلم هذه القصة عند معظم الباحثين من وجود هنات غير هينات فيها ذكر تفصيلها يطول، ولعل أهم ما يؤخذ عليها أن يوحنا المذكور قد مات قبل أن يدخل العرب مصر فاتحين لها بعقود مديدة!

مكتبة القسطنطينية

هدية قسطنطين

بعد أن اتخذ الإمبراطور قسطنطين الأول (ت 337م) من مدينة القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية قام ببناء مكتبة كبيرة داخل قصره. كانت المكتبة عند تأسيسها تحتوي على نحو سبعة آلاف كتاب، ثم أن مساحتها أخذت تكبر ومصنفاتها بدأت تكثر، حتى بلغت مائة وعشرين ألف كتاب؛ الأمر الذي جعل منها أكبر مكتبة على وجه الأرض في ذاك الوقت. غير أن ما بُنِيَ خلال قرن ونصف من الزمان كان عليه أن يتهدم ويصير رمادًا منثورًا في ظرف ساعات قليلة بعد أن امتدت إلى المكتبة نار الفتنة التي كادت أن تحرق القسطنطينية بكاملها سنة 473م جراء القلاقل والاضطرابات السياسية.

لم يطفئ هذا الحريق مكتبة القسطنطينية إلى الأبد؛ فبمجرد أن عادت الأمور إلى نصابها، عادت معها المكتبة لتُبنى حجرًا حجرًا وكتابًا كتابًا. وفي سنة 1204م زحف الصليبيون شرقًا، في حملتهم الرابعة، يريدون أن يثأروا من السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي هزمهم واسترد مدينة المقدس منهم، لكنهم عوضًا عن ذلك دخلوا مدينة القسطنطينية كمثل أسراب من جراد، ومن ثم أخذوا ينهبون ويسلبون ويقتلون ويحرقون. وما كان لمكتبة القسطنطينية، ولا لمعالم المدينة وتماثيلها وروائعها، أن تفلت من هؤلاء الرعاع الهمج الذين دنّسوا المكتبة وأتلفوا ما فيها من مخطوطات وكتب.

الضربة القاضية

أما الحريق الثالث، أو ثالثة الأثافي كما يقال، فكان سنة 1453م. ففي

تلك السنة وفق الله السلطان العثماني محمد الثاني، أو ما عُرف بمحمد الفاتح، لفتح القسطنطينية، تلك المدينة التي سبق أن تحطمت على صخرتها أمواج حملات العرب والمسلمين منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه. دخل الأتراك المدينة التاريخية الشهيرة التي استسلمت لهم وصارت لهم مقر عزهم وسرير ملكهم. وأما المكتبة فقد لحقها الدمار وأصابها الضياع؛ ولكن الأتراك سمحوا لبعض أصحاب المكتبات من الإيطاليين أن يحملوا ما قدروا عليه من كتب ليبيعوها في باقي البلاد الأوروبية.

مكتبة إنطاكية

الصيحة الأخيرة للوثنية

تولى يوليان ملك الإمبراطورية الرومانية سنة 361م، وكان على خلاف سلفيه قسطنطين الأول وقسطنطين الثاني وثنيًا مبغضًا للمسيحية، ولهذا تواضع المسيحيون على تسميته بـ "يوليان المرتد" أو "يوليان الجاحد". ولقد نّكل يوليان بالمسيحيين وأوقع بهم وضيّق عليهم. ولم يكتفِ يوليان بذلك، بل وضع ثلاثة كتب هاجم فيها المسيحية وطعن فيها في ألوهية المسيح عليه السلام.

لم يمتد العمر يوليان طويلاً؛ ففي سنة 363م أصابه سهم وهو فوق ظهر خيله في حربه مع الفرس، وقيل إنه صاح لما أصابه السهم قائلاً: "لقد غلبتني أيها الجليلي"، يقصد بذلك المسيح عليه السلام.

وبعد أن مات يوليان انعقد رأي رؤساء الجيش على تقديم جوفيان، كبير الخدم في القصر، ليتربع على كرسي الملك. وعلى العكس من يوليان، فقد كان جوفيان مسيحيًا متدينًا للغاية، وكان حريصًا على إحياء رسوم المسيحية التي أماتها يوليان. استهل جوفيان ملكه بالتصالح مع الفرس، ثم عاد بجيشه إلى إنطاكية. ولما عاد إليها أراد أن يطهرها من وثنيتها، فأمر رجاله بحرق المعبد الوثني، وكان بداخله مكتبة تضم كتبًا تدافع عن الوثنية وتعادي المسيحية، وكان هذا سنة 363م. ومن العجيب أن القدر لم يمهل جوفيان طويلاً، فلحق بسابقه سنة 364م بعد بضعة أشهر أعاد فيها الحياة للمسيحية وللمسيحيين.

مكتبة آكس لا شابيل

حرائق الأب

عرفت أوروبا في العصور الوسطى واحدًا من أعظم ملوكها، واسمه شارلمان بالفرنسية، أو كارل الكبير بالألمانية، ولقد حكم شارلمان عمرًا مديدًا من سنة 768م إلى سنة 814م. ولشارلمان هذا قصص مع بعض خلفاء بني العباس الأوائل كالمهدي والرشيد. ومن لا يذكر قصة تلك الساعة العجيبة التي بعث بها إليه هارون الرشيد من بغداد حتى ظن من في قصر شارلمان أن بها شيطانًا يحركها!

وخلال سني حكمه الطويلة، عمل شارلمان على مد رقعة مملكته التي شملت معظم أراضي أوروبا الغربية خلا بريطانيا وجنوب إيطاليا وإسبانيا التي كان يحكمها بنو أمية آنذاك. وإلى جانب فتوحاته الأوروبية، عمل شارلمان المتعصب لمسيحيته على نشر دين المسيح بين رعايا مملكته وعلى محاربة الوثنية. وفي سبيل طمس الوثنية وحرق جذورها، عمد شارلمان إلى حرق ما يقع في يده من مخطوطات وكتب تدعو للوثنية، وزاد على ذلك بقتل كل من يرتد إلى الوثنية من المسيحية.

حرائق الابن

وقبل أن يموت شارلمان أدلى الأمر من بعده لآخر من بقي من أولاده وهو لويس الأول، أو لويس الورع. وإنما لُقب بالورع بسبب تدينه الشديد وتعصبه للمسيحية. ولما تولى لويس المُلك استهل عهده بحرق مكتبة القصر الإمبراطوري في مدينة آخن الألمانية، أو آكس لا شابيل بالفرنسية. والمكتبة

التي أحرقها الورع لم تكن لتحوي كتبًا وثنية، وكيف يكون ذلك وهي مكتبة قصر والده في عاصمة ملكه! كل ما في الأمر أن المكتبة كانت تحوي كتبًا نادرة للغاية في الأدب الفرنجي والجرماني، وهي مسألة لا تروق لملك لا يعترف إلا بكتب اللاهوت المسيحي!

مكتبة جامعة نالاندا

المفخرة الهندية

كانت جامعة نالاندا، في ولاية بيهار شمال شرق الهند، بالقرب اليوم من دولة نيبال، مركزًا بوذيًا عظيمًا للتعلم والتعليم. وكان هذا المركز قديمًا للغاية، فقد بُني منذ القرن السابع قبل الميلاد، واستمر يقوم برسالته لقرون طوال. وكانت الجامعة تحفة معمارية بديعة ومنارة علمية شهيرة اجتذبت إليها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب. ولقد وفّرت الجامعة لقاصديها، وكانوا بالآلاف، دورًا للسكنى، وقاعات للدرس، ومعابد للعبادة والتأمل، وحدائق وبحيرات للتنزه والتدبر.

وإلى جانب هذا كله، فقد انفردت الجامعة بوجود مكتبة عظيمة، مؤلفة من طوابق تسعة، يؤمها الرهبان والعلماء ليكتبوا فيها المخطوطات، ويختلف إليها الطلاب للقراءة. ولقد اجتمع في المكتبة على مر العصور وتعاقب الدهور مئات الآلاف من المخطوطات والكتب والوثائق. ولم تكن المكتبة تقتصر على كتب الدين فحسب، بل اشتملت على كتب في مجالات شتى، كالفلك والهندسة والرياضيات والطب والفلسفة والأدب.

النهاية الحزينة

وفي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وتحديدًا سنة 1193م، غزا القائد التركي، والتابع للسلطان قطب الدين أيبك، اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجي (ت 1206م) ولاية بيهار، فأوقع بأهلها وأخضعهم بالسيف. ولسوء الطالع فقد كانت نهاية جامعة نالاندا على يد هذا الغازي،

الذي دمّرها تدميرًا، ورمى النار في مكتبتها العظيمة، فأتت على ما فيها من كتب ومخطوطات تُقدر أعدادها بالملايين!

منذ ذاك اليوم، لم تقم لجامعة نالاندا قائمة، وصارت خرابًا تصفر فيها الرياح وتنعق على أطلالها الغربان، ثم نسي الناس أمرها وأرخى النسيان عليها ستائره. ولما كانت سنة 1860م، استخرج عالم الآثار ألكسندر كانينغهام بقايا الجامعة من تحت التراب. وعلى الرغم مما حلَّ بها من دمار كبير، فقد وجد كانينغهام تماثيلاً ونقوشًا ونقودًا وأختامًا لا تُقدر بثمن.

وبعد أن كانت الجامعة منارًا للعلم ومحجًا للعلماء والطلاب، فإنها قد أصبحت بعد أن انتشلها كانينغهام من تحت التراب معلمًا تاريخيًا ومشهدًا سياحيًا. أما اليوم، وبدءًا من سنة 2014، فقد اتفقت حكومات الهند والصين واليابان وسنغافورة على نفخ الروح في جثمان جامعة نالاندا فعادت من جديد لتفتح أبوابها لطلابها، ولكن هذه المرة بصورة عصرية تليق بالألفية الثالثة بعد الميلاد!

مكتبة بايبلوتيكا كورفينانا

الملك المثقف

تُنسب هذه المكتبة إلى الملك المجري الكبير ماتياس كورفينوس (ت 1490م). وكان مُلك ماتياس قد امتد ليشمل مساحات واسعة مترامية الأطراف، شملت كل من النمسا وبوهيميا وكرواتيا. ولقد قضى ماتياس نحبه جراء إصابته بسهم في إحدى معاركه لضم مولدافيا تحت جناح إمبراطوريته.

وكان هذا الملك، إلى جانب ما عُرف عنه من نبوغ في ميادين السياسة والحرب، معروفًا عنه حبه للعلوم وجمعه للكتب. ولقد توج شغفه بالمعارف بأن بنى مكتبة بايبلوتيكا كورفينانا في عاصمة ملكه بودا. وكانت هذه المكتبة تُعد الأكبر والأشهر في أوروبا خلال القرن الخامس عشر لما حوته من كتب علمية وفلسفية وأدبية وتاريخية وجغرافية. ويقال إن الملك كان ينفق عليها ثلاثين ألف كرون كل عام. ولقد بلغت عدتها من الكتب عند وفاة ماتياس عشرة آلاف مجلد. وكان ماتياس حريصًا على تزيين كتبه وتجليدها بأفخر وأثمن أنواع التجليد.

الإعصار التركي

ولسوء الطالع، فإن هذه المكتبة الجميلة لم تعمر طويلاً؛ ففي النصف الأول من القرن السادس عشر، وتحديدًا في أيام السلطان العثماني سليمان القانوني، اجتاح الجيش التركي مملكة المجر، وأنزل بالملك لويس الثاني وبجيشه الكثيف هزيمة قبيحة. ولم تسلم المكتبة المذكورة من الإعصار

التركي، فتعرضت المكتبة إلى ضرر فادح، وتلف معظم ما فيها من كتب. وأما الكتب التي نجت بأعجوبة من الغزو العثماني فقد تلقفتها مكتبات المجر وأوروبا.

كلية غلاسني

لغة الكورنيش

في سنة 1265م، أي بعد انقضاء خمسة أعوام من معركة عين جالوت المشهورة التي كسر فيها المماليك حشود المغول كسرة عظيمة، قامت جماعة إنكليزية يقال لها الكورنيش، تقطن مقاطعة كورنوول، في جنوب غرب إنكلترا، ببناء كلية سُميت بـ "غلاسني". كانت هذه الكلية تختلف عن غيرها ليس في بريطانيا فحسب، بل في العالم بأسره، لأن علومها كانت تُدرس بلغة هذه الأقلية الصغيرة، والتي لا يعرف لغتها إلا من عاش بينهم وانتمى إليهم.

حرق الجذور

كانت لغة الكورنيش هي الوعاء الذي صُبّت فيه كافة الدروس، والكتب، والنقاشات، والمسرحيات. لقد أراد أهل هذه المقاطعة بكليتهم تلك أن يجددوا شباب لغتهم ويحافظوا عليها من عوامل الانقراض. بقيت كلية غلاسني تؤدي رسالتها وبنجاح نحو ثلاثة قرون، ثم جاءتها الضربة القاضية والطامة الكبرى حين أمر الملك هنري الثامن (ت 1548م) بتدمير الكلية، فقام جنده بنهب ما فيها وحرق كتبها، وتركوها قاعًا صفصفًا، ومن ذاك اليوم لم تقم لها قائمة.

كان لتدمير كلية غلاسني وحرق كتبها سببًا في تراجع لغة الكورنيش، وفي تناقص عدد متحدثيها، وظل هذا الحال قائمًا قرونًا عدة إلى أن اعترفت بريطانيا رسميًا، وبعد سنوات طويلة من الكفاح والنضال من أبنائها، وذلك

في سنة 2014م بالكورنيش كأقلية عرقية، ذات تاريخ وثقافة ولغة خاصة بها. والآن، وبعد الاعتراف بهم كأقلية لها خصوصيتها، هل ستنبعث في القادم من الأيام كلية غلاسني من تحت الرماد؟!

مخطوطات المايا

البلاد المنسية

المايا حضارة عريقة قامت وعاشت قرونًا مديدة في بلدان أمريكا الوسطى كغواتيمالا والهندوراس والسلفادور وفي أجزاء من المكسيك. وتعود نشأة هذه الحضارة إلى بداية الألفية الثانية قبل الميلاد، ولقد مرّت حضارة هنود المايا بعهود من الصعود والهبوط، ومن الازدهار والانحدار، إلى أن وطأ الجنود الإسبان أراضيهم البكر فكانت القيامة والنهاية البائسة.

ولقد اشتهرت حضارة المايا ببناء الأهرامات العجيبة، وبتصاميم المنازل والمعابد البديعة. وبرع أهل هذه الحضارة في الحساب والفلك، واستخدموا في كتابتهم ما يشبه اللغة الهيروغليفية الفرعونية، واعتمدوا في معاشهم على الزراعة والصيد. وكان ملوك المايا يجمعون في أيديهم كلا من السلطتين الدينية والزمنية. وكان أهل تلك البلاد وثنيين يعبدون جملة من الآلهة، وأكبرها وأجلها إله الكون ويدعونه هوناب كو، وإله المطر، وإله الذرة، وإله الزراعة، وغيرها من الآلهة.

الإسباني المتوحش

وفي القرن السادس عشر رست سفن الغزاة الإسبان على الشواطئ الشرقية لبلاد المايا. وعلى الرغم من قلة الجند الإسبان إلا أنهم بفضل حداثة أسلحتهم وحسن تخطيطهم تمكنوا من تركيع شعب المايا والاستيلاء على بلادهم وانتهاب خيرات أراضيهم. وكان الإسبان، إلى جانب شراستهم القتالية، متعصبين للمسيحية تعصبًا أعمى. ولهذا فإنهم حين وجدوا خزائن

تحتوي على مخطوطات أهل البلاد الأصليين قاموا بإضرام النار فيها مما أدى إلى تلف كنوز من المعرفة لا تُقوّم ولا تُقدّر.

مكتبة قصر رجلان

القصر المنيع

تقع هذه المكتبة في واحد من أكثر قصور ويلز البريطانية جمالاً وأشدها مناعة، والقصر يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر. ولقد حُكم على هذا القصر المنيف أن يشهد ويلات الحرب الأهلية التي اندلعت في بريطانيا خلال القرن السادس عشر، أي بعد ما ينيف على مائة سنة من بنائه.

ففي الفترة ما بين أعوام 1642م إلى 1646م قامت الحرب بين جيش الملك تشارلز الأول وجيش ما عُرف بالبرلمانيين، وانتهت الحرب بانتصار البرلمانيين على الملك، الذي اضطر صاغرًا إلى تسليم نفسه. وفي آخر سنوات هذه الحرب، أو ما تُسمى بالحرب الأولى، حاصر البرلمانيون بقيادة أوليفر كرومويل قوات الملك التي تحصنت بقصر رجلان. ولقد دام الحصار نحو عشرة أسابيع قبل أن ينجح أوليفر ورجاله في كسر الجيش الملكي وهزيمته. وعلى الرغم من ضراوة الحصار وشدة الضربات إلا أن القصر لم يتهدم، وبقي إلى هذا اليوم مزارًا سياحيًا يقصده السياح في كل زمان ومن كل مكان.

الكنز المفقود

وكان القصر يفخر، إلى جانب صلابة أسواره ومناعة أبوابه، بوجود مكتبة قيمة داخله، ضمت بين رفوفها مجموعة لا تُقدر بمال من كتب هامة لعظماء الكُتّاب في ويلز، فضلاً عن احتوائها على مخطوطات تاريخية فريدة. وعلى ما يبدو، فإن المكتبة لم يكن مقدرًا لها أن تصمد طويلاً أمام الحصار القاسي والقصف المتوالي، فتم تدميرها ونهب ما بقي منها من كتب

ومخطوطات، وهو ما يعتبره الولزيون إلى هذا اليوم خسارة فادحة لا يمكن لأحد تعويضها مهما كان الثمن.

مكتبة الكونجرس

المكتبة العظيمة

تعد مكتبة الكونجرس واحدة من أكبر وأفخم وأعظم المكتبات العامة في العالم قاطبة. تقع هذه المكتبة المهيبة في العاصمة الأمريكية، أي في مدينة واشنطن دي سي، وبالتحديد داخل مقر الكونجرس في منطقة الكابيتل هيل، وهي بلا شك تعتبر واحدة من أهم وأبرز معالم المدينة. يعود تاريخ تأسيس هذه المكتبة إلى سنة 1800م؛ ويُنسب الفضل في تشييدها إلى الرئيس الأمريكي توماس جيفرسن، ثالث رؤساء أمريكا، الذي كان يُعرف عنه تعدد المواهب وكثرة القراءات. وكما يشي اسم هذه المكتبة، فقد كانت في بداية الأمر مخصصة لأعضاء مجلس الكونجرس الأمريكي، ولكنها فيما بعد، وبدءًا من سنة 1897م، فتحت أذرعها لاستقبال الناس عامتهم وخاصتهم دون تفريق.

اليوم، تحوي مكتبة الكونجرس على قدر هائل من مصادر المعرفة من كتب ودوريات ووثائق ومخطوطات وغيرها، وبأكثر من أربعمائة وخمسين لغة، ويصل عدد الكتب فيها إلى نحو ثلاثين مليون كتاب في كل ضروب المعرفة. وكفاك أن تعرف أن ميزانية المكتبة تناهز ستمائة مليون دولار أمريكي، ويعمل فيها أكثر من ثلاثة آلاف عامل!

ومما هو جدير بالذكر، أن للغة الضاد نصيب من هذه المكتبة العظيمة؛ إذ تحتوي مكتبة الكونجرس على نحو ثلاثمائة ألف مصنف عربي، وفيها يوجد أول مصحف تُرجم إلى اللغة الإنجليزية، وفيها كذلك نسخ نادرة

من مخطوطات عربية قديمة، فضلاً عن امتلاكها للوحات فنية تخص المسجد الحرام بمكة، ومسجد رسول الله بالمدينة، والمسجد الأقصى بالقدس.

مصيبتان

عندما أبصرت المكتبة النور في مطلع القرن التاسع عشر كانت على جانب كبير من البساطة والتواضع. وبعد نحو عقد ونصف من تأسيسها، أي في شهر أغسطس من سنة 1814م، تعرضت المكتبة إلى نيران المدفعية البريطانية مما أدى إلى خرابها وتلف محتوياتها. وفي العام التالي قام الرئيس الأمريكي المتقاعد توماس جيفرسن بتقديم مكتبته الخاصة، وكانت تحوي قرابة ستة آلاف كتابًا، لتعويض المكتبة عما خسرته جراء القصف البريطاني.

وكأنه كان قدرًا مكتوبًا على مكتبة الكونجرس أن تحترق بالنار للمرة الثانية. ففي سنة 1851م شبَّ حريق كبير، بسبب عطب في أحد المداخن، أدى إلى احتراق خمسة وثلاثين ألف كتاب من جملة خمسة وخمسين ألف كتاب مرصوصة على الرفوف. ومنذ ذاك اليوم، عمل القائمون على المكتبة على بناء جناح جديد بمواد غير قابلة للاشتعال.

مكتبة جامعة ألاباما

شمال وجنوب

نشبت في الولايات المتحدة الأمريكية، في الفترة الممتدة من سنة 1861 إلى سنة 1865، حرب أهلية طاحنة دامية بين الشمال والجنوب، أو بين ما اصطلح على تسميته بقوى الاتحاد (ولايات الشمال) والانفصاليين (ولايات الجنوب)، لأسباب عدة لعل أهمها قضية العبودية. وبعد حروب طويلة وخطوب شديدة آلت الغلبة لقوى الاتحاد بعد أن تكبد الفريقان خسائر بالجملة في الأرواح والعتاد. وكان من أهم نتائج تلك الحرب إلغاء العبودية.

وبعد أن استظهر الشماليون على إخوتهم الجنوبيين، ولاحت في الأفق أمارات النصر، سار جنود قوى الاتحاد إلى ولاية ألاباما الجنوبية، والتي كان يتحصن بها القائد الجنوبي روبرت لي المحنك، فأخذوا يدمرون ما يجدونه في طريقهم ما يمكن لعدوهم أن ينتفع به في آخر معاركه. لم يترك الشماليون لخصمهم شيئًا؛ فدمروا وأحرقوا المصانع والمباني والجسور وحتى جامعة ألاباما.

أين المفر؟

لم يترك المنتصرون شيئًا إلا وأحالوه رمادًا، وكانت الجامعة واحدة من الضحايا التي اكتوت بنار الحرب. ففي الخامس من شهر أبريل، وبعد قيام مجموعة صغيرة من المتطوعين الشبان من أهل الولاية بالتحصن بالجامعة، قام جنود قوى الاتحاد بالهجوم على الجامعة وحرقها بالنار التي أكلت بعض مبانيها، بما فيها مكتبتها التي أتت النار عليها تمامًا حتى صارت كومة من رماد!

المكتبة الملكية في بورما

الحروب الثلاثة

تقع دولة بورما، أو ما تعرف اليوم بدولة ميانمار، في جنوب شرق آسيا. هذه البلاد، والتي يتعرض المسلمون فيها منذ سنوات إلى حملات عنيفة ومذابح رهيبة وسط سكوت وتخاذل المسلمين خاصة والعالم عامة، يغلب على أهلها البوذية، وأما الإسلام فيأتي ثانيًا.

وفي القرن التاسع عشر، خاض أهل البلاد ثلاثة حروب ضد البريطانيين الغزاة لدفعهم عن بلادهم، وفي كل مرة كانت الكرّة للإنجليز، الذين بسطوا سيطرتهم عليها وضموها إلى إمبراطوريتهم التي كانت الشمس لا تغيب عنها!

وبعد أن تجرّع البورميون مرارة الهزيمة في حربهم الثانية، والتي كان يطلق عليها الحرب الأنجلو - بورمية الثانية، قام ملكهم مايندين ببناء مدينة ماندلاي سنة 1859 واتخذها مقرًا لملكه. وبعد موت هذا الملك بسبعة أعوام قامت الحرب الأنجلو - بورمية الثالثة، والتي ترتب عليها سقوط العاصمة ماندلاي آخر معاقل الملكية، ومن ثم نفي العائلة المالكة إلى الهند.

قتل ونهب وحرق

ولما كسر الإنجليز شوكة الجيش البورمي في تلك الحرب الثالثة، دخلوا العاصمة ماندلاي عنوة، وهجموا على القصر الملكي، ونهبوا كل ما وقع في أيديهم من تحف وطرائف، وحملوها معهم إلى بلادهم، وهي ما زالت معروضة في متاحفهم هناك. وقبل أن يغادر الإنجليز القصر الملكي أضرموا النار في مكتبته الأنيقة والعامرة بآلاف الكتب والمخطوطات، ثم ارتحلوا بعد أن جعلوها قاعًا صفصفًا.

أكاديمية هانلين

ثورة الملاكمين

تقع هذه الأكاديمية العريقة، والتي يعود عمرها إلى القرن الثامن الميلادي، في بلاد الصين. وهذه الأكاديمية أشبه بمعهد إداري تقتصر العضوية فيه على نخبة منتقاة من أفراد المجتمع، ولقد خرج من عباءته جملة من أعلام الصين ومشاهيرهم في عدة ميادين على مر العصور وتعاقب الدهور.

وفي أواخر سنة 1899 قامت بالصين ثورة، تُسمى ثورة الملاكمين، وانطوى تحت رايتها فلاحو البلاد الذين ضاقوا بكثرة الأجانب وتعاظم تأثيرهم في مجالات السياسة والاقتصاد والدين. شهد شمال الصين بواكير هذه الثورة الشعبية، فهجموا على العمال الأجانب الذين كانوا يمدون سكك الحديد، وامتدت أيديهم إلى المبشرين المسيحيين، وإلى من اعتنق المسيحية من أبناء جلدتهم من الصينيين. وامتدت ألسنة هذه الثورة إلى العاصمة بكين، فقتل الثوار مئات الأجانب فيها، ثم سرعان ما اشتعلت أرجاء الصين بنار الثورة، وهو ما تسبب في مقتل عشرات الآلاف من الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية.

وأمام تنامي خطر هذه الثورة واشتداد أوارها، تكاتفت ثمان دولة أجنبية لها رعاياها ومصالحها في الصين، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وأمريكا واليابان، فأرسلوا جيشًا قوامه عشرين ألف لإنقاذ أتباعهم من الموت ومصالحهم من الضياع. وبالفعل، فقد تمكن هذا الجيش من كسر

شوكة الفلاحين وتسكين نائرة ثورتهم بعد أقل من عامين على قيامها.

بين فكي الكماشة

ما موقع أكاديمية هانلين من الإعراب؟ وما علاقتها بثورة الملاكمين؟ لسوء حظ الأكاديمية، أنها كانت تقع بالقرب من مقر البعثة البريطانية. ولما اجتاح الثوار مدينة بكين، وضربوا حصارهم على المنطقة التي تتجمع فيها الممثليات والبعثات الأجنبية بما فيها البريطانية، وجرى تبادل النار بين الفريقين، فوجئ المتقاتلون بالنار وهي تسري داخل مبنى الأكاديمية، ومن ثم إلى مكتبتها المرموقة. أكلت النار جل ما في المكتبة من كتب ومخطوطات، وأما ما بقي منها وسلم من الحرق فقد تناهبه الأجانب وحملوه معهم إلى ديارهم.

مكتبات الصين

الجلاد الياباني

منذ بداية الثلاثينيات الميلادية من القرن الفائت وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تعرضت الصين إلى غزو غاشم من اليابان لمدة خمسة عشر عامًا. وخلال تلك الفترة سقط عشرات الملايين من القتلى، ومعظمهم من الصينيين، وجرى ما يعجز الوصف عن حكايته من قتل وحرق ونهب وسلب من قبل الغزاة اليابانيين. ولولا قنبلتي هيروشيما ونجازاكي التي أسقطها الأمريكان على رؤوس اليابانيين لما ترك اليابانيون في الصين بيتًا معمورًا ولا سقفًا مرفوعًا.

وإلى جانب ما تسبب فيه اليابانيون من وقوع ملايين من البشر قتلى، فإنهم قد تسببوا في تدمير الثقافة الصينية عن عمد وقصد. ففي خلال الخمسة عشر عام من الحرب صوّبَ اليابانيون فوهات بنادقهم ومدافعهم لهدم ما عند الصينيين من مدارس ومعاهد وجامعات ومكتبات وآثار تاريخية موغلة في القدم، وكأنهم بذلك يريدون أن يطفئوا ما عند عدوهم من منارات التنوير ومشاعل التعليم، ويبيدوا ما تزخر به أراضيه من معالم نفيسة وآثار قديمة.

فبالنسبة إلى المدارس والجامعات، وبالذات تلك الواقعة في شمال البلاد، فقد صار الآلاف منها أثرًا بعد عين، والبعض منها تحول إلى معسكرات ومشافي للغزاة اليابانيين. وبسبب هذه الحرب الشعواء والتدمير المتوالي للمدارس فقد بَطُلَ التعليم مدة، وتعطلت المدارس، وفات التلاميذ قطار التعليم سنينًا، وخسر المعلمون وظائفهم وقعدوا عن العمل.

وأما التخريب الذي أصاب معالم البلاد القديمة وآثارها التاريخية فحدث ولا حرج. فكثير من المباني والأبراج والأسوار القديمة تهدمت أو احترقت بسبب مدافع اليابانيين ونيرانهم. وحتى كثيرًا من المعابد الدينية الضاربة في القدم فإنها صارت ركامًا وكأنها لم تغن بالأمس، هذا فضلاً عن نهب اليابانيين لما استطاعوا حمله إلى بلادهم من قطع ثمينة وتحف فريدة.

وإذا ما سألت عن الكتب والمكتبات، فالحق أنها تعرضت لمصاب عظيم وضرر كبير يهون عنده ما فعله المغول بمكتبات المسلمين. فما من مكتبة عامة أو خاصة وصلت إليها أيدي اليابانيين إلا وأتلفوها وأحرقوا محتوياتها. وإذا ما سألت عن أرقام المكتبات وأعداد الكتب التي طالها الخراب والدمار فالعدد أكثر من أن يُحصى. وزاد اليابانيون على ذلك بأن أسسوا لجنة غايتها التفتيش عن المصنفات النفيسة والمخطوطات النادرة ومن ثم نقلها إلى اليابان. وبحسب إحصائية صينية لاحقة، فإن إجمالي مكتبات الصين قبل أن يطأ اليابانيون البلاد كان 1848 مكتبة، وبعد أن انقلب اليابانيون على أعقابهم ناكصين كان المتبقي منها 940 مكتبة فقط. وقُدر عدد الكتب التي فقدتها الصين في حربها بنحو مليوني وربع نسخة من الكتب العامة، ولكن من المؤكد أن الخسائر الفعلية كانت أكبر من ذلك بكثير.

الجامعة الكاثوليكية في بلجيكا

الطوفان الألماني

في شهر أغسطس من سنة 1914م، أراد الألمان محاصرة القوات الفرنسية، ولتحقيق هذا الهدف كان عليهم أن يشقوا طريقهم عبر دولتين وهما: لوكسمبورغ وبلجيكا. لم يحتج الألمان إلى وقت طويل لاحتلال لوكسمبورغ المتناهية الصغر، ثم طلبوا من البلجيك السماح لهم بالمرور عبر أراضيهم، فامتنع ملكهم عن قبول طلبهم، فما كان من الألمان أن زحفوا بجيشهم في اليوم التالي.

دخل الألمان بلجيكا، فاستبسل البلجيكيون في الدفاع عن بلادهم، وجرت معارك عديدة، وسالت دماء غزيرة، وتدمرت المدن، وتهدمت البيوت، ولم يتوقف الألمان عن التقتيل والتدمير إلا في العاشر من شهر أكتوبر من نفس العام، أي بعد انقضاء شهرين ونيف على دخولهم البلاد. ويقدر عدد الذين قُتلوا بأكثر من عشرين ألف، وعدد البيوت التي هُدمت بخمسة وعشرين ألف، وعدد الذين غادروا البلاد هربًا من الموت والأسر بمليون ونصف المليون.

التاريخ يحترق

وخلال الشهور الأولى من دخولهم البلاد، فعل الألمان الأفاعيل في مدينة لييج البلجيكية، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ودمروا ما جاء في طريقهم. ونالت مكتبة الجامعة الكاثوليكية، ذات الخمسمائة سنة، حظها من التخريب؛ ففي الخامس والعشرين من شهر أغسطس من العام المذكور أحرق الألمان

عن عمد محتويات تلك المكتبة، والتي بلغ عددها ثلاثمائة ألف ما بين كتاب ومخطوطة. لم يحرق الغزاة المكتبة لضيقهم بما فيها من كتب وأفكار، وإنما أحرقوها، وأحرقوا المدينة بأكملها، بقصد كسر إرادة أهل البلاد وزرع الرعب في قلوبهم حتى يلقوا بالسلاح جنبًا ويسمحوا للأمان بدخول البلاد سلمًا.

مكتبات ألمانيا

النازيون الصغار

ربما لم يشهد العالم في العصر الحديث شيئًا كهذا الذي شهدته ألمانيا زمن النازية من "هولوكوست" ذهبت ضحيته ما في المكتبات العامة والخاصة من كتب لا تتناغم مع شعار "لا للفكر اللاألماني" الإقصائي الذي أخذ يتبلور ويتمكن ويتغلغل بعيد نهاية الحرب العالمية الأولى. ففي شهر مايو من سنة 1933م، ومع بدايات صعود النازية وتولي أدولف هتلر سدة الحكم، اجتمع أكثر من سبعين ألف، وأكثرهم من طلاب الجامعات، وتلك هي الطامة الكبرى، في ميدان الأوبرا في برلين ليحتفلوا معًا بحرق عشرات الآلاف من الكتب التي تم نهبها من كافة المكتبات. ففي ظرف دقائق تحولت أرتال الكتب إلى ما يشبه تلاً من رماد، فيما أحاط الجميع بهذا التل وهم يمدون أيديهم إلى أعلى، وهي إشارة النازية المتعارف عليها.

لقد أحرق النازيون كتبًا لا يعلم بعدتها إلا الله عزّ وجل. فما من كتاب أجنبي إلا وكانت النار مثواه، وحتى كتب الألمان أنفسهم فقد لقيت هي الأخرى المصير التعس نفسه. فالمحرقة التي سّعرها النازيون من طلاب الجامعة ممن تلبسهم شيطان النازية لم تعتق كتب أكثر الكُتّاب الألمان شهرةً، من أمثال هينريش مان وإريش ماريا ريماك وغيرهم. ولا تحسب أن برلين وحدها من صنعت من الكتب تلالاً من رماد، بل أن أكثر من عشرين مدينة ألمانية رقصت على تلال الرماد التي شيّدها شبّان متحرقون ومتعصبون لنقاوة عرقهم الآري.

كان طلاب الجامعات الذين تشربوا العقيدة النازية يقفون فوق ركام من الكتب، ويمسكون بأيديهم كتبًا يقلبون صفحاتها، فإذا كان فيها مدح للإيدلوجية النازية وتعظيم لها تركوه، وإذا كان فيه خلاف ذلك حملوه إلى المحرقة. كان الطلاب يتناهبون ما في الرفوف من كتب وسط سكوت موظفي المكتبات وأساتذة الجامعة الذين آثروا السلامة والعافية حتى لا يكون مصيرهم مثل مصير الكتب. ومن العجيب أن من قام بإتلاف الكتب وحرقها هم طلاب الجامعات ممن اعتنقوا النازية بحماسة طاغية، وأما القيادة النازية بزعامة هتلر فلم تأمر بحرق الكتب وإتلاف المكتبات، ولكنها حماسة الشباب!

كأنهم يحرقون أبنائي

وفيما كان المذياع يبث في منتصف الليل وقائع احتفال الطلاب بحرق الكتب في مدينة برلين، انضم إليهم وزير الدعاية النازي المشهور جوزيف جوبليز، وهو صاحب العبارة الشهيرة "اكذب، واكذب، واكذب حتى يصدقك الناس" ليقول لهم ولكافة الشعب: "تنتهي الآن حقبة الفكر اليهودي الصارخ، فها هي الثورة الألمانية تفتح الطريق من جديد" وسط تصفيق وتهليل الجميع. وكأني بالشاعر الألماني هاينريش هاينه (1856م) تنبأ بها سوف يحدث حين كتب ذات مرة: "أينما تحرق الكتب، فسينتهي الأمر بحرق البشر أيضًا"، وهو ما حدث بالفعل. فبعد أعوام قليلة من قيام الألمان بحرق الكتب أخذوا يحرقون البشر في أفران بُنيت خصيصًا لذلك، وهو ما اشتهر باسم الهولوكوست.

وفي إحدى حفلات حرق الكتب، التي كان يصاحبها أغان شعبية وعسكرية، حضر أحد الكُتّاب الألمان الكبار ويُدعى أريش كوستنر متخفيًا حتى لا يُستدل عليه، وكاد الرجل أن يقع في أيدي الرعاع بعد أن نمّت

عليه إحدى الممثلات المسرحيات، لكنه ذاب في الزحام وضاع منهم. يقول كوستنر بعد أن حضر إحدى تلك الحفلات المجنونة ورأى كتبه بأم عينه تُرمى في النار: "كأنهم يحرقون أبنائي"!

هذا عن الكتب والمكتبات، وأما الكُتّاب والشعراء فأكثرهم طاروا على جناح الفرار بعدما جرى في البلاد من تكميم للأفواه وخنق للحريات. وإذا كان بعضهم قد اكتفى بالفرار بجلده خوفًا من قمع الفكر واضطهاد حرية التعبير، فإن بعضهم أخذ يحذر بني جلدته ويبصّرهم بمخاطر الانسياق وراء الأفكار النازية القاتلة. وأما من بقي منهم خلف أسوار النازية في بلادهم، فقد أُجبروا على السكوت وحِيل بينهم وبين التعبير عن أفكارهم ونشرها للناس.

قبل أربعة أعوام، أحيت ألمانيا الذكرى الثمانين لإحراق الكتب على يد النازيين، وتم تنظيم جملة من الأنشطة الثقافية لاستعادة تلك الحوادث المؤلمة وقراءتها من جديد واستخراج العبرة منها. وعلى ما يبدو، فإن الجراح التي تسبب النازيون بها لم تندمل حتى اليوم، بشهادة رئيس البرلمان الألماني الذي لفت إلى أن ألمانيا لم تسترجع سمعتها الفكرية العالمية التي عُرفت بها قبل إمساك النازيين بأزمّة الحكم، مشيرًا إلى أنهم - أي النازيين - قد أحدثوا "قطيعة مع الحضارة".

المكتبة الوطنية في بولندا

شرارة الحرب العالمية

في عام 1939 دخل الجيش النازي الألماني بولندا من الغرب، ثم سرعان ما لحقهم السوفييت فدخلوا الأراضي البولونية أو البولندية من جهة الشرق، فغدت بولندا المسكينة الواقعة بين طرفي كماشة لا حول لها ولا قوة. وبعد أن تقاسم الغزاة الأراضي البولندية بما فيها ومن عليها، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على الألمان، فكانت بداية الحرب العالمية الثانية.

ولقد تكبد البولنديون جراء هذا الغزو الغاشم خسائر عظيمة ما زلت صورتها محفورة بعمق في ذاكرة الشعب البولندي. وكيف لهم أن ينسوا مئات الألوف ممن قُتلوا دفاعًا عن تراب وطنهم واستقلالهم؟! وكيف لهم أن يغفروا للنازيين قتلهم لملايين البولنديين الذين سيقوا كالنعاج إلى معسكرات الاعتقال الرهيبة على مدار خمسة أعوام؟!

وكما أقام الألمان المجازر للبولنديين فقد أقاموها كذلك لكل ما يتصل بالتراث البولندي وثقافتهم. لقد أراد الألمان بتدميرهم للثقافة البولندية أن يغسلوا ذاكرة من بقي من البولنديين وأن يحرقوا كل ما يذكرهم بجذورهم وتراثهم. لقد لاحق أتباع هتلر علماء البلاد ومفكريها وفنانيها وقتلوهم بلا شفقة، وأغلقوا أبواب المدارس والمعاهد، ومنعوا المسارح ودور العرض السينمائية، وأوقفوا الصحف والمجلات، وحرّموا على الناس الاستماع إلى المذياع، ولم يسمحوا لهم إلا بالعروض الرخيصة والشهوانية التي توقظ الغرائز وتخدر العقول، وسرقوا ما قدروا على حمله من تحف وقطع فنية إلى

بلادهم، ودمروا ما قدروا على تدميره. ومثلما كان الألمان يقتلون الناس ويدمرون ثقافتهم وتراثهم، فقد كان السوفييت يفعلون بهم الشيء ذاته.

مغول القرن العشرين

أما المكتبة الوطنية البولندية، والتي شُيّدت سنة 1928م، وفتحت أبوابها سنة 1930م، فقد حلَّ بها البلاء ونالها مثل ما نال البولنديين من عقاب. فقد صيّرَ الألمان عاليها سافلها وأمطروها بوابل من القذائف، فجعلوها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس. لقد كانت المكتبة قبل أن يجتاحها الغزاة من الشرق والغرب تحوي زهاء ستة ملايين كتاب، وخمسين ألف مخطوطة، ولوحات وتحف وخرائط بالآلاف، وأشياء أخرى لا تُعوض بمال. جلَّ هذه المحتويات الثمينة تبددت وضاعت بلا رجعة مع شديد الأسف!

ولا تحسب أن المكتبة الوطنية هي وحدها من طالتها يد التخريب، بل أن كل مكتبات بولندا – الخاص منها والعام – لقيت المصير الأسود نفسه. ففي مدينة وارسو وكاركوف جرى إتلاف أكثر من مائة مكتبة. وكانت الكتب التي تقع بأيدي النازيين تصبح بين أمرين أحلاهما مر: فإما أن تُلقى في النار لتحترق، وإما أن تُحمل إلى ألمانيا ليعاد تدوير أوراقها! كما أن مكتبات اليهود، وكانت بولندا وحدها تستأثر بأكثر من نصف مكتبات اليهود في أوروبا كلها، قد تعرضت لتدمير شبه كامل.

المكتبة الوطنية في صربيا

الموت مرتين

بُنيت هذه المكتبة سنة 1832م، وكان مقرها مدينة بلجراد، عاصمة يوغسلافية السابقة، قبل أن تنفرط سبحة هذا البلد ويتفكك إلى دويلات مستقلة عن بعضها البعض، وهي: صربيا، كرواتيا، سلوفينيا، البوسنة والهرسك، الجبل الأسود، مقدونيا.

اكتوت المكتبة الوطنية خلال الحرب العالمية الأولى بنار الحرب التي أودت بمعظم ما فيها من كتب ومخطوطات، وأما ما بقي منها فقد حُمل بعيدًا قبل أن يغدو هو الآخر رمادًا. ولما وضعت الحرب أوزارها عادت المكتبة لتنهض من جديد على قدميها.

وبعد ما ينيف على عقدين من الزمان عاشت المكتبة أيامًا أشد سوادًا وأكثر رعبًا من ذي قبل. فبعد قيام الحرب العالمية الثانية، اشتعلت النار في أكثر البلدان الأوروبية، وامتدت ألسنتها إلى أجزاء من قارات العالم الأخرى. وفي أبريل من سنة 1941 دّكت المدافع النازية الألمانية مدينة بلجراد، فسقط أربعة آلاف قتيلاً، وهوت أكثر من ثمانمائة بناية أرضًا، وكانت المكتبة الوطنية الصربية واحدة من تلك البنايات التي قصدتها النيران الألمانية فجعلتها في غمضة عين أثر بعد عين.

القيام من تحت الأنقاض

كانت المكتبة يومذاك تضم قرابة خمسمائة ألف مطبوعة، ما بين كتب ومخطوطات وصحف ومجلات. ووُجدت بين هذه الكتب مجموعة نادرة

كُتبت ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر الميلادي. وأما المخطوطات، فبعضها يعود تاريخها إلى زمن العصور الوسطى، وبعضها الآخر تركية كُتبت زمن الهيمنة العثمانية على دول البلقان الأوروبية، ناهيك عن خرائط عتيقة وتحف بديعة.

وكما قامت يوغسلافيا من تحت الأنقاض فقد فعلت المكتبة الوطنية الشيء نفسه. لقد نفضت المكتبة عن نفسها غبار الحرب، وعادت من جديد لتفتح أبوابها للعامة والخاصة سنة 1947م وإلى هذا اليوم ما زالت أبوابها مشرعة لطلاب العلم وعشاق الكتاب.

المكتبة الوطنية في كمبوديا

الخمير الحمر

أسس الفرنسيون سنة 1924 م للكمبوديين، أثناء احتلالهم للبلاد، مكتبة وطنية للعامة، وكانت تحوي حينها ما يقرب من ثلاثة آلاف كتاب، معظمها باللغة الفرنسية. أخذت المكتبة تنمو يومًا وراء يوم، ولما استقلت البلاد وتحررت من قبضة الفرنسيين سنة 1954م، أخذت تتسع أكثر فأكثر وكتبها تزداد أكثر فأكثر.

وفي منتصف السبعينيات من القرن الفائت، قامت جماعة تُدعى بـ "الخمير الحمر"، وهم أخلاط من أحزاب شيوعية، بالتسلط على البلاد والعباد، والتسبب في قتل مليون ونصف من الخلق، وفي نزوح الملايين إلى خارج الحدود، وحملوا الناس عنوة على العمل في المزارع كما لو كانوا عبيدًا، وجرت فيما بعد فصول ذكر تفصيلها يطول. وظلت مراجل البلاد تغلي، إلى أن اجتمع الأضداد سنة 1991م، ووقعوا فيما بينهم معاهدة سلام، ومنذ ذاك التاريخ بدأ السلام يحل والاستقرار يعم، وقبل أن يطوي القرن العشرون آخر صفحاته انتهت جماعة الخمير الحمر من الوجود.

أيام سوداء

وأما المكتبة الوطنية الكمبودية فقد تعرضت إبان الأيام السوداء لجماعة الخمير الحمر إلى الإتلاف والحرق في منتصف السبعينيات، ولم يبق منها إلا القليل. ولقد ظلت المكتبة خالية على عروشها إلى بداية الثمانينيات الميلادية حين هبّت بعض المنظمات الدولية فمدّت يد المساعدة للمكتبة المنكوبة. لقد

تعافت المكتبة الوطنية من جراح الأمس وآثار الماضي، وهي اليوم تزخر بأكثر من مائة ألف كتاب، بلغات شتى، ومن كل ضرب من ضروب المعرفة.

مكتبة التاميل

نمور التاميل

تقع مدينة جفنا في الشمال الشرقي من دولة سيرلانكا، وكانت جفنا هذه عاصمة لمملكة جفنا التاميلية القديمة نحو خمسة قرون ما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر. والتاميل هم جماعة عرقية، أكثرهم يدينون بالوثنية، وفيهم قلة من المسلمين والمسيحيين، وهم يتخذون من شبه القارة الهندية موئلاً لهم، ولهم كذلك امتدادات في بقاع الأرض وقارات العالم. والتامليون لهم طبائعهم وصفاتهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم ورقصاتهم التي تميزهم عن غيرهم من أهل الهند وسيرلانكا.

ولقد شهدت الثمانينيات الميلادية من القرن الفائت ميلاد حركة انفصالية خرجت من رحم التاميل، سمّت نفسها بـ "نمور التاميل"، وخاضوا حربًا لا هوادة فيها ضد حكومة سيرلانكا المركزية بقصد الاستقلال بمناطقهم الواقعة في الشمال الشرقي من الجزيرة السريلانكية، وكما هو حال أي حرب، فقد سقط عشرات الألوف قتلى من كلا الطرفين. وعندما تدخلت الجارة الكبرى الهند وأرسلت قوة عسكرية لنصرة الجيش السريلانكي بعث التاميل بفدائية من عندهم ترتدي حزامًا ناسفًا، فقتلت نفسها، وقتلت معها رئيس وزراء الهند الأسبق راجيف غاندي الشهير، وكذلك ستة عشر رجلاً كانوا قريبين منه.

وظلت أوار الحرب مشتعلة ما يقرب من عشرين عامًا إلى أن جرى اتفاق سلام بين الطرفين سنة 2002، وبعد أن كان نمور التاميل يطالبون

بالانسلاخ الكامل عن الدولة السريلانكية، صارت أقصى طموحاتهم أن ينالوا حكمًا ذاتيًا. وبعد سنوات قلائل انفجر العنف مجددًا، ولكن الحكومة السريلانكية كانت أقوى من ذي قبل، فقتلت زعيمهم وخضدت شوكتهم وأطفأت نيرانهم.

الشعرة التي قصمت ظهر البعير

قبل أن تشتعل الحرب في سيرلانكا سنة 1983 كانت البلاد تعيش إرهاصاتها وتقاسي مخاضاتها. وإحدى الحوادث التي أسهمت في تسخين العلاقة بين الطرفين ودفعت بها إلى نقطة الانفجار ما جرى في اليوم الأول من شهر يونيو من سنة 1981. ففي ذلك اليوم الكئيب، قامت شرذمة من الشرطة المركزية، وبتوجيه من وزيرين حكوميين، بالهجوم على مكتبة جفنا المبنية على الطراز المغولي والمؤلفة من طابقين يحويان نحو مائة ألف كتاب ومخطوطة. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى قضت النار على واحدة من أجمل وأرقى المكتبات في جنوب آسيا. وهكذا، خسر التاميل أولاً، والسريلانكيون ثانيًا، والعالم بأسره ثالثًا، في ظرف ساعات ما تم بنائه في بضعة عقود من الزمان!

وبعد ما يقرب من ربع قرن، وعلى وجه الدقة سنة 2004، أُعيد بناء المكتبة من جديد، وأُعيد تزويدها بالكتب والمخطوطات، وأكثرها عن طريق الهبات. وأغلب الظن أنه ما عاد هناك خطر يتربص بها بعد أن خمدت نار الحرب، وعاد السلام ليرفرف بأجنحته البيضاء فوق تلك الجزيرة الهندية الوادعة.

مكتبة السيخ

المعبد الذهبي

في صيف 1984 قرر زعيم جماعة السيخ بالهند سانت بيندرا الاعتصام داخل المعبد الذهبي الكائن بولاية البنجاب الهندية، والمعبد الذهبي هو هيكلهم المقدس ومهوى أفئدتهم ومحجتهم الأولى منذ القرن أوائل القرن السابع عشر الميلادي. والسيخية هي ديانة قامت في شمال الهند في القرن السادس عشر الميلادي، ومؤسسها رجل يُدعى غورو ناناك، وغورو في لغتهم هو المعلم.

وعلى خلاف الهندوسية، فإن السيخية خليط من الأديان كالهندوسية والإسلام والمسيحية، وهي ديانة توحيدية تنبذ التعددية كما عند الهندوس، ويؤمن أتباعها بالمساواة بين الذكر والأنثى في المعاملات والمواريث، ولا تجيز الديانة للرجل الاقتران بأكثر من زوجة واحدة، كما أنها تضيق بالرهبانية والانصراف عن الدنيا وتحرض أتباعها على الضرب في الأرض طلبًا للرزق.

وبالرجوع إلى صاحبنا سانت بيندرا، فإنه اعتصم بالمعبد الذهبي، احتجاجًا على رفض رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي إعطاء السيخ حكمًا ذاتيًا في ولاية البنجاب، وقيامها فوق ذلك باعتقال الآلاف من جماعته لمطالبتهم بالانفصال. ثم لم يلبث أن التحق بسانت بيدرا زعيم حركة خالصستان، وهي سيخي كذلك، فجاء إليه برجاله بعدتهم وعتادهم حتى بدا المعبد الذهبي كما لو كان ثكنة عسكرية. اعتصم المحتجون داخل المعبد، وامتنعوا عن الطعام، واحتجزوا معهم آخرين من السيخ وغير السيخ، وأوصدوا

الأبواب في وجوه الساعين إلى حقن الدماء وفضّ الاعتصام سلمًا.

وأمام هذا العنت السيخي وتمسكهم بمطالبهم أمرت أنديرا غاندي جيشها بالهجوم على المعبد، فدارت معركة رهيبة انتهت بمقتل المئات وجرح الآلاف، وأكثرهم كانوا من السيخ، وكان سانت بيندرا واحدًا ممن سقطوا في تلك المعمعة. وكان السيخ يحتفظون في داخل معبدهم بمكتبة تضم آلاف المخطوطات التي تعود للآباء المؤسسين والمعلمين الأوائل للديانة السيخية. وبعد أن سكتت المدافع وجدوا هذه المكتبة وقد صارت ركامًا من رماد!

حمام الدم

وبعد أربعة أشهر ونصف من بدء قيام الجيش الهندي بدك المعبد الذهبي على رؤوس من فيه؛ خرجت أنديرا غاندي ذات صباح من منزلها إلى مكتبها، وكان حراسها يمشون خلفها. ولما اقتربت غاندي من نهاية الممر المفضي إلى مكتبها استدار نحوها حارسان من السيخ كانا يقفان في نهاية الممر، فأمطرا سيدة الهند الأولى بوابل من الرصاص، فسقطت صريعة مضرجة بدمائها. تسبب مقتل غاندي في إثارة الهندوس، فخرجوا إلى الشوارع كالمجانين يبحثون عن أي سيخي، فكانوا يذبحون ما يقع في أيديهم من ذكور وإناث صغارًا وكبارًا، وساقوا رجال السيخ جماعات إلى محارق أعدوها لهم، وأوقفوا الحافلات والقطارات وانتزعوا من فيها من السيخ فذبحوهم في الحال، وأطلقوا أيديهم في متاجر السيخ وفي بيوت أثريائهم ينهبونها ويخربونها.

مكتبة الجامعة الوسطى في رومانيا

دكتاتور رومانيا

تأسست هذه المكتبة، الكائنة في العاصمة الرومانية بوخارست، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يد مصمم فرنسي، وكانت حينها تحتضن ما ينوف على ثلاثة آلاف كتاب، ولكن حجم المكتبة أخذ يكبر وكتبها أخذت تكثر عامًا بعد عام، حتى بلغ عددها أكثر من مليوني كتاب سنة 1970م.

وفي أواخر الثمانينيات من القرن المنصرم، هبّت على رومانيا، مثلها مثل باقي دول الكتلة الشرقية الأوروبية رياح التغيير، ولكن الوضع في رومانيا كان أشد عنفًا وأكثر ضراوةً من غيرها. كانت رومانيا حينذاك في قبضة أحد طغاة العصر الأشداء واسمه نيكولاي تشاوشيسكو كان تشاوشيسكو يحكم بلاده بالحديد والنار، وكان شعبه المسكين يعاني في ظله من الفقر والظلم والاستبداد. ولما أخذت عروش الحكم في دول أوروبا الشرقية تتداعى أخذ الشعب الروماني يتحرر من ربقة الخوف فخرج إلى الشارع يهتف للحرية والخلاص. لم يقو جند الطاغية على رد الشعب إلى قمقم الخوف ثانية، فانقلب العسكر على طاغيتهم، فأخذوه هو وزوجته وأعدموهما رميًا بالرصاص بعد محاكمة صورية.

ثمن الحرية

لم تستغرق الثورة الرومانية سوى أسابيع قليلة؛ غير أنها شهدت سقوط الآلاف من القتلى الباحثين عن غد جديد تشرق فيه شمس العدالة وتهب

فيه نسمات الحرية بعد عقود طويلة من الظلم والقمع. أسوأ ما في الثورة أن مكتبة الجامعة الوسطى لم تسلم من الطوفان الجارف؛ إذ أن أكثر من خمسمائة ألف كتاب ونحو أربعة آلاف مخطوط ذهبت طعمة للنار. ولحسن الحظ، فإن المكتبة استعادت بريقها بعد بضعة أشهر من زوال الكابوس عن البلاد ونشوء عهد جديد، وهي اليوم تتوسط العاصمة الرومانية مثل تحفة معمارية بديعة تسر الناظرين وتغريهم بدخولها.

المكتبة المركزية في البوسنة

جبل المعرفة

كانت سراييفو، العاصمة البوسنية، تفخر بأنها تمتلك واحدة من أرقى وأجمل وأعظم المكتبات العامة ليس في أوروبا فحسب، بل في العالم قاطبة. يسمونها بلغتهم سرايفسكا فياشنيتسا، أو "جبل المعرفة". هل كان يدور في خلد أهل البلاد أن جبل المعرفة الذي يفيض على الناس بأنوار العلم والفكر سوف يتصدع ويغدو أثرًا بعد عين؟!

وُلدت المكتبة المركزية لسراييفو سنة 1892م، وبعد مائة عام بالتمام والكمال، أي سنة 1992م أحرق الصرب المتوحشون المتعصبون تلك التحفة البديعة والدرة الثمينة، ومنعوا المياه أن تصل إليها فتنقذ ما يمكن إنقاذه، حتى تفحم مبناها الجميل وغدى ما فيها من كتب ومخطوطات تلاً من رماد سرعان ما عبثت به أصابع الرياح ليتساقط فوق رؤوس الناس كالثلج المندوف في ليلة من ليالي أغسطس الساخنة.

استمرت نيران الحقد وأدخنة الكراهية تنهش الجدران والرفوف والكتب والمخطوطات لمدة ثلاثة أيام بلياليها. كان الناس يخرجون، بالرغم من رصاص القنّاصة وقذائف المدافع، لينقذوا ما بقي من مكتبتهم الجميلة، وربما سقط أحدهم صريعًا وهو في ذهابه إلى المكتبة أو في إيابه منها!

ومما هو جدير بالذكر، أن تصميم هذه المكتبة العظيمة مستوحى من تصميم جامع السلطان حسن الكائن بالقاهرة، والسلطان حسن هو أحد سلاطين المماليك البحرية، وهو ابن السلطان الكبير الناصر محمد بن

قلاوون، وقد بُني هذا الجامع في منتصف القرن الثامن الهجري، وما زال إلى هذا اليوم خالدًا وشامخًا ومقصدًا للزائرين والمهتمين.

ورد في تقرير قصير، نشرته قناة "الجزيرة" القطرية، على موقعها في شبكة الإنترنت، أن القائمين على المكتبة نجحوا في إخفاء ما يقدر بخمسمائة ألف كتاب، وستة آلاف مخطوطة، قبيل انطلاق شرارة الحرب، ولكنهم لم ينجحوا في إنقاذ نحو مليونين ونصف من الكتب والمخطوطات التي صارت طعمة لنيران الحقد والكراهية والجهل. ومن ضمن المخطوطات التي نجت من المحرقة - بحسب رئيسة قسم المخطوطات بالمكتبة - مصحف مكتوب بماء الذهب، ونسخ أصلية بأدعية صوفية لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

العودة إلى الحياة

وما أن وضعت الحرب أوزارها، وعاد الصرب القتلة إلى ديارهم بخفي حنين، حتى أخذت سراييفو تتعافى من جراحاتها القديمة وتجاهد للخروج من نفق الظلام والموت إلى الحياة والنور. وأما مفخرتها ودرتها، وأعني مكتبتها، فقد بدأت هي الأخرى تنتفض من تحت الأنقاض، ولكن أعمال البناء والترميم استغرقت ثمانية عشر عامًا لكي تنهض مجددًا وتنفض عنها آثار الرماد والغبار، وكل هذا بسبب قلة الحيلة وندرة المال. ما يهمنا الآن، أن المكتبة عادت إلى الوجود بنفس حلتها القديمة، وكأن النار لم تمسسها في يوم، لتقف على قدميها كما كانت تقف بالأمس جبلاً للمعرفة.

المكتبة الوطنية في أبخازيا

حرب الجارين

يخيل لي أن القليل منا قد سمع بدولة صغيرة تُدعى أبخازيا. تقع هذه الدولة على حافة البحر الأسود من جهة الشرق، وكانت هذه الدولة جزءًا من دولة أخرى وهي جورجيا إبان ما كان يُعرف حينها بالاتحاد السوفيتي. ولما تهدمت دولة السوفييت وتداعت أركانها أخذت النعرات القومية تطل برأسها بعد عقود من القمع. لم يكن الشعب الأبخازي بأقل من غيره من القوميات الأخرى التي أخذت تنفض عنها الغبار وتتطلع للاستقلال. ففي صيف 1989م نشبت أولى المواجهات المسلحة بين الأبخازيين وجيرانهم الجورجيين، وكانت النتيجة سقوط عشرة أنفس ونيف.

ومنذ ذاك العهد والعداوة بين الشعبين تستحكم عراها والكراهية بينهما تتأجج نيرانها. وبعد ثلاثة أعوام من بدء المناوشات العسكرية أعلنت أبخازيا استقلالها عن جورجيا، فقامت الحكومة الجورجية بتسيير جيشها الذي اقتحم الحدود الأبخازية مما أفضى إلى سقوط عشرات الآلاف من القتلى وأكثرهم من جورجيا، فضلاً عن نزوح آلاف مؤلفة من كل العرقيات خارج الحدود الأبخازية هربًا من جحيم الحرب.

وبعد عام من القتال اضطر الجيش الجورجي إلى الانسحاب بعدما تكبد خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد، بسبب ما أظهره الأبخازيون من صور البطولات وألوان التضحيات، ناهيك عن المساعدات التي كانت تتدفق على الأبخازيين من الروس وغيرهم من الدول المجاورة.

ومما هو جدير بالذكر، أن الجيش الجورجي لما دخل العاصمة الإبخازية سوخومي سنة 1992 قام بتدمير معلمين ثقافيين يعتز بهما الأبخازيون وهما: المعهد الأبخازي للبحوث التاريخية واللغوية والأدبية، والمكتبة الوطنية لأبخازيا. ولا نعرف على وجه الدقة حجم الخسارة؛ ولكن من المؤكد أن هذين الصرحين الثقافيين كانا مستهدفين من قبل القوات الجورجية لحرصها على سلخ ذاكرة الأبخازيين وإتلاف ما لديهم من ذخيرة ثقافية يتشبثون بها في الدفاع عن حريتهم وانعتاقهم من كل هيمنة.

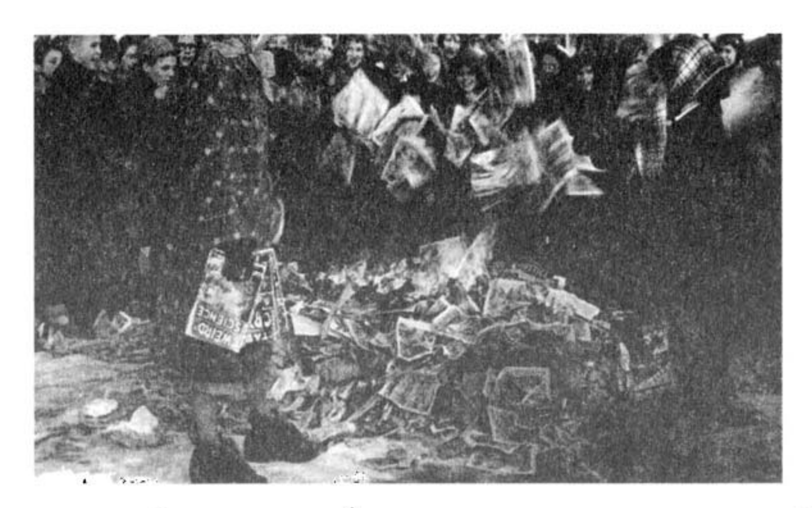
الصور



الأيزيدي بير خدر سليمان لم يجد من وسيلة للتعبير عن الآمه غير أن يحرق كتبه



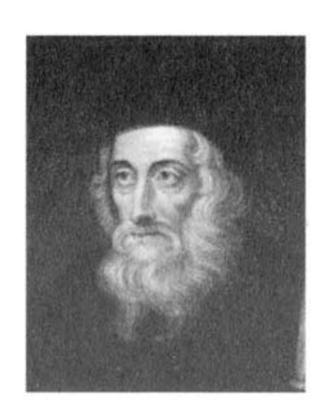
الدكتور سعد الغامدي يرفع راية الدفاع عن ابن العلقمي في كتابه سقوط الدولة العباسية



ألمان نازيون في عمر الزهور يصنعون هرماً من الكتب قبل أن يحرقوها في برلين



الإنجليزي جون ميلتون لاحقته المصائب في حياته وطالت النيران كتبه وأملاكه



المصلح الإنجليزي جون ويكليف لوحق حياً وأحرق ميتاً.



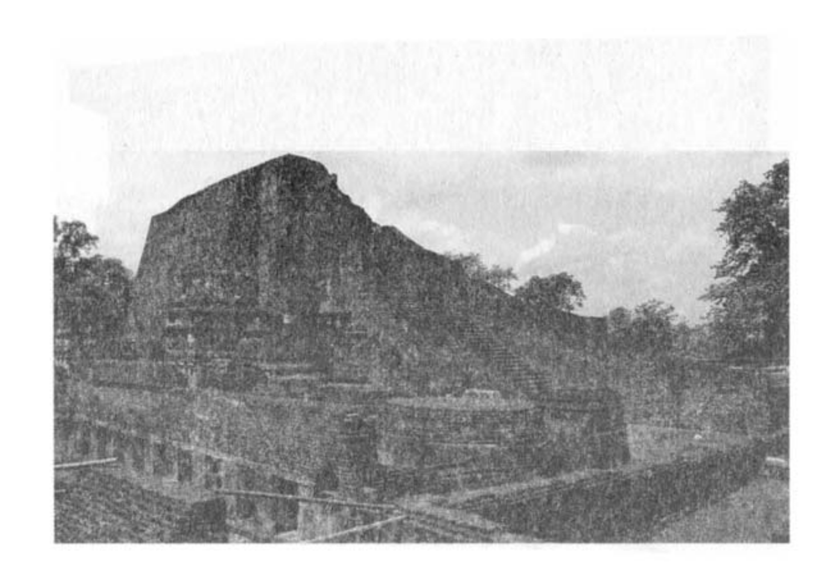
بثينة كشك تتفرج على النيران وهي تأكل كتب الإخوان في فناء مدرسة



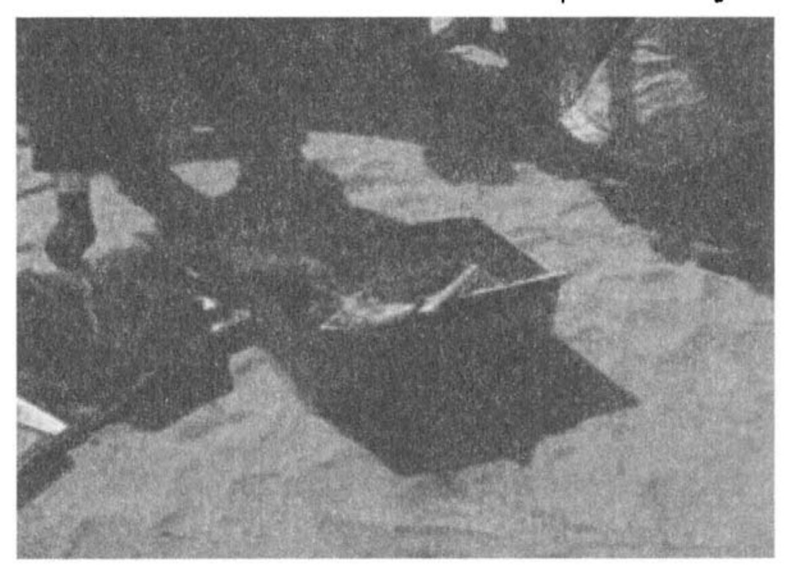
الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003 تسبب في حرق ونهب مكتبات البلاد



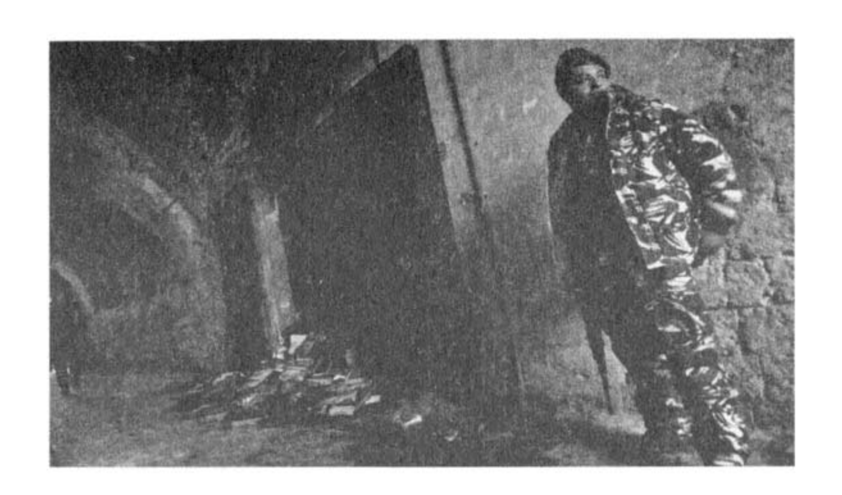
بعد حرق المصلح التشيكي يان هوس وحرق كتبه معه بخمسمائة عام نصب التشيكيون له تمثالاً في وسط العاصمة براغ.



بقايا جامعة نالاندا الهندية التي دمرها القائد التركي اختيار الدين الخلجي سنة 1193 م



ثورة العبيد على أغلال كتب المالكية في موريتانيا



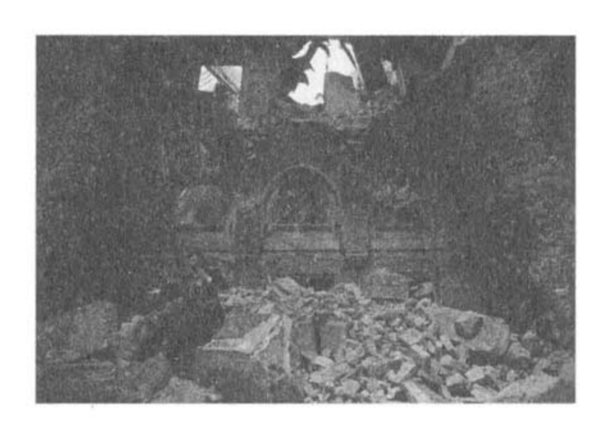
جندي لبناني يحرس مكتبة السائح التي أكلتها النار ذات ليل



حتى مخطوطات تمبكتو في مالي لم تسلم من نيران التطرف المتأسلم



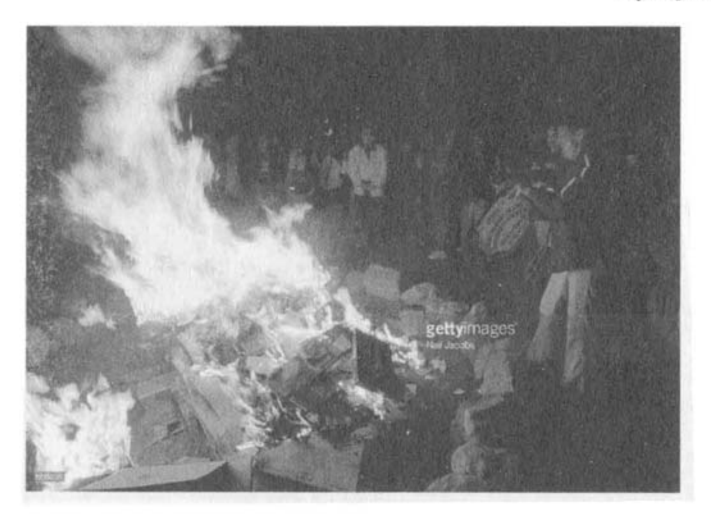
صورة جانبية لراهب فلورنسا سافونارولا الذي كان يأمر أتباعه بحرق الكتب لإحتوائها.



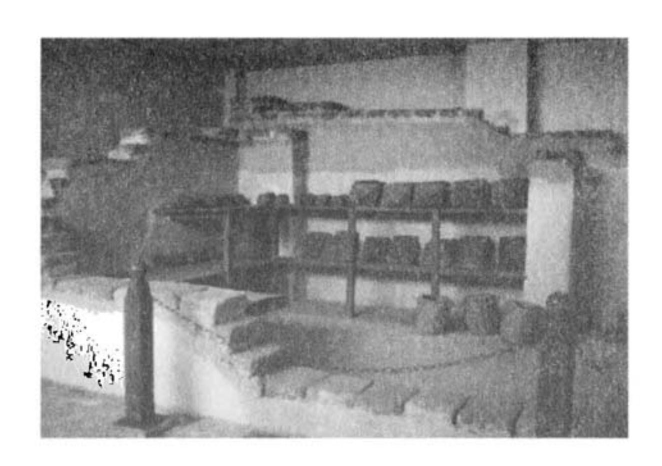
عازف آلة التشيللو فيدران سمالوفيتش البوسني يبث موسيقاه الحزينة من داخل



عراقية تقف في ذهول وسط مكتبة الموصل بعد أن أتى عليها الدواعش حرقاً وسلباً.



متعصبون مسيحيون يرمون كل ما يتعلق بهاري بوتر في النار



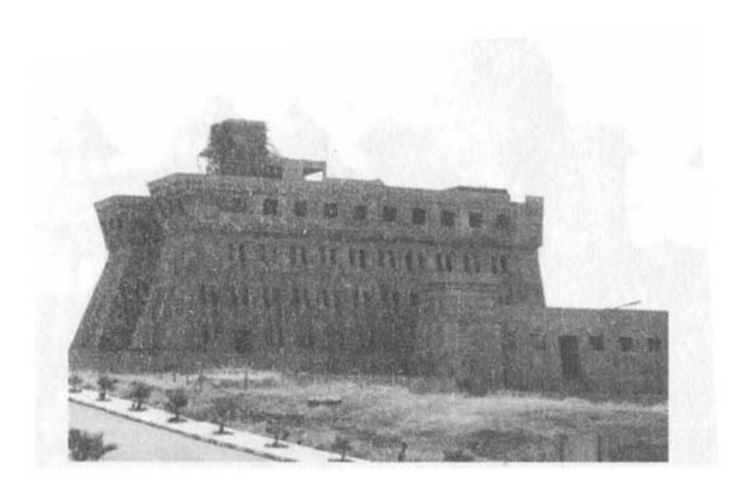
مشهد تخيلي لمكتبة مملكة إيبلا التي دُمرت وأُحرقت قبل الميلاد.



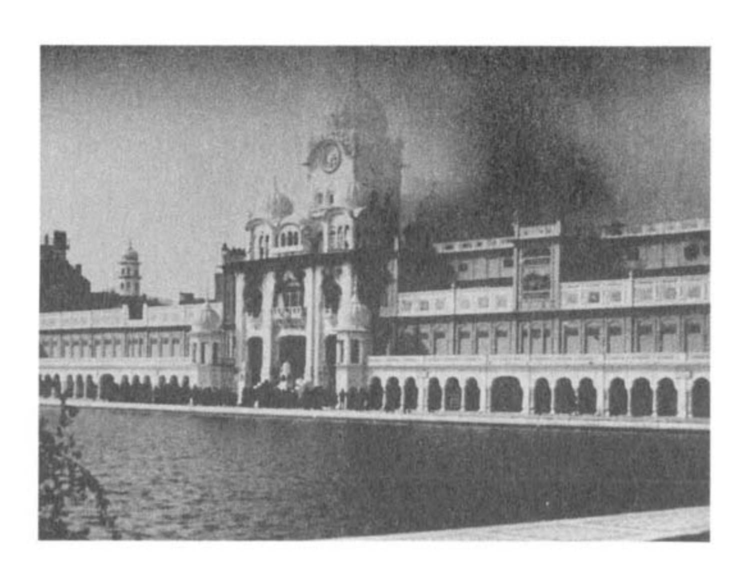
مصري يرمي الجيش بحجر فيما النيران تلتهم كنوز المجمع العلمي المصري.



مفيد جلغوم يحرق كتابه فقوعة قبل أن يحترق به



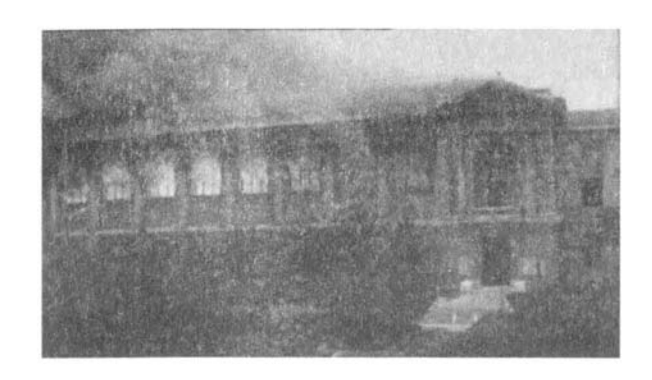
مكتبة أشور بانيبال العظيمة تنتفض من تحت الرماد وتعود للحياة.



مكتبة السيخ في الهند وتُرى الأدخنة تنبعث منها.



منظر لمكتبة جفنا في سيرلانكا بعد أن ابتلعت النار ما فيها من كتب.



منظر لمكتبة جفنا في سيرلانكا بعد أن ابتلعت النار ما فيها من كتب.

الفهرس



حَرقُ الكُتب

تاريخ إتلاف الكُتب والمَكتبات

في هذا الكتاب حكايات عدة لكتب أتلفها أصحابها بأيديهم لأسباب، أبرزها شعورهم بالإحباط من مجتمعاتهم التي تجاهلتهم وربما حاربتهم ولم تمنحهم ما يستحقونه من التقدير المعنوي والمادي. وهناك كتب يتعذر حصرها قامت السلطة السياسية أو الدينية، وفي أغلب الأحيان كلاهما معًا، بملاحقتها وإتلافها أينما وجدت، لما فيها من أفكار تناهض الحاكم وتؤلب العامة عليه، أو أفكار تخالف السائد من المعتقدات الدينية بين الناس. وبالمثل، سنتناول بعض ما لحق بالمكتبات من مصائب ونوائب، مثل ما حصل لمكتبة آشور بانيبال، ومكتبة القسطنطينية، ومكتبة الإسكندرية، ودار العلم، وبيت الحكمة، ومكتبة الموصل، وغيرها كثير. ولعلك ستلاحظ حينما نمرّ بتلك المكتبات المنكوبة أن الجاني عادة ما يكون غازيًا أتى من وراء الحدود لكي يحتل أرض خصمه. وبما أن المكتبات تشكل ذاكرة لأهالي تلك البلاد المغلوبة فلا عجب بعد هذا لو قام الغازي المحتل بإضرام النار فيها حتى يحرق ذاكرة عدوه ويذيب هويته.





تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف